من رَسائِل فقهِ الدَّعوَةِ إلى اللّهِ تعالَى

إِسْعَادُ ٱلرُّوحِ بِشَرْحِ أَفْرَاحِ ٱلرُّوحِ

رسالَةُ سَيِّدِ قُطْبٍ بَعْدَ صُدُورِ حُكْمِ الإِعْدامِ

لِسَيِّدِ قُطْبٍ

إعداد

أَبُو عَبْدِ ٱللَّهِ
زَكَرِيَّا بْنُ طَهَ شَحَادَةَ
غزة - فلسطين

هَذِهِ المَادَّةُ الإلِكْتُرُونِيَّةُ PDF مِنْ إعْدَادِ وَتَنْسِيقِ الشَّبَكَةِ العِلْمِيَّةِ الدَّعوِيَّةِ (بَلِّغُوا عَنِّي العَالَمِيَّةُ)، وَمِنْ إصْدَارَاتِهَا الحَدِيثَةِ المَجَّانِيَّةِ؛ لِلمُطَالَعَةِ الهَاتِفِيَّةِ وَاللَّوْحِيَّةِ وَالحَاسُوبِيَّةِ.

(سَاهِمْ بِالمُشَارَكَةِ وَالنَّشْرِ أخِي الكَرِيمَ، وَأهْدِهَا مَنْ تُحِبُّ؛ فَالدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ، جَزَاكَ اللهُ تَعَالَى خَيرًا كَثِيرًا، وَتَقَبَّلَ مِنْكَ ☺)

لتحميل كافة كتب الشيخ؛ اضغط الأيقونة

1442هـ 2020م

بَلِّغُوا عَنِّي العَالَمِيَّة

إشْرَافُ فَضِيلَةِ الشَّيْخ

أَبُو عَبْدِ اللهِ زَكَرِيَّا بنُ طَهَ شَحَادَة

:: لِزِيارَةِ المَنَصَّاتِ الإِلكتُرونِيَّةِ؛ اضغَطْ على الأَيْقُونَةِ المُقَابِلَةِ لِكُلِّ مَنَصَّةٍ ::

الموقعُ الرَّسْميُّ | قناةُ اليوتيوب

صفحةُ الفيسبوك | مجموعةُ الفيسبوك

قناةُ التليغرام | مجموعةُ التليغرام

مجموعاتُ الواتساب

حسابُ تويتر | حسابُ إنستغرام

مجموعةُ سنقال - Signal | قناةُ Bip | مجموعةُ Bip

لِلتَّبْلِيغِ عَنْ خَطَأ؛ تَوَاصَلْ مَعَ إدارَةِ بَلِّغُوا عَنِّي وَمُنَسِّقِ الكُتُبِ:

:: وَجِّهْ كاميرا الجَوَّالِ عَلَى الأَشْكَالِ المُرَبَّعَةِ؛ للانتقالِ إلى المَنَصَّاتِ ::

SCAN ME | SCAN ME | SCAN ME | SCAN ME | SCAN ME | SCAN ME | SCAN ME

مُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، حَمْدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيهِ، كما يُحِبُّ ربُّنَا، ويَرْضَىٰ، وكَمَا يَنْبَغِي لِكَرَمِ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِه، حَمْدًا يَمْلأُ السمواتِ والأرضَ وما بينَهما، وما شاءَ ربُّنَا مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، بِمَجَامِعِ حَمْدِه كُلِّها: ما عَلِمْنَا مِنْهَا، ومَا لَمْ نَعْلَمْ؛ علىٰ نِعَمِه كُلِّها: مَا عَلِمْنَا مِنْهَا، ومَا لَمْ نَعْلمْ؛ عَدَدَ ما حَمِدَ الحامِدُونَ، وغَفَلَ عن ذِكْرِهِ الغافلونَ، وعَدَدَ ما جَرَىٰ به قَلَمُهُ، وأَحْصَاهُ كتابُهُ، وأَحَاطَ بِهِ عِلْمُه.

وصَلَّىٰ اللهُ وسَلَّم ورَضِيَ وبَارَكَ علىٰ سَيِّدِنَا وإِمَامِنَا؛ مُحَمَّدٍ، وعلىٰ سَائِرِ الأَنْبِياءِ والمُرْسَلينَ، وعلىٰ آلِهِ، وصَحْبِهِ أَجْمَعِين، وعَنِ التَّابِعينَ لَهُمْ بإحسانٍ إِلَىٰ يومِ الدينِ، وبعد.

فمَا أعزَّ الإنسانَ حينَ يَسْتَعْلِي عَلَىٰ دَعواتِ الأَرْضِ، ومَطامِعِ النَّفْسِ.. حينَ يَفْلِتُ مِنْ جَذْبَةِ الطِّينِ؛ مُحَلِّقًا فِي مَلَكُوتِ الرُّوحِ الفَسيحِ.

ومَا أَجَلَّه حينَ يَتَمَرَّدُ علَىٰ مَعايِيرِ البَشَرِ القَاصِرَةِ الدَّنِيَّةِ؛ لِيَحْتكِمَ إِلَىٰ معاييرِ أصحابِ الرِّسالاتِ والدَّعَواتِ مِنَ السَّادَةِ الأَئِمَّةِ.

وما أَكْرَمَ كَرَمَهُ حينَ يَجُودُ بِرُوحِهِ فِي سبيلِ فِكْرَتِهِ وعَقِيدَتِهِ، راضيةً نَفْسُهُ، طَيِّبَةً سَرِيرَتُهُ، آمِنَةً رُوْحُهُ، مُطْمَئِنًّا قَلْبُهُ؛ غيرَ نَادِمٍ، ولَا مُتَرَدِّدٍ، ولا سَاخِطٍ -ولَوْ لِلَحْظَةٍ- علَىٰ مَنْ سَاقَهُ إِلَىٰ القَتْلِ والإِعْدامِ -أَعْنِي- مَنْ أَهْدَىٰ لَهُ الشَّهادَةَ التِي طَالَمَا تَمَنَّىٰ.

وسَيِّدُ قُطْبٍ وَاحِدٌ مِنْ هؤلاءِ السادةِ العُظماءِ مِنْ رِجَالِ الفِكْرِ وأَئِمَّةِ الحَقِّ وسادَةِ الشُّهدَاءِ الذِينَ قَلَّ أنْ يَعْرِفَ الدَّهْرُ أَمْثالَهُمْ.

فَهُوَ سَيِّدٌ بِفِكْرِهِ وعَقِيدَتِهِ يومَ تَبَرَّأَ مِنْ أفكارِ الأَرْضِيِّين، وانْبَرَىٰ يُظِلُّ الدُّنْيا بِوارِفِ ظِلالِهِ[1]، مُودِعَهُ ذَوْبَ رُوحِهِ، وصَفْوَ نَفْسِهِ، هَدِيَّةً نَفِيسَةً لِلْبَشَرِيَّةِ الحائِرَةِ المُعَذَّبَةِ المَكْدُودَةِ، هَدِيَّةً إِلَىٰ سَجَّانِهِ وجَلَّادِهِ وقَاتِلِهِ، قَبْلَ أَنْصارِهِ وأَتْباعِهِ وإِخْوانِهِ ومُحِبِّيهِ.

سَيِّدٌ بِأَلْفاظِهِ وعِبارَاتِهِ وصُوَرِهِ وإِيحاءَاتِهِ التِي أَلْبَسَهَا كَلِمَاتِهِ، فَاسْتَحالَتْ نَاطِقَةً شَفَّافَةً حَيَّةً مُتَحَرِّكَةً، شَاهِدَةً شَهادَةَ الحَقِّ علَىٰ الدُّنْيا ومَنْ فِيها؛ فكانَتْ نَفِيسَةً فَرِيدَةً، قَلَّ أنْ تَجُودَ بِمِثْلِها قَرِيحَةٌ[2].

سَيِّدٌ بِتَجَرُّدِهِ وصِدْقِهِ، يومَ انْخَلَعَ مِنَ الدُّنْيا ومَلاذِّها ومَباهِجِها وفِتْنَتِها؛ سَاعَةَ سِيْقَتْ إليهِ مِنْ قَرْنَيْها؛ فِي سبيلِ كَلِمَةِ الحَقِّ التِي أَفْنَىٰ لِأَجْلِهَا حَيَاتَهُ.

سَيِّدٌ بِقَلْبِهِ الكبيرِ الذِي وَسِعَ الناسَ كُلَّهُمْ، بَرَّهمْ وفَاجِرَهُمْ، عاقِلَهُمْ وأَحْمَقَهُمْ.. وَسِعَهُمْ بِصَبْرِهِ علَىٰ أَذَاهُمْ وشَقَاوَتِهِمْ وضَلَالِهِمْ.. وَسِعَهُمْ بِحُنُوِّهِ ورِفْقِهِ وشَفَقَتِهِ علَىٰ ضَعْفِهِمْ وعَجْزِهِمْ وجَهَالَاتِهِمْ.

سَيِّدٌ حينَ يُطِلُّ مِنْ عَلٍّ، مِنْ مَقَامِ الشُّهداءِ الأحياءِ.. مِنْ مَقامِ التَّرْبِيَةِ الرَّفِيعِ؛ مُرْشِدًا ومُوَجِّهًا.. مُعَلِّمًا ومُرَبِيًا.

---

(1) أعني كتابه الفريد: في ظلال القرآن.

(2) قَرِيحةُ الإنسانِ: طبيعتُه الَّتِي جُبِل، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لِفُلَانٍ قَرِيحَةٌ جَيِّدَةٌ، يُرَادُ بِهِ اسْتِنْبَاطُ الْعِلْمِ بِجَوْدَةِ الطَّبْعِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 4/ 26، والصحاح، للجوهري: 1/ 369.

وَجَدْنا هَذَا كُلَّهُ فِي أَدَبِ سَيِّدٍ وكِتابَاتِهِ وَسيرَتِهِ.. وَجَدْناهُ فِي حياتِهِ ومَمَاتِه؛ أَقْصِدُ حياتَهُ الأُخْرَىٰ.

وَرِسالَةُ: (أَفْراحُ الرُّوْحِ) التِي أَهْداهَا أُخْتَهُ حَمِيدَةَ -وهُوَ يَنْتَظِرُ حَبْلَ المشْنَقَةِ- واحِدٌ مِنَ الشَّواهِدِ الشَّاهِدَةِ، والأَدِلَّةِ النَّاطِقَةِ، والبَراهِينِ الواضِحَةِ، التِي تَشْهَدُ لِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجالِ، وَوَاحِدٍ مِنْ سَادَةِ السَّادَةِ، الذِينَ مَا سَمِعَتْ أُذُنُ الدُّنْيا بِمِثْلِهِ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا القليل.

وإِنَّهُ لَيَهُولُكَ ويُدْهِشُكَ -وأَنْتَ تُنَقِّلُ النَّظَرَ مِنْ حَرْفٍ إِلَىٰ حَرْفٍ، ومِنْ كَلِمَةٍ إِلَىٰ أُخْتِها- مَا أَوْدَعَها مِنْ تَوْجيهاتٍ، وَقَواعِدَ، وَحِكَمٍ، وأَسْرارٍ؛ وما نَفَثَ فِيها مِنْ طِيبِ رُوحِهِ مِنْ رَحْمَةٍ، وبِرٍّ، وشَفَقَةٍ، وحنانٍ؛ ما كانِتْ لِتكُونَ مِنْ رَجُلٍ وَجَدَ كُلَّ مَا وَجَدَ مِنْ قَوْمِهِ وأَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ، إِلاّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الواحِدُ سَيِّدًا.

وَإِنَّهُ لَيَأْخُذُ بِمَجامِعِ قَلْبِكَ -وأنت تَجُولُ فِيَها الفِكْرَ- مَا بَثَّ فِيها -وَهُوَ المُرْتَقِبُ تَنْفيذَ حُكْمِ الجَلَّادِ- مِنْ رُوحِ التَّفَاؤُلِ والأَمَلِ فِي الحَياةِ والبَقَاءِ والنَّماءِ.. سَاخِرًا مِنَ المَوْتِ ونَهَشاتِهِ.. مُسْتَخِفًّا بِالشَّرِّ، الذِي يَبْدُو مُذْهِلًا لِصاحِبِ القَلْبِ الضَّيِّقِ الحَرِجِ.. يَدْعُو إِلَىٰ الشَّفَقَةِ والرَّأْفَةِ.. يَدْعُو إِلَىٰ الحُنُوِّ والعَطْفِ عَلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ، حَتَّىٰ مَنْ يَبْدُو مِنْهُمْ شِرِّيرَ الطِّبَاعِ، فَقِيرَ الشُّعُورِ.

يَبْدُو سَيِّدٌ فِيها وَاضِحًا مُمَيَّزًا بَيْنَ الجِدَّةِ والمُفاصَلَةِ، التِي مَيَّزَتْ فِكْرَهُ وَكِتابَاتِهِ وشَخْصِيَّتَهُ؛ والتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَعَ الأَفْكارِ الأَرْضِيَّةِ والعَقائِدِ الفَاسِدَةِ، والقِيَمِ الهابِطَةِ؛ وبينَ الشَّفَقَةِ والرَّحْمَةِ علَىٰ مَنِ ابْتُلُوا بالانْتِسابِ والاعْتناقِ لِهذِهِ الأفكارِ والعَقائِدِ، بَعْدَ أَنْ وَقَعُوا فِي أَسْرِ شَهَواتِهِمْ وشَياطِينِهِمْ؛ فَهُمْ -بِحَقٍّ- أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَىٰ الرَّأْفَةِ والحَنانِ والرِّفْقِ، فَهؤلاءِ أعظمُ النَّاسِ بلاءً؛ فَلَا أَعظمَ بلاءً، ولَا أَصْعَبَ دَاءً مِمَّنْ ابْتُلِيَ بِنَفْسِهِ وفِكْرِهِ

وهَواهُ، وأُصيبَ بِهَا؛ وهَذا هُوَ مَقَامُ الدَّعْوةِ الرَّشيدِ، مَقامُ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَاتِ، تَجِدُهُ يَدْعُو إِلَىٰ تَجَاوُزِ مَظْهَرِ هؤلاءِ الحيارَىٰ المُعَذَّبينَ المُبْتَلَيْنِ؛ والنفوذِ إِلَىٰ أَعْماقِ أَعْماقِ قُلوبِهِمْ؛ فَتَجِدُ هناكَ كُنُوزًا مِنَ الخَيْرِ مَخْبوأَةً حينَ تُحْسِنُ فَتْحَ أَقْفَالِهَا.. ثُمَّ هُوَ يُرْشِدُ أصحابَ الدَّعَواتِ التِي تُريدُ أنْ تَصْنَعَ لِنَفْسِهَا مَكَانًا فِي الوُجودِ أنْ تُحْسِنَ اسْتِغْلالَ الطَّاقَاتِ؛ مُسْتَعينَةً بِكُلِّ يَدٍ بَانِيَةٍ، دُونَمَا غَضَاضَةٍ، ولا ابْتِئَاسٍ.. ثُمَّ تَرَاهُ يَطْلُبُ مِنْ أَصْحابِ الأَفْكارِ أَنْ يُسْكِنُوهَا قُلُوبَهُمْ، وأَنْ يُطْعِمُوها وُيْرووهَا مِنْ دَمِهِمْ ولَحْمِهِمْ أَوَّلًا؛ حَتَّىٰ تَدُبَّ فِيها الحياةُ، وتَنْتَفِضَ بينَ الأحياءِ؛ ثُمَّ يَطْلُبُوا مِنَ النَّاسِ اتِّبَاعَهُمْ عليها، واعْتِنَاقَ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ؛ لَا قَبْلَ.. ثُمَّ إِنَّهُ لَيَرْبَأُ بِأَهْلِ الحَقِّ أنْ يَلْجَؤُوا إِلَىٰ وَسِيلَةٍ خَسِيسَةٍ -وَإِنْ أَعْيَتْهُمُ السُّبُلُ- وُصُولًا إِلَىٰ غَاياتِهِمُ السامِيَةِ النَّبيلَةِ؛ فَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِ النُّبَلَاءِ العُظَماءِ، وسِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ خَيْرُ شاهِدٍ.. ثُمَّ هُوَ قَبْلَ أَنْ يَخْتِمَ رِسَالَتَهُ نَرَاهُ يَرُدُّ عَجُزًا عَلَىٰ صَدْرٍ؛ مُسْتَخِفًّا بِالمَوْتِ مِنْ جَديدٍ؛ فَهُوَ بالنِّسْبَةِ لَهُ مَرْحَلَةٌ فِي طَرِيقِ الدُّعَاةِ، ولَيْسَتِ النِّهايَةَ؛ فَهُوَ -وَإِنْ غَابَ بِجِسْمِهِ وجُرْمِهِ عَنْ دُنْيا النَّاسِ، ومَاتَ بَدَنُهُ- مُطْمَئِنٌ إِلَىٰ أَنَّهُ مَا زَالَ حَيًّا بِفِكْرِهِ وَعَقِيدَتِهِ؛ لِأَنَّ آخَرِينَ أُشْرِبُوا أَفْكارَهُ، وآمَنُوا بِهَا إِلَىٰ حَدِّ الاعْتِقادِ، وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ- لَنْ يَدَعَ فِكْرَةً صَالِحَةً لِتَمُوت.. ثُمَّ هُوَ مُؤْمِنٌ أَنَّهُ -وإِنْ مَاتَ فِيمَا يَبْدُو للنَّاسِ- قَدْ أَنْهَىٰ فَصْلًا مِنْ فُصُولِ حياتِهِ، وقَدْ بَدَأَ فَصلٌ جديدٌ فِي حياةٍ جديدةٍ طويلةٍ فِي عَالِمٍ جَديدٍ مَديدٍ؛ حَياةٍ أُخْرَىٰ أَرْفَعَ وَأَعَزَّ؛ فِيهَا الرَّاحَةُ والسُّكُونُ والهَنَاءَةُ والرَّوْحُ والرَّيْحانُ؛ حياةٍ هِيَ ثَمَرَةُ مَا كَانَ مِنْ غَرْسٍ مِمَّا تَرَكَ وَرَاءَهُ فِي دَارِ الدُّنْيا؛ فَمِمَّ الخَوْفُ إِذًا مِنَ المَوْتِ؟! وفِيمَ الوَجَلُ؟!

ويَظْهَرُ سَيِّدٌ فِي هذهِ الرِّسالَةِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ جُوُّ الوَدَاعَةِ والنُّعومَةِ، علَىٰ خِلافِ ما هوَ مَعْهودٌ عنه رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ فِي أَكْثَرِ كِتاباتِهِ، التِي يَغْلِبُ عليها فِكْرَةُ الثَّوْرَةِ علَىٰ الظُّلْمِ والتَّحَدِي والمُفاصَلَةِ وتَرْكِ المُوادَعَةِ؛ وذلِكَ لأنَّ الفِكْرَةَ التِي أَرَادَ سَيِّدٌ أَنْ يُبْرِزَها فِي هذهِ الرِّسالَةِ فِكْرَةُ الدَّعْوَةِ والتَّرْبِيَةِ والسَّعَةِ؛ لا سيَّمَا وَقْتَ المِحْنَةِ حينَ رَأَىٰ مِنْ إِخْوانِهِ المُبْتَلَيْنِ مِمَّنْ اسودَّتِ الدُّنْيا فِي وُجوهِهِمْ حينَ وَجَدُوا أَنْفُسهمْ رَهائِنَ المَحْبَسِ، والنَّاسُ مِنْ حولِهِمْ ما بينَ: سَاكِتٍ أَخْرَسَ، لا يَعْنِيهِ إِلَّا نَفْسَهُ، أَوْ مُتَمَلِّقٍ للظَّالِمِ، أَوْ شَرِيكٍ للطُّغاةِ فِي طُغْيانِهِمْ، وهُوَ هُنَا يُؤَكِّدُ فِكْرَةَ حَسَنِ الهُضَيْبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في كتابِ (دعاة لا قضاة)، كَمَا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُرْسِلَ رِسالَةً أُخْرَىٰ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَىٰ الخُصومِ المُرْجفينَ الذينَ اتَّخَذُوا مِنْ كتاباتِ سَيِّدٍ مادَّةً لِتَشْويهِ فِكْرِهِ، ونَعْتِهِ بالظَّلامِيَّةِ والتَّكْفيرِ، فَهُو هُنَا يُسَجِّلُ كلماتِهِ الأَخِيرةَ لإِخْوانِهِ وشُركائِهِ فِي المِحْنَةِ، ولِخُصومِهِ المُتَرَبِّصينَ، وللمُضَلَّلينَ الغَافِلينَ مِنَ البُسطاءِ السَّاذِجينَ الذينَ تَنْطَلِي عليهِمْ أكاذيبُ الأَفَّاكينَ المُبْطِلِينَ.

والرسالةُ علَىٰ كلٍّ مُوَجَّهَةٌ للتَّعامُلِ مَعَ البُسطاءِ الطَّيِّبينَ مِنْ عمومِ الأُمَّةِ، الذينَ يَغْلُبُ عليهِمُ الخَيْرُ، وقَدْ شَغَلَهُمْ عَنِ الدَّعوةِ إِمَّا جَهْلُهُمْ بِهَا وبِرِجَالاتِهَا؛ نَتِيجَةَ حَمْلَةِ التَّضليلِ المُسْتَمِرَّةِ المُوَجَّهَةِ، أَوْ كِفاحُهُمُ الطَّويلُ الشَّاقُّ بَحْثًا عَنْ لُقْمَةِ العَيْشِ، أَوْ خَوفُهُمْ مِنْ مُواجَهَةِ الطُّغيانِ، وَهُمْ ليسوا بِمُؤَهَّلينَ لَها؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ شِدَّتِهِمْ وضَراوتِهِمْ.

وأَمَّا الطُّغاةُ أنفُسُهُمْ؛ فَيُوَجَّهُ لَهُمْ فِكْرٌ آخَرُ يُناسِبُ رُؤُوسَهُمُ المَرِيضَةَ، وأَفْكارَهُمُ الآسِنَةَ المُلَوَّثَةَ الخَبيثَةَ، وقَدْ وَجَّه سَيِّدٌ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ فِي كثيرٍ مِنْ كِتَاباتِهِ لَهُمْ مِنْ أَفْكارِهِ مَا يَصْلُحُ لَهُمْ.

وإِنَّنا إِذْ نُجارِي سَيِّدًا رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ فِي تَرْسيخِ فِكْرَتِهِ، وإِثْباتِ صِدْقِهَا لا نَدْعُو إِلَىٰ أَنْ نَبْقَىٰ نَتَقَمَّصُ دَوْرَ الضَّحِيَّةِ أبدًا، ونُبَرِّرُ لَهُ، وأَنْ نعيشَ حالَةً مِنَ المُوادَعَةِ والنُّعومَةِ الدَّائِمَةِ مَعَ الخُصومِ الشَّرِسينَ.. لَا، لَسْنَا نَدْعُو إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ هَذَا؛ ولكِنَّنَا لَمْ نُرِدْ أَنْ نَذْهَبَ بعيدًا عَنْ جَوِّ الفِكْرَةِ العامَّةِ التِي أرادَهَا سَيِّدٌ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ هُنَا.

فَنَحْنُ نَشْرَحُ رِسالَةً مُحَدَّدَةَ الهَدَفِ، فَليسَ بالمَقْدورِ أَنْ نَذْهَبَ بَعِيدًا عنِ هَدَفِ الرسالَةِ المَنْشودِ، والدِّرَاسَةُ العِلْمِيَّةُ الصَّحيحَةُ تَأْبَىٰ علينَا ذَلِكَ.

وأَمَّا فِكْرُ الثَّوْرَةِ علَىٰ الظُّلْمِ وتَحَدِّي الطُّغاةِ فَقَدِ امْتَلَأَتْ كتاباتُ سَيِّدٍ بالكَثيرِ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ دَائِمًا يَدْعُو إِلَىٰ الثَّوْرَةِ والتَّمَرُّدِ علَىٰ الظُّلْمِ ومُواجَهَةِ الطُّغاةِ بِما يَليقُ لَهُمْ؛ فَبالوُسْعِ أَنْ تُشْبَعَ هَذِهِ الفِكْرَةُ بِرِسالَةٍ مُسْتوحاةٍ مِنْ مَظَانِّها، مِنْ كِتاباتِ سَيِّدٍ أَوْ مِنْ كتاباتِ غَيْرِه، وَعِنْدَهَا تَكونُ الفُرْصَةُ سَانِحَةً للتَّوَسُّعِ والإيضاحِ.

لا بَلْ إِنَّ الدُّعاةَ فِي شَتَّىٰ الأَمْصارِ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ إِشْباعِ هَذَا الفِكْرِ، بحيثُ يُؤَصَّلُ لِفِكْرِ مُواجَهَةِ الطُّغاةِ، وتَحَدِّي الطُّغْيانِ، فَيُعْلَمُ مِنْ خلالِ فِكْرٍ رشيدٍ مَوْزونٍ مَتَىٰ تكونُ النَّصيحَةُ النَّاعِمَةُ الوَادِعَةُ للطُّغاةِ، ومَتَىٰ تكونُ الثَّوْرَةُ السِّلْمِيَّةُ المُوَجَّهَةُ، ومَتَىٰ تَكُونُ المُواجَهَةُ الخَشِنَةُ الحَكِيمةُ المَوْزُونَةُ، وإِلَىٰ أَيِّ حَدٍّ تَذْهَبُ تِلْكَ المُواجَهَةُ، ومَا الذِي يَسْتَدْعِيها؛ ويكون ذلك كُلُّهُ مُؤَصَّلًا مِنْ مَصادِرِ الشَّرِيعَةِ المُعْتَبَرَةِ، حَتَّىٰ يَطْمَئِنَّ النَّاسُ والأتباعُ لِمراحِلِ الثَّوْرَةِ، فَيسيرُوا بِهَا، وَيَنْتَصِرُوا لَهَا علَىٰ بَصِيرَةٍ ورَوِيَّةٍ، مِنْ غيرِ مَا تَرَدُّدٍ، ولا حَيْرَةٍ، ولا اضْطِرَابٍ؛ ويَجْتَهِدُ النَّاسُ حينَ يجتهدونَ فِي ضَوءِ فِقْهٍ وَاضِحٍ، وفِكْرٍ راجِحٍ رَشيدٍ، لَا أَنْ يُتْرَكُوا هَكَذا وَفْقَ مَا تُمْليهِ عليهِمُ اجْتِهاداتُهُمُ الفَرْدِيَّةُ، وأَهْواؤُهُمْ وحُظوظُ نُفُوسِهِمْ أَحْيانًا؛ فيكون التَّخَبُّطُ والتَّشَتُّتُ والشَّطَطُ.

ولَمْ يَكُنْ زمانُ سيِّدٍ حينَ كَتَبَ رسالَتَهُ الرَّقِيقَةَ هَذِه بأَقَلَّ سُوءًا مِنْ أيَّامِنَا هذهِ، فَكانَ فِي زَمانِه فِئاتٌ ضَلَّتْ وانْحَرَفَتْ، ولكنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهَا هُنَا، ولَمْ يُشِرْ إِلَيْها مُجَرَّدَ إشارَةٍ، فِي حينِ أَشَارَ إِلَيْها، بلْ أَشْبَعَها دِراسَةً فِي أَكْثَرِ كِتاباتِهِ؛ فَعَدَمُ الإِشارَةِ إِلَيْهَا هُنَا لا يَعْنِي إِهْمالَهَا، ولكنْ مُوضوعُ الرِّسالَةِ حَاكِمٌ عَلَيْنَا وعلَىٰ سَيِّدٍ مِنْ قَبْلِنَا.

ثُمَّ إنَّ سَيِّدًا لَمْ يَظْهَرْ فِي هذهِ الرِّسالَةِ بِدَوْرِ الضَّحِيَّةِ، كَمَا يَظُنُّ بعضُ النَّاسِ، وإِنَّما بَدَا مُنْتَصِرًا عَزِيزًا شَامِخًا حتَّىٰ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ للشَّهادَةِ، وظهَرَ الطُّغاةُ ضُعفاءَ مَهْزومينَ؛ فالقَتْلُ والشَّهادَةُ لَمْ تَكُنْ يومًا هَزِيمةً، ولمْ يكُنْ صاحِبُها ضَحِيَّةً، ولوْ كانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ لكانَ أَئِمَّةُ الدَّعواتِ مِنَ الأَنبياءِ وأَتْباعِهِمْ قَدِيمًا وحَدِيثًا ضَحَايَا.

فلمْ يَكُنْ زَكَرِيَّا ويَحْيىٰ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، وَهُما يُقْتَلانِ علَىٰ أَيْدِي الطُّغاةِ ضَحِيَّتَيْنِ للطُّغاةِ والطُّغْيانِ، ولَمْ يَكُنْ سَحَرَةُ فِرْعونَ، وهُمْ يُقْتَلونَ وتُقَطَّعُ أَيْديهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ضَحايَا للطُّغاةِ والطُّغْيانِ، ولَمْ يَكُنْ غلامُ أصحابِ الأُخْدودِ -وهُوَ يَدُلُّ الطُّغاةَ علَىٰ قَتْلِ نَفْسِهِ- ضَحِيَّةً للطُّغاةِ والطُّغْيانِ، ولَمْ تَكُنْ سُمَيَّةُ وياسِرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وهُمَا يُقْتلانِ فِي مَكَّةَ ضَحِيَّتَينَ للطُّغاةِ والطُّغيانِ، ولَمْ يكُنْ شُهداءُ الحَرَكَةِ الإِسْلامِيَّةِ المُعاصِرَةِ فِي كُلِّ أَقْطارِ الأَرْضِ ضَحَايا للطُّغاةِ والطُّغيانِ؛ وإِنَّما كانُوا دائمًا وَقُودًا للثَّوْرَةِ والثُّوارِ، يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الأَمَامِ، ويُحَرِّكُهُمْ بِقُوَّةٍ نَحْوَ اسْتِكْمالِ مَا بَدَأُوهُ، وأَلَّا يَخُونُوا دِماءَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ فَكَانَ الشهداءُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يُسَجِّلونَ انْتِصارًا أكيدًا علَىٰ الطُّغاةِ والطُّغْيانِ.. انتصارَ الفِكْرِ والعَقِيدَةِ.. انْتصارَ المَنْهَجِ والسُّلُوكِ!!!

وَهَذِهِ الرِّسالَةُ تُبَيِّنُ انْتصارَ فِكْرَ سَيِّدٍ، وهَزِيمَةَ الطُّغاةِ، وسيأتِي بَعْدُ فِي مَتْنِ الرِّسالَةِ أَنَّها حَرْبُ أَفْكَارٍ، ولَيْسَ جِلَادَ سُيوفٍ؛ ولقَدْ تَجَلَّىٰ انْتِصارُ فِكْرِ سَيِّدٍ اليومَ بظهورِ الثَّوْراتِ

العارِمَةِ علَىٰ الطُّغْيانِ فِي كُلِّ الأَمْصارِ؛ إذْ كُلُّها ارْتَوَتْ مِنْ فِكْرِ سَيِّدٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ بَعْدَ أنْ قَضَىٰ شَهِيدًا.

وأَمَّا بالنِّسْبَةِ لَتَكَرُّرِ بعضِ المَعانِي؛ فَلَقَدْ وَجَدْتُنِي مُضْطرًا لِتكْرارِهَا أَحْيانًا؛ جَرْيًا مَعَ إلْحاحِ سَيِّدٍ علَىٰ المَعانِي نَفْسِها فِي أَكْثَرَ منْ مَوْطِنٍ، بَلْ فِي المَوْطِنِ الوَاحِدِ أَحْيانًا، وسَيِّدٌ مَعْروفٌ بِهَذا فِي كِتاباتِهِ كُلِّهَا. ولَقَدْ فكَّرْتُ فِي بَعْضِ المَواطِنِ فِي حَذْفِ بَعْضِ كَلامِ سَيِّدٍ؛ فِرارًا مِنَ التَّكْرارِ؛ ولَكِنَّنِي آثَرْتُ الإبْقاءَ عليهِ، ومُعالَجَتَهُ مَا أَمْكَنَ؛ إبقاءً لأَصْلِ المَادَّةِ.

هَذَا مَا أَرَدْنَا إيضاحَهُ لِإِخْوَةٍ نَاصِحينَ، ولَسْنَا نَدَّعِي فيهِ كمالَ الصَّوابِ، ولكنَّهُ رَأْيٌ ورُؤْيَةٌ؛ ولِكُلٍّ مَشْرَبٌ ومَنْهَلٌ، فَإِنْ أَصَبْنَا فَمِنَ اللهِ تعالَىٰ وَحْدَهُ، وإنْ أَخْطَأْنا؛ فالخَطَأُ طَبْعُ البَشَرِ، ونَحْنُ عَنْهُ إِلَىٰ الصَّوابِ راجِعُونَ حياةً ومَمَاتًا، ولَقَدْ أَبَىٰ اللهُ تَعالَىٰ ألَّا يكونَ الكَمَالُ إلَّا لَهُ وحْدَهُ، واللهُ تَعالَىٰ المُوَفِّقُ والمُسْتعانُ.

لِذَلِكَ كُلِّهِ؛ أُعِيدَ طَبْعُ رِسالةِ «أفراحُ الرُّوحِ» النَّفيسَةِ لِجيلِ الدُّعَاةِ المَنْشُودِ، مُذَيَّلَةً بشرحٍ متواضعٍ علَىٰ هذهِ الرِّسالَةِ، سمَّيناهُ: (**إِسْعادُ الرُّوْحِ بِشَرْحِ أَفْراحِ الرُّوحِ**)، فَالفَرَحُ والسَّعادَةُ مُترادِفانِ، وقَدْ أَرَدْنَا أنْ نُبْقِيَ وَصْفَ الفَرَحِ والسَّعادَةِ علَىٰ الكِتابِ، لِتَبْقَىٰ الرُّوْحِ مُحَلِّقَةً فِي فَضَائِهِمَا.

وقَدْ أُرِيدَ لِهَذَا الشَّرْحِ أنْ يكونَ كَاشِفًا لِمَا خَفِيَ مِنْ ألفاظِ هذهِ الرِّسالَةِ ومَعانِيها، ومُضيئًا مُنيرًا؛ لِبيانِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ وَراءِ تِلْكَ الأَلْفاظِ والمعانِي مِنْ دِلَالاتٍ وإيحاءَاتٍ؛ رَجَاءَ أَنْ يَنْتَفِعَ بها جيلُ الدُّعاةِ اليومَ فِي زَحْمَةِ المِحَنِ وتَكاثُرِهَا وتَتَابُعِها، واشْتِدادِها واسْتِعارِها؛ فَتَحْيَا بِهَا قُلُوبٌ هدَّتْهَا سَطْوَةُ البَاطِلِ وقَسْوَتُهُ، وتُشْرِقَ بِهَا نُفُوسٌ ضَاقَتْ بِالشَّرِّ

المُسْتَطِيرِ وأَهْلِهِ ذَرْعًا، وتَشِفَّ لِأَجْلِها أرواحٌ مُحَلِّقَةٌ فِي جَوٍّ مِنَ الرَّحْمَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَالشَّفَقَةِ العَلِيَّةِ.

فَهِيَ مَادَةُ تَربِيَةٍ، تَصْلُحُ لِلدُّعَاةِ فِي مَرَاحِلِ التَّرْبِيَةِ المُخْتَلِفَةِ؛ وَهِيَ مَادَّةُ فِكْرٍ وَأُصُولٍ؛ تَصْلُحُ لِلْمُفَكِّرِينَ فِي مَرْحَلَةِ التَّفْكِيرِ والتَّأْصِيلِ والتَّقْعِيدِ، وهِيَ مَادَّةُ سِياسَةٍ وحُكْمٍ؛ تَصْلُحُ للدُّعاةِ فِي مَرْحَلَةِ القِوامَةِ والوِلَايَةِ والحُكْمِ والاسْتِخْلافِ.

وكتبه

زكريا بن طه شحادة

تَرْجَمَةُ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى

«الشهيدُ سَيِّد قطب إبراهيم، مُفَكِّرٌ إِسْلامِيٌّ مِصْرِيٌّ، كانَ مَوْلِدُهُ فِي قَرْيَةِ (موشه) التَّابِعَةِ لِمُحافَظَةِ أسيوطَ فِي صعيدِ مِصْرَ فِي العامِ 1324هـ، الموافق: 9/ 10/ 1906م، ودَخَلَ المَدْرَسَةَ الابْتِدائِيَّةَ فِي القريةِ فِي العامِ 1912م، حيثُ تخرَّجَ منها فِي العامِ 1918م، ثمَّ انْقَطَعَ عَنِ الدِّراسَةِ لمدَّةِ عامينِ بسببِ ثَوْرَةِ 1919م. وفِي العامِ 1920م سافَرَ إِلَىٰ القاهِرَةِ للدِّرَاسَةِ، حيثُ الْتَحَقَ بمدرسَةِ المُعَلِّمينَ الأَوَّلِيَّةِ فِي العامِ 1922م، ثمَّ الْتَحَقَ بمدرسَةِ (تَجْهِيزِيَّةِ دارِ العلومِ) فِي العامِ 1925م، وبعدَهَا الْتَحَقَ بِكُلِّيَّةِ دارِ العُلومِ فِي العامِ 1929م، حيثُ تَخَرَّجَ منها فِي العامِ 1933م، حاملًا شهادة الليسانس فِي الآداب.

عُيِّنَ بعدَ تَخَرُّجِهِ مُدَرِّسًا فِي وزارَةِ المعارِفِ بمدرسَةِ الدَاوُدِيَّةِ، ثمَّ انتقلَ إِلىٰ مدرسةِ دِمْياطَ فِي العامِ 1935م، ثمَّ إِلَىٰ حلوانَ فِي العامِ 1936م، وفِي العامِ 1940م نُقِلَ إِلَىٰ وزارَةِ المعارِفِ، ثمَّ مُفَتِّشًا فِي التَّعليمِ الابتدائِيِّ، ثمَّ عادَ إِلَىٰ الإدارَةِ العامَّةِ للثقافَةِ بالوزارةِ فِي العامِ 1945م، وفِي هَذا العامِ أَلَّفَ أَوَّلَ كتابٍ إِسْلامِيٍّ هُوَ: (التَّصويرُ الفَنِّيُّ فِي القُرْآنِ)، وابْتَعَدَ عَنْ مَدْرَسَةِ العقَّادِ الأَدَبِيَّةِ.

* وفِي العامِ 1948م أَوْفَدَتْهُ وزارَةُ المعارِفِ إِلَىٰ أَمرِيكَا للاطِّلاعِ علَىٰ مناهِجِ التعليمِ ونُظُمِهِ، وبَقِيَ فيها حوالَي السَّنَتينِ، عادَ بعدها إِلَىٰ مِصْرَ فِي 20/ 8/ 1950م، وعُيِّنَ فِي مَكْتَبِ وزيرِ المَعارِفِ بِوَظيفَةِ مُراقِبِ مساعِدٍ للبحُوثِ الفَنِّيَّةِ، واستمرَّ حتىٰ 18/ 10/ 1952م، حيثُ قدَّمَ اسْتِقالَتَهُ.

* عَمِلَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي الصَّحافَةِ مُنْذُ شبابِهِ، ونَشَرَ مئاتِ المقالاتِ فِي الصُّحُفِ والمجلَّاتِ المِصْرِيَّةِ، وأصدَرَ مجلَّتَيْ (العالم العربي)، و(الفكر الجديد)، ثُمَّ تَرَأَّسَ جَرِيدَةَ (الإخوان المسلمون) الأُسْبوعِيَّةِ في العام 1953م، وهِيَ السَّنَةُ التِي انْتَسَبَ فيها إِلَىٰ الإخوانِ المسلمينَ رَسْمِيًا، وكانَ قَبْلَ ذَلِكَ قريبًا مِنَ الإخوانِ، مُتَعاوِنًا مَعَهُم، وقَدْ حارَبَ فِي مقالاتِهِ مظاهِرَ الفسادِ والانحرافِ فِي حياةِ مِصْرَ الاجتماعيَّةِ والسياسِيَّةِ والاقتصادِيَّةِ، وهاجَمَ المسؤولينَ عَنْ ذلكَ الفسادِ، ودَعا إِلَىٰ الإصلاحِ علَىٰ أساسِ الإسلامِ، فكانَ بهذا رجلًا اجْتماعيًا ذَا حُضورٍ دائِمٍ فِي حياةِ مِصْرَ الثقافِيَّةِ والاجتماعِيَّةِ والسياسِيَّةِ والإصلاحِيَّةِ، وكانَ يَعُدُّ الاحتلالَ الإنجليزِيَّ وأعوانَهُ من رجالِ القَصْرِ، والحُكُوماتِ المُتَعاقِبَةَ ورِجالَ الأحزابِ والإقْطاعَ وكِبَارَ التُّجَّارِ السَّبَبَ فِي تَخَلُّفِ مِصْرَ.

* وصَلَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي النَّقْدِ والأَدَبِ إِلَىٰ القِمَّةِ، وبَشَّرَ بِنَظَرِيَّةٍ نَقْدِيَّةٍ جديدةٍ فِي النَّقْدِ الأَدَبِيِّ، أَطْلَقَ عليها (نظريةَ الصُّورِ والظِّلالِ)، كَمَا دَعا إِلَىٰ المنهجِ المُتكامِلِ في النَّقْدِ الأَدَبِيِّ، وذلكَ بالجَمْعِ بينَ المَنْهَجِ الفَنِّيِّ والمَنْهَجِ التَّاريخِيِّ والمنهَجِ اللُّغَوِيِّ والمَنْهَجِ النَّفْسِيِّ.

* فِي العامِ 1947م اتَّجَهَ سَيِّدُ قُطْبٍ إِلَىٰ الإسلامِ، وغَدا مُصْلِحًا إِسْلامِيًّا، ثُمَّ صارَ أَحَدَ أَبْرَزِ رُوَّادِ الفِكْرِ الإِسْلامِيِّ المُعاصِرِ، ودَعا إِلَىٰ بَعْثٍ إِسْلامِيٍ طَلِيعِيٍ، وإِلَىٰ اسْتِئْنافِ الحياةِ علَىٰ أساسِ الإسلامِ، ولهذا فسَّرَ القرآنَ الكريمَ تَفْسيرًا جديدًا فِي كتابِهِ (فِي ظلالِ القرآنِ)، وكانَ فيهِ صاحِبَ مَدْرَسَةٍ جديدَةٍ فِي التَّفْسيرِ، هِيَ مدرسَةُ التَّفْسيرِ الحَرَكِيِّ، لِمَا أَضَافَهُ مِنْ مَعَانٍ وأَفْكارٍ حَرَكِيَّةٍ وتَرْبويَّةٍ علَىٰ تَفْسِيرِه.

* أَلَّفَ سَيِّدٌ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ المُؤَلَّفاتِ، غَلَبَتْ عليها الوجهةُ الأدبيَّةُ مِنْ نَقْدٍ وأَدَبٍ وشِعْرٍ وقَصَصٍ فِي بدايَةِ حياتِهِ العِلْمِيَّةِ، ثُمَّ تحوَّلَ بشكْلٍ جَذْرِيٍ إِلَىٰ العطاءِ الفِكْرِيِّ الإِسْلامِيِّ، وهَذَا التَّطَوُّرُ يُمَثِّلُ التَّحَوُّلَ العميقَ في حياتِهِ المُستَمِرَّةِ وسيرتِهِ العَطِرَةِ، وكانَ لِمُحاضَراتِهِ الإسلامِيَّةِ فِي بلادِ الشامِ -حينَ حضورِهِ المؤتمرَ الإسلامِيَّ لِلْقُدْسِ- أكبرُ الأَثَرِ فِي نُفُوسِ الجماهِيرِ؛ خَاصَّةً شَبابَ الجامعاتِ، الذينَ هَلَّلُوا لِهَذا التَّوَجُّهِ الإسلامِيِّ عندَ الأديبِ الكبيرِ.

* مِنْ أَهَمِّ مُؤَلَّفاتِهِ: فِي ظِلالِ القُرْآنِ، وهذا الدينُ، والمستقبَلُ لِهذا الدِّينِ، وخصائِصُ التَّصَوُّرِ الإسلامِيِّ؛ وَمُقَوِّماتُ التَّصَوُّرِ الإسلامِيِّ، ومعالِمُ فِي الطَّرِيقِ، والتَّصْويرُ الفَنِّيُّ فِي القرآنِ، ومشاهِدُ القِيامَةِ فِي القرآنِ، والإسلامُ ومُشْكِلَاتُ الحَضارَةِ، والعَدالَةُ الاجتماعِيَّةُ فِي الإسلامِ، والسلامُ العالَمِيُّ والإسلامُ، وكُتُبٌ وشخصيَّاتٌ، وأشواكٌ، والنَّقْدُ الأدبِيُّ: أُصولُهُ ومناهِجُهُ، ونَحْوَ مُجْتَمَعٍ إسلامِيٍّ، وطفلٌ مِنَ القريَةِ، والأطيافُ الأَرْبَعَةُ، ومَهَمَّةُ الشَّاعِرِ فِي الحياةِ، ومَعْرَكَةُ الإسلامِ والرَّأْسماليَّةِ، وتفسيرُ آياتِ الرِّبَا، وتَفْسيرُ سُورَةِ الشُّورَىٰ، ودِراساتٌ إسلاميَّةٌ، ونَحْوَ مُجْتَمَعٍ إِسْلامِيٍّ، ومعركتُنَا مَعَ اليهودِ، وفي التاريخِ: فِكْرَةٌ ومنهاجٌ. وقَدْ أصدرَتْ مجلةُ (عالَمُ الكُتُبِ) التي تَصْدُرُ بالمَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السعوديَّةِ فَهْرَسًا جيدًا لِمُؤَلَّفاتِهِ ومَقالاتِهِ.

* اختلفَ سَيِّدُ قُطْبٍ مَعَ رِجالِ الثَّوْرَةِ المصريَّةِ بعدَ أنْ انْقَلَبَ عبدُ الناصرِ علَىٰ الرئيسِ مُحَمَّدِ نَجيبٍ، وتَفَرَّدَ بالسُّلْطةِ، وأقامَ الحُكْمَ الدِّكْتاتوريَّ بدلَ النِّظامِ الشُّورِيِّ، واعْتَدَىٰ علَىٰ رجالِ القانونِ والدُّعاةِ وأَساتِذَةِ الفِكْرِ والعُلماءِ؛ فاعْتُقِلَ سيدُ قُطْبٍ لأوَّلِ مَرَّةٍ مَطْلَعَ العامِ 1954م، وبَقِيَ لمدَّةِ شهرينَ فِي المُعْتَقَلِ معَ قياداتِ الإخوانِ المسلمينَ، ثمَّ اعْتُقِلَ

مرَّةً أُخْرَىٰ بعدَ مَسْرَحِيَّةِ (حَادِثُ المَنْشِيَّةِ) التِي اتَّهَمَ عبدُ الناصرِ فيها الإخوانَ بِمُحاولَةِ اغتيالِهِ يومَ 26/ 10/ 1954م، حيثُ قُدِّمَ سَيِّدُ قُطْبٍ للمُحاكَمَةِ يومَ 22/ 11/ 1954م، وكانَتِ المحكَمَةُ بِرِئاسَةِ جمالِ سالِمٍ، وعُضْوِيَّةِ أنورِ السَّادَاتِ، وحُسَينِ الشَّافِعِيِّ، وحَكَمَتْ عليهِ المَحْكَمَةُ بالسجْنِ لِمُدَّةِ خمسةَ عشرَ عامًا، ثمَّ توسَّطَ الرَّئيسُ العِراقِيُّ عبدُ السَّلامِ عارِفٍ؛ فَأُفْرِجَ عنْهُ بِعَفْوٍ صِحِيٍّ في العامِ 1964م.

وفِي العامِ 1965م، أعلنَ عبدُ النَّاصرِ مِنْ مُوسكُو -وكانَ فِي زيارَةٍ لهَا- عَنِ اكْتشافِ مُؤامَرَةٍ دَبَّرَها الإخوانُ المسلمونَ بقيادَةِ سَيِّدِ قُطْبٍ لاغتيالِهِ، وقَلْبِ نِظامِ الحُكْمِ؛ فاعتُقِلَ سيدُ قُطْبٍ للمَرَّةِ الثالِثَةِ يومَ 9/ 8/ 1965م، وبدأَ التحقيقُ معَهُ فِي السجنِ الحَرْبِيِّ في 19/ 12/ 1965م، واستمرَّ ثلاثَةَ أيَّامٍ، حيثُ بدأَتْ مُحاكَمَتُهُ أمامَ مَحْكَمَةٍ برئاسَةِ فؤادِ الدَّجَوِيِّ يومَ 12/ 4/ 1966م، وأصْدَرَتِ المَحْكَمَةُ حُكْمَ الإعدامِ علَىٰ سيِّدِ قُطْبٍ يومَ 21/ 8/ 1966م، وقدْ وصلَتْ بَرْقِيَّاتٌ كثيرةٌ مِنْ أنحاءِ العالَمِ العَرَبِيِّ والإسلامِيِّ تُطالِبُ عبدَ النَّاصِرِ بِعَدَمِ تَنْفيذِ حُكْمِ الإعدامِ فِي سَيِّدٍ.

* وكانَ المَلِكُ فَيْصَلُ بنُ عبدِ العزيزِ آلِ سُعُودٍ قَدْ أرسلَ بَرْقِيَّةً لعبدِ الناصرِ وصَلَتْ يومَ 28/ 8/ 1966م، يَرْجوهُ فيها عَدَمَ إعدامِ سِيِّدِ قُطْبٍ، وأوصَلَ سامِي شَرَفٍ البرقِيَّةَ لعبدِ النَّاصرِ فِي ذلِكَ المساءِ، فقالَ عبدُ الناصرِ لِسَامِي شَرَفٍ: أَعْدِمُوهُ فِي الفَجْرِ غدًا، واعْرِضْ عَلَيَّ البَرْقِيَّةَ بعدَ الإعدامِ! ثمَّ أرسلَ عبدُ الناصرِ بَرْقِيَّةَ اعْتِذارٍ للمَلِكِ فَيْصَلٍ بِأَنَّ البَرْقِيَّةَ وَصَلَتْ بعدَ تَنْفيذِ الإعدامِ!! وكانَ تنفيذُ الحُكْمِ قدْ تَمَّ قبلَ بُزُوغِ فَجْرِ يومِ الإثنينِ: 13/ 5/ 1386هـ المُوافِقُ: 29/ 8/ 1966م.

* اسْتَنْكَرَ المسلمونَ هذِهِ الجريمَةَ الشَّنْعاءَ، وأُقيمَتْ صلاةُ الغائبِ عليهِ فِي المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وأَصْدَرَ الكثيرُ مِنَ الصُّحُفِ الإسلامِيَّةِ بالعربِيَّةِ وغيرِها أَعْدادًا خَاصَّةً عَنِ الشهيدِ سَيِّدِ قُطْبٍ وإخوانِهِ، وتَوَقَّعَ الكثيرونَ مِنَ العُلَماءِ والدُّعاةِ أنْ تُصيبَ المُجْرمينَ قارِعَةٌ؛ فَلَمْ تَمْضِ سِوَىٰ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ حتَّىٰ كانتْ نَكْبَةُ العامِ 1967م، هُزِم عبدُ النَّاصِرِ شَرَّ هَزِيمَةٍ، وكَتَبَ علالُ الفَاسِيُّ، الزَّعيمُ المَغْرِبِيُّ وخَطَبَ قائِلًا: ما كانَ اللهُ تعالَىٰ لِيَنْصُرَ حَرْبًا يَقُودُها قَاتِلُ سَيِّدِ قُطْبٍ»[1].

(1) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 93-100.

مَنْهَجُ الكِتَابِ

1- ضَبْطُ مَتْنِ الرِّسَالَةِ ضبطًا نحويًا وصرفيًا، حتَّىٰ يَسْهُلَ قِرَاءَتُها، ويزولَ الإشكالُ والالْتِبَاسُ عَنْ أَلْفاظِها.

2- شَرْحُ غريبِ الألفاظِ شرحًا كاملًا، أتينا علَىٰ كُلِّ لَفْظَةٍ نَظُنُّ غَرَابَتَها، وكانَ المَرْجِعُ فِي ذلكَ إلىٰ كتبِ المَعَاجِمِ اللُّغَوِيَّةِ، وشُرُوحِ كُتُبِ السُّنَّةِ المُعْتَبَرَةِ.

3- شَرْحُ الرِّسالَةِ فِقْرَةً، فِقْرَةً؛ مُعْتَمدينَ علَىٰ مَا تَحْتَمِلُهُ العَرَبِيَّةُ للألفاظِ من معانٍ، ثمَّ علَىٰ فَهْمِنَا لِمَا يَرْميهِ سَيِّدٌ مِنْ وراءِ تِلْكَ المَعَانِي والأَلْفاظِ؛ بَعْدَ اطِّلَاعٍ وطُولِ قِرَاءَةٍ لِسَيِّدٍ، امْتَدَّتْ لسَنَواتٍ طويلَةٍ مِنَ الزمنِ؛ أَفْضَتْ إلىٰ فَهْمِ شخصيةِ سيدٍ وفِكْرِهِ وأسلوبِهِ، وهَذا كُلُّهُ بعدَ توفيقِ اللهِ تَعالَىٰ لنا، وفَتْحِهِ علينا، فَما كانَ مِنْ توفيقٍ فَمِنْهُ وَحْدَهُ، وهُوَ سبحانه أَهْلُهُ علَىٰ الحَقِيقَةِ، ومَا نُسِبَ إِلَيْنَا مِنْهُ، فَعَلَىٰ سبيلِ الاسْتِعَارَةِ والمَجَازِ.

4- مَيَّزْنَا مَتْنَ الرِّسَالَةِ عَنِ الشرحِ؛ بِجَعْلِ مَتْنِ الرِّسَالَةِ بالخَطِّ العَرِيضِ، وجَعَلْنَا شَرْحَهَا بِالخَطِّ الدَّقِيقِ.

5- تَقْسيمُ الرِّسَالَةِ إِلَىٰ خَمْسَ عَشْرَةَ فِقْرَةً، وقَدْ جَعَلْنَا كُلَّ فِقْرَةٍ قَاعِدَةً مِنْ قَواعِدِ فِقْهِ الدَّعْوَةِ، وعَنْوَنَّا لِكُلِّ قَاعِدَةٍ بِعُنْوانٍ مُناسِبٍ لِمَضْمونِ الفِقْرَةِ.

6- الاسْتِشْهادُ بِآياتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ في المواطنِ التي يصلُحُ لها الاسْتِشْهادُ، وبالأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ التِي صَحَّتْ عندَ أهلِ العِلْمِ المُعْتَبَرِينَ، وذِكْرُ ما يناسِبُ مِنْ أقوالِ أهلِ العِلْمِ المُوثُوقينَ.

7- التَّنْبيهُ علَىٰ بَعْضِ المَواطِنِ التِي سَلَكَ فيها سيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- مَسْلَكَ المَجَازِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالىٰ وصفَاتِهِ؛ ومَا يَنْبَغِي أنْ تَكُونَ عَلَيْهِ؛ مُعْتَذِرينَ لِسَيِّدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- بِمَا يَلِيقُ فِي مَوْطِنِه.

القاعدةُ الأُولَى

التَفَاؤُلُ والاسْتِبْشارُ في سَاعاتِ الشِّدَّةِ يَفْتَحُ الآفَاقَ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّ فِكْرَةَ المَوْتِ مَا تَزَالُ تُخَيَّلُ لَكِ[1]؛ فَتَتَصَوَّرِينَهُ فِي كُلِّ مَكانٍ، وَوَراءَ كُلِّ شَيْءٍ، وتَحْسَبِينَهُ قُوَّةً طَاغِيَةً، تُظِلُّ الحياةَ والأَحْياءَ، وتَرَيْنَ الحياةَ بِجَانِبِهِ ضَئِيلةً وَاجِفَةً مَذْعُورَةً. إنَّنِي أَنْظُرُ اللَّحْظَةَ فَلَا أَرَاهُ إلَا قُوَّةً ضَئِيلَةً حَسِيرَةً بِجانِبِ قُوَىٰ الحياةِ الزَّاخِرَةِ[2] الظَّافِرَةِ[3] الغَامِرَةِ[4]، ومَا يَكادُ يَصْنَعُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَلْتَقِطَ الفُتَاتَ السَّاقِطَ مِنْ مَائِدَةِ الحياةِ لِيَقْتَاتْ!».

---

(1) ضمير المخاطب في (لكِ) عائد علىٰ أخت سيد قطب؛ حميدة قطب، وكان سيد قد أرسل لها هذه الرسالة بعد صدور حكم الإعدام، وكانت أخته تنتظر خبر الإعدام، وتتخيل الموت في كل لحظة؛ فأراد سيد أن يخفف من رَوْعِها، وأنْ يفتَحَ لها بابًا من الأمل والتفاؤل. وحميدة قطب إبراهيم: أديبة مصرية، وهي الشقيقة الصغرىٰ لسيد قطب، ولدت في القاهرة في العام 1937م، اعتقلت في العام 1965م، وحُكِمَ عليها بالأشغال الشاقة لعشر سنوات -وعمرها حينئذٍ 29 عامًا- حيثُ اتُّهِمَتْ بِنَقِلِ معلومات وتعليمات من سيد قطب إلىٰ زينب الغزالي، وكذلك المساهمة في لجنة لإعالة أسر المعتقلين في الفترة من 1954م -1964م. خرجت من المعتقل بعد 6 سنوات وأربعة أشهر، قضتها بين السجن الحربي وسجن القناطر، تزوجت من الدكتور حمدي مسعود، وانتقلت معه للإقامة بفرنسا. توفيت يوم: 17-7-2012.

(2) الزاخرة: الممتدة الكثيرة الطويلة الواسعة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 320.

(3) الظَّفَرُ: الفَوْزُ بالمطلوب، والظافرة: الحاصلة علىٰ مقصودها الذي تطلب، انظر: معجم العين، للخليل: 8/ 158.

(4) الغامرة: الكثيرة التي تستوعب الشيء المغمور كله وتغطيه من فوقه ومن جوانبه، والغَمْر: الماء الْكثير، وسُمّي الرجل غَمْرًا، إذا كَانَ وَاسع الْعَطاء كثير الْخَيْر، انظر: جمهرة اللغة، لابن دُرَيْدٍ: 2/ 781.

* يَتفاءَلُ سيدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- ويَسْتَبْشِرُ، وَهُوَ قَابِعٌ فِي زِنْزَانَتِهِ ومَحْبَسِهِ؛ بالرَّغْمِ مِمَّا يَنْتَظِرُهُ مِنَ القَتْلِ والإعْدَامِ، ويُهَوِّنُ سيدٌ في هذه الفِقْرةِ مِنْ شأنِ الموتِ والقَتْلِ الذِي يَتَسَبَّبُهُ الطغاةُ للدُّعاةِ، فَمَا يصنعُهُ الطغاةُ هُوَ قَتْلُ إنسانٍ، وإزهاقُ روحٍ الفينةَ بعدَ الفَيْنَةِ؛ وتبقىٰ الكثرةُ الكاثِرَةُ مِنَ جُمُوعِ الدُّعاةِ سائِرَةً فِي طَرِيقِها؛ لا تَعْبَأُ[1] بالمَوْتِ العَارِضِ، ولا تَحْفلُ بِهِ؛ بلْ لَرُبَّما اسْتَبْشَرَتْ بِهِ، ورَحَّبَتْ، وتَمَنَّتْهُ.

* ولا تَعَارُضَ بين تَهْوِينِ سَيِّدٍ مِنْ شأنِ المَوْتِ، وبينَ ما وَرَدَ مِنْ نُصوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ وآثارِ السَّلَفِ التِي تُعَظِّمُ مِنْ شَأْنِ الموتِ وتُحَذِّرُ بَغْتَتَهُ[2]؛ فإنَّ النُّصوصَ الوَارِدَةَ فِي المَوْتِ تَتَنَاوَلُهُ مِنْ جَانِبَينِ:

الأَوَّلُ: جانِبُ الخَوْفِ مِنْ قُدُومِ المَوْتِ ومُفاجَأَتِهِ، ومَا فيهِ مِنْ شِدَّةٍ وفِتْنَةٍ ودَوَاهٍ وكُرُباتٍ؛ للزَّجْرِ عَنْ مُخالَفَةِ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وأَمْرِ رسولِهِ ﷺ؛ فتكونُ ثَمَّ الاستقامةُ. والأمثلَةُ علىٰ ذَلِكَ كثيرةٌ مُشْتَهِرَةٌ.

والثَّانِي: جانبُ الرَّجاءِ فِي اللهِ تعالَىٰ عِنْدَ قُدُومِ الموتِ، والفَرَحُ والاستبشارُ بِهِ، كاسْتِبْشارِ الحبيبِ بقدومِ أَحَبِّ الناسِ إليهِ، وقدْ طالَتْ غَيْبَتُهُ عَنْهُ، وعَظُمَ رَجَاؤُهُ بِلُقْياهُ، كَقَولِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «حَبِيبٌ جَاءَ عَلَىٰ فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ، ثُمَّ

---

(1) لا تعْبَأُ: لا تُبَالِي ولا تهْتَمُّ، انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: 19/ 85.

(2) المباغتة: المفاجأة، وباغَتَه مبُاغَتةً، أي: فاجأه مفاجأة، انظر: معجم العين، للخليل: 4/ 397.

مَاتَ ﷺ»[1]، وكقولِ مُعاذٍ ﷺ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ: «مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ مَرْحَبًا، زَائِرٌ مُغِبٌّ[2]، حَبِيبٌ جَاءَ عَلَىٰ فَاقَةٍ[3]، اللهُمَّ إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَخَافُكَ، فَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ، اللهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ الْبَقَاءِ فِيهَا لِجَرْيِ الْأَنْهَارِ، وَلَا لِغَرْسِ الْأَشْجَارِ، وَلَكِنْ لَظَمَأِ الْهَوَاجِرِ[4]، وَمُكَابَدَةِ[5] السَّاعَاتِ، وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ»[6]، وعنِ الْحَارِثِ بْنِ عُمَيْرَةَ الزُّبَيْدِيِّ، قَالَ: إِنِّي لَجَالِسٌ عِنْدَ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَهُوَ يَمُوتُ فَهُوَ يُغْمَىٰ عَلَيْهِ مَرَّةً، وَيَفِيقُ مَرَّةً، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ عِنْدَ إِفَاقَتِهِ: «اخْنُقْ خَنْقَكَ، فَوَعِزَّتِكَ إِنَّنِي لأُحِبُّكَ»[7]، وكقول بلال ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: «غَدًا نَلْقَىٰ الأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ، وتَقُولُ امْرَأَتُهُ: وَابِلالاهُ، وهو يَقُولُ: وَافَرَحَاهُ»[8]، وقالَ مسروقٌ: «مَا مِنْ بيتٍ خيرٍ للمؤمنِ مِنْ لَحْدِهِ؛ قد

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة: 7/ 458.

(2) مُغِبٌّ: آتٍ بعدَ انْتِظارٍ، ومِنْهُ غَبَّ الرَّجلُ، إذا جَاءَ زَائِرًا بَعْدَ أَيَّامٍ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 3/ 451.

(3) الفاقة: الحاجة والفقر، والمقصود: إن الموت جاء وهو متشوق له، كما يتشوق الفقير المحتاج لما يسد حاجته، ويغني فاقته، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 3/ 480.

(4) الْهَاجِرَةُ: نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 324. والمقصود بظمأ الهواجر: الظمأ ليوم الصيام ساعة اشتداد الحرارة.

(5) الْكَبَدُ، والمكابدة: المقاساة والتَّعَبُ وَالشِّدَّةُ، انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: 1/ 324. والمقصود بمكابدة الساعات: مجاهدة نفسه وحملها علىٰ العبادة ومقاساة الشدائد في ذلك.

(6) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم: 1/ 239.

(7) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 3279.

(8) الثبات عند الممات، لابن الجوزي: 1/ 108.

استراحَ من أمرِ الدُّنْيا وأَمِنَ عذابَ اللهِ»[1]، «ولَمَّا ثَقُلَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ دُعِيَ لَهُ طَبِيبٌ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ قَالَ: أَرَىٰ الرَّجُلَ قَدْ سُقِيَ السُّمَّ، وَلا آمَنُ عَلَيْهِ الْمَوْتَ؛ فَرَفَعَ عُمَرُ بَصَرَهُ، فَقَالَ: وَلَا يَأْمَنُ الْمَوْتُ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يُسْقَ السُّمَّ، قَالَ الطَّبِيبُ: هَلْ أَحْسَسْتَ بِذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَدْ عَرَفْتُ حِينَ وَقَعَ فِي بَطْنِي، قَالَ: فَتَعَالَجْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَذْهَبَ نَفْسُكَ؛ فَقَالَ: رَبِّي خَيْرُ مَذْهُوبٍ إِلَيْهِ، وَاللهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ شِفَائِي عِنْدَ شَحْمَةِ أُذُنِي؛ مَا رَفَعْتُ يَدِي إِلَىٰ أُذُنِي، فَتَنَاوَلْتُهُ. اللَّهُمَّ خِرْ لِعُمَرَ فِي لِقَائِكَ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلا أَيَّامًا حَتَّىٰ مَاتَ»[2]، وعَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، قَالَ: «مَا غَائِبٌ يَنْتَظِرُهُ الْمُؤْمِنُ خَيْرٌ مِنَ الْمَوْتِ»[3]، وقدْ أَكَّدَ القرآنُ هَذَا المعنىٰ بقولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾[4]، وقولِهِ تعالَىٰ: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[5]، وقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[6]، والأخبارُ في هذا البابِ مُسْتَفِيضةٌ مَوْفورةٌ.

* والعبدُ كُلُّ العبدِ هو الذي يَعْبُدُ اللهَ تعالَىٰ علىٰ الخُوْفِ والرَّجاءِ؛ والمُتَأَمِّلُ أحوالَ السَّلَفِ يَجِدْ عَجَبًا، فمَنْ يسمَعُ كَلامَ أَحَدِهِمْ فِي الخَوْفِ رَأَىٰ رَجُلًا كأنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُ، وإذا سَمِعَ كَلَامَ الرَّجُلِ نفسِهِ في الرجاءِ؛ رَأَىٰ رَجُلًا كَأَنَّ الجَنَّةَ قد حِيزَتْ لَهُ وضُمِنَتْ؛

---

(1) أهوال القبور، لابن رجب: 157.

(2) الثبات عند الممات، لابن الجوزي: 1/ 150.

(3) مصنف ابن أبي شيبة: 7/ 145.

(4) النساء: 77.

(5) الأعلىٰ: 17.

(6) الضحىٰ: 4.

فَعَلَىٰ العبدِ العاقِلِ أنْ يطولَ خَوْفُه فِي أَيَّامِ الدُّنْيا؛ خوفًا منْ تَقْصيرِهِ فِي حَقِّ رَبِّه تبارَكَ وتَعالىٰ، وكُلُّنا فِي الحقيقةِ مُقَصِّرٌ، فإذَا مَا حَضَرَ الأَجَلُ حَسُنَ بَهَ أنْ يَعْظُمَ رجاؤُه فِي اللهِ تعالىٰ، وأن يَحْسُنَ ظَنُّهُ به؛ طَمَعًا فِي عظيمِ عَفْوِهِ، وجَليلِ كَرَمِهِ، وَوَاسِعِ رَحْمَتِهِ، فَفِي الحديثِ: قَالَ اللهُ ﷻ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[1]، وهذِهِ طَرِيقَةُ العُقَلاءِ الأَكْياسِ مِنَ العُلَماءِ العارِفينَ، ويَبْدُو أَنَّ سَيِّدًا -رَحِمَهُ اللهُ- أَحَدُهُمْ، فَهُوَ يُخَوِّفُ المَوْتَ فِي مَواطِنَ، كَنَحْوِ قوله: «والموتُ أَشَدُّ مَا يُحاوِلُ المخلوقُ البَشَرِيُّ أنْ يَروغَ[2] مَنْهُ، أَوْ يُبْعِدَ شَبَحَهُ عَنْ خَاطِرِهِ؛ ولكِنْ أَنَّىٰ لَهُ ذلكَ، والمَوْتُ طَالِبٌ لا يَمَلُّ الطَّلَبَ، ولا يُبْطِئُ الخُطَا، ولَا يُخْلِفُ الميعادَ، وذِكْرُ سَكْرَةِ المَوْتِ كفيلٌ بِرَجْفَةٍ تَدُبُّ فِي الأَوْصالِ[3]»[4]، ثم هو لما حَضَرَهُ أوانُ الموتِ؛ مُطْمَئِنٌّ مُرَحِّبٌ بِهِ، يهونُ عليهِ أَمْرُهُ، كَمَا فِي هذِهِ الرِّسَالَةِ.

(1) رواه أحمد في مسنده، حَدِيثُ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ مِنَ الشَّامِيِّينَ: 35/ 398، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(2) يَروغَ رَوَغَانًا: إذا حاد عن الشيء، وابتعد عنه، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 8/ 430.

(3) الْأَوْصَالُ: الْمَفَاصِلُ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 340.

(4) في ظلال القرآن، لسيد قطب: 6/ 3363.

نَمَاءُ الأَشْيَاءِ يَبْعَثُ عَلَى التَّفَاؤُلِ والأَمَلِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**مَدُّ الحياةِ الزَّاخِرِ هُوَ ذَا يَعُجُّ[1] مِنْ حَوْلِي!.. كُلُّ شَيْءٍ إِلَىٰ نَمَاءٍ وتَدَفُّقٍ وازْدِهَارٍ.. الأُمَّهاتُ تَحْمِلُ وتَضَعُ.. النَّاسُ والحيوانُ سواءٌ.. الطيورُ والأَسْماكُ والحَشَراتُ تَدْفَعُ بالبيضِ المُتَفَتِّحِ عَنْ أَحياءٍ وحياةٍ.. الأرضُ تَنْفَجِرُ بِالنَّبْتِ المُتَفَتِّحِ عَنْ أزهارٍ وثمارٍ.. السماءُ تَتَدَفَّقُ بالمَطَرِ، والبِحارُ تَعُجُّ بالأمواجِ.. كلُّ شَيْءٍ يَنْمُو علَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ ويَزْدادُ!**».

* يُؤَكِّدُ سيِّدٌ في هذه الفِقْرَةِ فكرةَ التَّفاؤُلِ بالحياةِ؛ بالرَّغْمِ مِنَ الموتِ المُرْتَقَبِ أنْ يَطْرُقَ زِنْزانَتَهُ فِي كُلِّ حينٍ، وبالرَّغْمِ منَ السِّياطِ التِي هِيَ أَشْبَهُ مَا تكونُ بِشواظِ النارِ المُلْتَهِبَةِ التِي تَشْوِي ظَهْرَهُ الضعيفَ، وبَدَنَهُ النحيفَ الحينَ بعدَ الحينِ، وهُوَ الشيخُ ابنُ السِّتينِ؛ بالرَّغمِ مِنْ هذا كُلِّهِ تَجِدُهُ يُبَرْهِنُ علَىٰ صِدقِ فِكْرَتِه بالمَنْظورِ والمَحْسوسِ مِنَ الكائناتِ والمَوْجوداتِ؛ فكَما أنَّ اللهَ تعالىٰ كتبَ الحياةَ لهذِهِ الكائناتِ والنَّماءَ والبَقَاءَ؛ فكذلِكَ كَتَبَ النَّماءَ والبقاءَ لِفِكْرَةِ الخيرِ حيثُ كانَتْ، وقَتْلُ إنسانٍ فِي مُحيطِ الدَّعوةِ الهَادِرِ؛ كَقَلْعِ شجرَةٍ مِنْ بُستانٍ غَاصٍّ بالأشجارِ؛ فإنَّه يوشِكُ أَنْ يُزْرَعَ مكانَ الشَّجرةِ المَخْلوعَةِ مَا يَخْلُفُها، ويوشِكُ أنْ يَنْبُتَ مِنْ بينِ جيلِ الدُّعاةِ مَنْ يَخْلُفُ الشُّهداءَ، ورُبَّما مَنْ يَفُوقُهُمْ عطَاءً ونَفْعًا، فالذِي أَوْجَدَ الأَوَّلَ حينَ احْتاجَ إِلَيْهِ النَّاسُ؛ يُوجِدُ الآخَرَ خَلَفًا لَهُ، فَالدِّيْنُ دِينُهُ، وَهُوَ

---

(1) يُعُجُّ: يمتلئ، وعَجَّجْتُ البيت دخانا حتّىٰ تَعجَّجَ، أي: امتلأ بالدخان، انظر: معجم العين، للخليل: 1/ 67.

أَحْرَصُ عليهِ مِنَ الدَّعاةِ أَنْفُسِهِمْ، ومَتَىٰ كانَ العَامِلُ فِي البُستانِ أَحْرَصَ علَىٰ الشَّجَرِ والثَّمَرِ مِنْ مَالِكِ البُسْتانِ؟!، وهَذِه سُنَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[1].

الخيرُ ماضٍ بالرَّغْمِ مِنَ القَتْلِ والتَّنْكيلِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «بَيْنَ الحينِ والحينِ يَنْدَفِعُ الموتُ فَيَنْهَشُ[2] نَهْشَةً ويَمْضِي، أَوْ يَقْبَعُ حتَّىٰ يَلْتَقِطَ بعضَ الفُتاتِ الساقِطِ مِنْ مائِدَةِ الحياةِ لِيَقْتَاتَ[3]!.. والحياةُ ماضِيَةٌ فِي طَرِيقِها، حَيَّةٌ مُتَدَفِّقَةٌ فَوَّارَةٌ، لَا تَكَادُ تُحِسُّ بِالمَوْتِ أَوْ تَرَاهُ!».

* ما يَزالُ سَيِّدٌ يُؤَكِّدُ فِكْرَةَ التَّفاؤُلِ بالحياةِ؛ ويُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ الموتِ، وهُوَ يَقْصِدُ بالمَوْتِ هُنَا الشَّرَّ المُتَمَثِّلَ فِي القَتْلِ الذِي يُرِيدُهُ الطُّغاةُ للدُّعاةِ والمُصْلِحينَ. فَهُوَ يُصَوِّرُ الشَّرَّ ضعيفًا فقيرًا مُفْلِسًا، لا يملِكُ شَيْئًا، إلَّا أنْ يَقْتاتَ مِنْ فُتاتِ المَوائِدِ الحينَ بعدَ الحينِ، ولا يستطيعُ لضعفِهِ أنْ يواجِهَ أصحابَ الموائِدِ العامِرَةِ، وأن يَمُدَّ يدَهُ إلىٰ مائِدَتِهِمْ لِسَرِقَةِ شَيْءٍ مِنْها فِي حَضْرَتِهِمْ، وإنَّما يَلْتَمِسُ غَيْبَتَهُمْ، فَيَمُدُّ يَدَهُ؛ فِعْلَ الفقراءِ الضُّعَفاءِ المفلسينَ؛ ولا يعبَأُ أصحابُ مَوائِدِ الخيرِ بهذِهِ الأيدِي العَاجِزَةِ؛ وإنَّما هُمْ أَبَدًا مُسْتَمِرُّونَ فِي صِناعَةِ مَوائِدِ الخيرِ، كَما أَنَّ الأَيْدِيَ الضَّعيفَةَ العَاجِزَةَ تَتَلَقَّفُ أَبَدًا فُتاتَ المَوَائِدِ خُفْيَةً واسْتِرَاقًا.. وتَبْقَىٰ الحياةُ زَاخِرَةً حَيَّةً مُتَدَفِّقَةً بالرَّغْمِ مِنْ نَهَشاتِ الموتِ المَرَّةَ بعدَ المَرَّةِ، فَكُلُّ شَيْءٍ فِي الكونِ

---

(1) الأحزاب: 62.

(2) النَّهْشُ: القَبْضُ علىٰ اللَّحْمِ ونَتْفُه، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 6/ 54.

(3) يَقْتَاتَ: يأكل ما يسد رمقه، والقوت: ما يمسك الرمق من الرزق، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 74.

يَنْمُو، والدَّعْوةُ إِلَىٰ الخيرِ كَذَلِكَ تَنْمُو وتَكْبُرُ، ولَيْسَ مِنْ شَأْنِ الشَّرِّ أَنْ يُوْقِفَ الخَيْرَ أَوْ يَعُوقَهُ.

الأَلَمُ لا يُوقِفُ المَسيرَ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «قَدْ تَصْرُخُ مَرَّةً مِنَ الأَلَمِ، حينَ يَنْهَشُ المَوْتُ مِنْ جِسْمِهَا نَهْشَةً، ولكنَّ الجُرْحَ سُرْعَانَ مَا يَنْدَمِلُ، وصَرْخَةُ الأَلَمِ سُرْعانَ مَا تَسْتَحِيلُ مَرَاحًا.. ويَنْدَفِعُ النَّاسُ والحيوانُ.. الطيرُ والأسماكُ.. الدودُ والحشراتُ.. العُشْبُ والأشجارُ، تَغْمُرُ وَجْهَ الأَرْضِ بالحياةِ والأحياءِ!.. والمَوْتُ قَابِعٌ هُنالِكَ يَنْهَشُ نَهْشَةً ويَمْضِي.. أَوْ يَتَسَقَّطُ الفُتاتَ السَّاقِطَ مِنْ مَائِدَةِ الحياةِ لِيَقْتاتَ!!».

* الجِراحَاتُ التِي تُصيبُ الدُّعاةَ لا تُوْقِفُ مَسيرَهُمْ نَحْوَ أَهْدافِهِمُ الكُبْرَىٰ. ويَبْقَىٰ التفاؤُلُ أَبَدًا يَمْلَأُ قلوبَ الدُّعاةِ الصادقينَ؛ حتَّىٰ لوْ كَانَ ثَمَّةَ أَلَمٌ جَرَّاءَ فَقْدِ أَرْبابِ الدَّعواتِ وسَادَتِها، ولكنْ سُرْعانَ ما تَسْتَحيلُ صَرْخَةُ الأَلَمِ ابْتِسامًا وفَرحًا، حينَ يعلمُ الدُّعاةُ أَنَّ الشهداءَ الذين قَضَوْا، ومَضَوْا رَصيدٌ مُدَّخَرٌ للدَّعْوَةِ، وأَنَّهُمْ غِذَاؤُها ورواؤُها وَوَقُودُها الذِي كُلَّما ازْدادَ وَفْرًا؛ كانَ الانْطلاقُ أَقْوَىٰ، وكانَ النَّماءُ أَسْرَعَ، وكانتِ الثمرَةُ أَبْهَجَ وأَنْضَرَ وأَنْضَجَ. وحين يعلمون أَنَّهم مَا مَاتُوا، وإِنَّما صَنَعُوا لنَا الحياةَ، وانْتَقَلُوا هُمْ إِلىٰ حياةٍ أُخْرَىٰ، أَشْرَفَ وأَرْفَعَ وأَكْمَلَ، وتُوشِكُ الليالِي والأيامُ أَنْ تَنْقُلَهُمْ سَرِيعًا إِلَىٰ حَيْثُ هُمْ.

ضَعْفُ الشَّرِّ عَنْ مُغَالَبَةِ الخَيْرِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «الشَّمْسُ تَطْلُعُ، والشَّمْسُ تَغْرُبُ، والأَرْضُ مِنْ حَوْلِهَا تَدُورُ، والحياةُ تَنْبَثِقُ مِنْ هُنَا ومِنْ هُناكَ.. كُلُّ شَيْءٍ إِلَىٰ نَمَاءٍ.. نَمَاءٍ فِي العَدِّ والنَّوْعِ.. نَمَاءٍ فِي الكَمِّ والكَيْفِ.. لَوْ كانَ المَوْتُ يَصْنَعُ شَيْئًا لَوَقَّفَ مَدَّ الحياةِ!.. ولكِنَّه قُوَّةٌ ضَئِيلَةٌ حَسِيرَةٌ، بِجانِبِ قُوَىٰ الحياةِ الزَّاخِرَةِ الظَّافِرَةِ الغَامِرَةِ!».

* لمْ يصنَعِ الموتُ شيئًا سِوَىٰ أنَّهُ يَنْقُلُ الدعاةَ من مَرْحَلَةٍ إلىٰ أُخْرَىٰ، ومِنْ دارٍ إلىٰ دارٍ، ثُمَّ يَخْتَفِي؛ لِتَبْقَىٰ الحياةُ عامِرَةً بالحياةِ والأحياءِ، فَلَمْ تَزَلِ الشَّمْسُ فِي طَلْعَتِها وبَهَائِها وإِشْراقِها؛ مُؤْذِنَةً بِفَجْرٍ قادِمٍ مِنْ بعيدٍ، وفِي غَيْبُوبَتِها واخْتِفَائِهَا؛ مُؤْذِنَةً بِطَيِّ صَفْحةِ يَوْمٍ؛ اسْتِعْدادًا ليومٍ مُشْرِقٍ جديدٍ؛ ويَخْلُفُها القَمَرُ يزورُ الدُّنْيا، مُطِلٌّ مِنْ عَلٍ، مُبَشِّرٌ هو الآخَرُ بِضياءٍ وبِشْرٍ وسُرُورٍ وصُبْحٍ جَديدٍ.. ولمْ تَزَلِ الدُّنْيا تَدُورُ دَوْرَتَها، لَمْ تَتَوَقَّفْ ولَوْ لِلَحْظَةٍ، لِمَوْتِ أَحَدٍ ولَا لِحَياتِهِ؛ فَكُلُّ شيءٍ مُتَحَرِّكٌ، وكُلُّ شَيْءٍ حَيٌّ، وكُلُّ شَيْءٍ فِي زِيادَةٍ ونَمَاءٍ وتَكَثُّرٍ.

* ويَرْمِزُ سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- بالمَوْتِ هُنَا لِلشَّرِّ الذِي يُحاوِلُ أَنْ يَعْتَدِيَ علَىٰ الخيرِ وأَهْلِهِ ودُعاتِهِ الحينَ بعدَ الحينِ، كَمَا يَرْمِزُ للنَّماءِ والبَقَاءِ بالخَيْرِ المُتَدَفِّقِ المُتزايِدِ، فالشَّرُّ ضَعِيفٌ، ضَعِيفٌ، لَا يكادُ يُرَىٰ لَهُ أَثَرٌ، سِوَىٰ المَكْرِ والكَيْدِ، والخَيْرُ قَوِيٌّ، قَوِيٌّ، يَثْبُتُ ويُقَاوِمُ، وَيَمْتَدُّ ويَكْثُرُ ويَغْلِبُ، وتكونُ لَهُ العَاقِبَةُ؛ مُؤَكِّدًا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- علَىٰ فِكْرَةِ التَّفاؤُلِ التِي يَنْبَغِي أَنْ تَعْمُرَ حياةَ الدُّعاةِ وأَفْكارَهُمْ، ويُبَشِّرُوا بِهَا النَّاسَ.

مِنَ اللهِ تَعالَى سِرُّ البَقَاءِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «مِنْ قُوَّةِ اللهِ الحَيِّ.. تَنْبَثِقُ الحياةُ وتَنْدَاحُ[1]!!».

* فِي هذا السَّطْرِ القصيرِ ينكشفُ السِّرُّ فِي بقاءِ الخيرِ وامْتِدادِهِ بالرَّغْمِ مِنْ تَكَالُبِ الشَّرِّ واسْتِعارِهِ؛ إِنَّهُ اللهُ تعالَىٰ الذِي يحفظُ الخيرَ ويرعاهُ.. إِنَّهُ اللهُ تعالَىٰ الذِي يَكْلَأُ الخيرَ ويَحُوطُهُ بالعِنايَةِ الدائِمَةِ، إِنَّهُ اللهُ تعالَىٰ الذِي يَدْمَغُ الشَّرَّ ويَرُدُّه ويَدْحَرُهُ.. إِنَّهُ اللهُ تعالَىٰ الذِي يُبْطِلُ البَاطِلَ ويُزْهِقُهُ؛ فَمِمَّ الخوفُ إِذًا؟ ومِمَّ الفَزَعُ؟ ومِمَّ الجَزَعُ؟ ومِمَّ التَشاؤُمُ ما دَامَ اللهُ تعالَىٰ هُوَ الذِي يَرْعَىٰ الحَقَّ، وأَهْلَ الحَقِ أحياءً وأمواتًا؟ ومَا دَامَ اللهُ تعالَىٰ هو الذِي تَكَفَّلَ بِبَقَاءِ الخيرِ ونَمَائِهِ واتِّساعِهِ؟ وفِيْمَ الوَجَلُ إذا كانَ الدُّعاةُ مَعَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ القَوِيُّ العزيزُ في مِشْوارِهِمُ الطويلِ، الذِي يَرْجِعُ إليهِ أَمْرُ الحياةِ والموتِ، والذِي بِيَدِهِ قَانُونُ البَقَاءِ والفَنَاءِ؟ وإِذَا كانَ اللهُ تعالَىٰ هُو الذِي يَغْذُو نَبْتَةَ الخَيْرِ ويَرْعَاهَا، ويَتَعَقَّبُ نَبْتَةَ الشَّرِّ ويَقْتَلِعُهَا.

وإِذَا العِنَايَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا *** نَمْ فَالمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ[2]

---

(1) تنداح: تتسع وتمتد وتنفسح، والنَّدْحُ: السَّعَةُ والفُسْحَةُ، تَقول: إِنَّك لَفي نَدحَةٍ من الأمْرِ ومَنْدوحَةٍ مِنْهُ، أي في سعة منه، وأَرْضٌ مَنْدوحَةٌ: بعيدَة وَاسِعَة، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 4/ 245. وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: (إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ)، أي في الكلام الذي يعرض به، بذكر الشيء، وإرادة غيره، سعة عن الكذب الصريح، انظر: مصنف ابن أبي شيبة: 5/ 282.

(2) هذا البيت للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن الأشرف، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: 3/ 368، وقد روي بـ(السعادة) بدل (العناية).

* وَيَبْدُو سَيِّدٌ هُنَا مُتَعلِّقًا بِرَبِّهِ، واثقًا بِمَوْعودِهِ، مُسْتبشِرًا بِحِفْظِهِ ورِعَايتِهِ، فِي أَشَقِّ مراحِلِ حياتِهِ وأَقْساهَا، وأَكْثَرِها حَرَجًا ودِقَّةً؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يؤمِنُ أنَّ مَعَهُ اللهَ القَوِيَّ؛ وهَكَذَا يَنْبَغِي أنْ يكونَ أَصحابُ الأفكارِ مِنَ الدُّعاةِ أَبَدًا.

* رُوْحُ التفاؤُلِ والرِّضَا والاسْتِبْشارِ التِي عَاشَهَا سَيِّدٌ فِي سجنِهِ ومَحْبَسِهِ، وهو ينتظرُ الموتَ، يجِدُهُ فِي مثلِ هذه الظروفِ الكِبَارُ مِنَ الدُّعاةِ أصحابِ الأفكارِ الصَّادقَةِ، الذينَ تَعَلَّقَتْ قُلُوبُهُمْ وأرواحُهُمْ باللهِ تعالَىٰ، فَصَغُرَتِ الدُّنْيا فِي حِسابَاتِهِمْ واضْمَحَلَّتْ، وتَلاشَتْ؛ وهوَ مشهدٌ مُتكَرِّرٌ للدُّعاةِ فِي كُلِّ زمانٍ، ومِثالُه فِي القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِيِّ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-، فَلَقَدْ أخبرَ عنْهُ تِلْميذُهُ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، فَقَالَ: «سمعتُ شيخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- يقولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيا جَنَّةً مَنْ لمْ يَدْخلْهَا؛ لا يَدْخُلُ جَنَّةَ الآخِرَةِ.

وقَالَ لِي مَرَّةً: مَا يَصْنَعُ أَعْدائِي بِي؟ أَنَا جَنَّتِي وبُسْتانِي فِي صَدْرِي، إِنْ رُحْتُ فَهِيَ مَعِي، لا تُفَارِقُنِي، إِنَّ حَبْسِي خُلْوَةٌ، وقَتْلِي شَهادَةٌ، وإِخْراجِي مِنْ بَلَدِي سِيَاحَةٌ.

وكانَ يقولُ فِي مَحْبَسِه فِي القَلْعَةِ: لَوْ بَذَلْتُ مِلْءَ هذهِ القَلْعَةِ ذَهَبًا مَا عَدَل عِنْدِي شُكْرَ هذهِ النِّعْمَةِ، أَوْ قَالَ: مَا جَزَيْتُهُمْ علَىٰ مَا تَسَبَّبُوا لِي فيهِ مِنَ الخَيْرِ، ونَحْوَ هَذَا.

وكانَ يقولُ فِي سجُودِه، وهُوَ مَحْبوسٌ: اللهُمَّ أَعِنِّي علَىٰ ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِكَ مَا شَاءَ اللهُ، وقَالَ لِي مَرَّةً: المَحْبُوسُ مَنْ حُبِسَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ تَعالَىٰ، والمَأْسورُ مَنْ أَسَرَهُ هواهُ.

ولَمَّا دَخَلَ إِلَىٰ سِجْنِ القَلْعَةِ وصارَ داخِلَ سُورِهَا، نَظَرَ إِلَيْهِ، وقَالَ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1].

وَعَلِمَ اللهُ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَطْيَبَ عَيْشًا مِنْهُ قَطُّ، مَعَ مَا كانَ فيهِ مِنْ ضيقِ العيشِ وخِلَافِ الرَّفَاهِيَةِ والنَّعِيمِ، بَلْ ضِدّهَا، ومَعَ مَا كانَ فيهِ مِنَ الحَبْسِ والتَّهْدِيدِ والإِرْهاقِ، وهُوَ مَعَ ذلكَ مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وأَشْرَحِهِمْ صَدْرًا، وأَقْواهُمْ قَلْبًا، وأَسَرِّهِمْ نَفْسًا، تَلُوْحُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ علَىٰ وَجْهِهِ. وَكُنَّا إِذَا اشْتَدَّ بِنَا الخوفُ، وسَاءَتْ مِنَّا الظُّنونُ، وضَاقَتْ بِنَا الأَرْضُ أَتَيْناهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ نَرَاهُ، ونَسْمَعَ كَلامَهُ؛ فَيَذْهَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ، ويَنْقَلِبُ انْشِراحًا وقُوَّةً ويَقِينًا وطُمَأْنِينَةً؛ فَسُبْحانَ مَنْ أَشْهَدَ عِبادَهُ جَنَّتَهُ قَبْلَ لِقَائِهِ، وَفَتَحَ لهمْ أَبْوابَهَا فِي دَارِ العَمَلِ، فَأَتَاهُمْ مِنْ رُوحِها ونَسيمِها وطِيْبِها مَا اسْتَفْرَغ قُواهُمْ لِطَلَبِها والمُسَابَقَةِ إِلَيْها»[2].

* ويقضِي ابنُ تيميةَ فِي محبسِهِ، كمَا يقضِي سيِّدُ قطبٍ -رحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ- ويُستَشْهَدُ فِي محبسِهِ؛ فَمصائرُ الدُّعاةِ متشابهةٌ، وإِنْ بَعُدَ الزَّمانُ، وتطاولتِ السِّنونَ!!!

(1) الحديد: 13.

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية: 1/ 48.

القاعدةُ الثَّانِيَةُ

بَرَكَةُ الأَعْمَارِ فِي نَشْرِ الأَفْكَارِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**عِنْدَمَا نعيشُ لِذَواتِنَا فَحَسْبُ؛ تَبْدُو لَنَا الحياةُ قَصيرَةً ضَئيلَةً، تَبْدَأُ مِنْ حيثُ بَدَأْنَا نَعِيْ[1]، وتَنْتَهِي بانْتِهاءِ عُمُرِنَا المَحْدُودِ!**».

* يَعيبُ سَيِّدٌ فِي هذِهِ الفِقْرَةِ علَىٰ مَنْ يعيشُ لِنَفْسِهِ فَحَسْبُ، لَيْسَ لَهُ شأنٌ إِلَّا حياتُهُ هُوْ: وَظِيفَتُهُ، وتَرْقِيَتُهُ، وبَيْتُهُ، وزَوْجَتُهُ، وأَبْنَاؤُهُ، ... إلخ، ثُمَّ لِيَكُنْ مِنْ حَوْلِهِ مَا كَانَ لَا يَعْنيهِ. ومنْ يَحْيَا مِثْلَ هذِهِ الحياةَ؛ فَحياتُهُ قَصيرَةٌ لَا بَرَكَةَ فِيهَا ولا نماءَ، مَحْدُودَةٌ بِحُدودِ إِدْراكِهِ وَوَعْيِهِ، فَمَا إِنْ يُفارِقِ الحياةَ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ حياتُهِ بِالكُلِّيَّةِ، فَلَيْسَ لِحياتِهِ امْتِدَادٌ، وما إِنْ يَمُتْ حَتَّىٰ يُمْحَىٰ اسْمُهُ مِنْ دُنْيا النَّاسِ، ويُنْسَىٰ ذِكْرُهُ، بَلْ سَيَنْساهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ بَعْدَ ثلاثٍ...

* وإِنَّ مِنَ الخُذْلانِ أَنْ يَدْأَبَ المَرْءُ -أَيًّا كانَ مَوْقِعُهُ-؛ لِيَرَىٰ نفسَهُ الأَعَزَّ الأَفْضَلَ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ مِنْ مَواقِعِهِ، لَا أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ عَمَلِهِ فِي النَّاسِ خَيْرًا وسَعَادَةً وبِشْرًا، فإِنْ أُغْفِلَ، أَوْ خُمِلَ ذِكْرُهُ يومًا حَزِنَ واغْتَمَّ، وحَسَدَ مَنْ رَفَعَ اللهُ ذِكْرَهُ مِنْ إِخْوانِهِ، وَرَآهُ خَصْمًا؛ انْتَزَعَ حَقَّهُ فِي الشَّرَفِ والرِّفْعَةِ وعُلُوِّ المَنْزِلَةِ، فإذا كثُر أمثالُ هَذَا فِي الناسِ، كَثُرَ الخُذلانُ حيثُ يَكْثُرونَ، فإِنْ غَلَبُوا كَثْرةً؛ تَمَّ الخُذْلانُ، وكانَ البَوارُ، ولَوْ سَلَكُوا كُلَّ مَسْلَكٍ، وفَتَحُوا كُلَّ بابٍ، ورَفَعُوا أَسْمَىٰ شِعَارٍ.

---

(1) وَعَىٰ الشَّيْءَ والحَدِيثَ: إذا حَفِظَهُ وفَهِمَهُ وقَبِلَهُ، والمقصود منذ بدأنا نعي الأمور وندركها، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 15/ 396.

* وإنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يَعْمَلُ لَا لِيَرَىٰ نَفْسَهُ هُوَ؛ بَلْ لِيَرَىٰ عملَهُ رُوحًا حَيَّةً تَدُبُّ فِي دُنْيا الناسِ؛ ولا يَهُمُّهُ ساعَتَها ماذَا يَقُولُ النَّاسُ؟! ولِمَنْ تُنْسَبُ الأعمالُ؟! فَبَهْجَةُ نَفْسِهِ، وسُمُوُّ رُوحِهِ، وصَفْوُ سَعادَتِهِ يومَ يَنْعُمُ الناسُ بِطِيبِ عَمَلِهِ، وشَذَا إِحْسانِهِ، تَمامًا كالزَّهْرَةِ المَخْبوءَةِ فِي البُسْتانِ الغَاصِّ[1]، يَنْتَشِي[2] النَّاسُ شَذا عَبيرِها[3]، وطِيْبَ أَرِيجِها[4]، وهِيَ غائِبَةٌ عَنِ الأَنْظارِ؛ فَيَفْطَنُ لَهَا البُلَغَاءُ، فَيُنْشِدُونَها شِعرًا رَقيقًا، ولَحْنًا نَدِيًّا، يُحاكِي شَذَا عَبيرِها، وطِيبَ أَرِيجِها.

فإذا وُجِدَ واحِدٌ مِنْ هذا المَعْدنِ النَّفيسِ؛ كَثُرَ الخيرُ، وعَمَّ البِرُّ، وسَعِد الناسُ، ويومَها تَرَقَّبْ غُيوثَ الرَّحماتِ مِنَ السَّماءِ، وفُيُوضَ البَرَكَاتِ مِنَ الأَرْضِ!!!

(1) الغَاصُّ: المملوء، غص الموضع بمن فيه: تضايق، ومنه: الغُصَّةُ التي تملأ الحلق وتقف فيه، انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للحَمِيدي: 1/ 240.

(2) النشا، نسيم الريح الطيبة، وقد نشي منه ريحا طيبة، أي شم، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 15/ 325.

(3) العبير: نوع من الطيب ذو لون يجمع من أخلاط، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 3/ 171.

(4) الأَرِيجُ: والأَرِيجَةُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 5/ 402.

امْتِدادُ الحياةِ مَا امْتَدَّتِ الأَفْكارُ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**أَمَّا عِنْدَمَا نَعيشُ لِغَيْرِنَا، أَيْ عِنْدَمَا نَعِيشُ لِفِكْرَةٍ؛ فإنَّ الحياةَ تَبْدُو طويلةً عَمِيقَةً، تَبْدَأُ مِنْ حيثُ بَدَأَتِ الإِنْسانِيَةُ، وتَمْتَدُّ بَعْدَ مُفارقَتِنَا لِوَجْهِ هذهِ الأَرْضِ!**».

* إنَّ حِسابَ العُمُرِ عندَ الدُّعَاةِ مِنْ أَصْحابِ الأَفْكارِ النَّاضِجَةِ، ليسَ مَحْدودًا بِأَعْمارِهِمْ، وإِنَّما هُوَ بِعُمُرِ أَفْكارِهِمُ التِي إِلَيْها يَدْعُونَ. ولَمَّا كانَتْ دعوةُ الإسلامِ التِي إِلَيْهَا يَنْتَمُونَ قَدِيمَةً قِدَمَ الإِنْسانِيَّةِ، مُمْتَدَّةً مَا امْتَدَّتِ الحياةُ؛ فَعُمُرُ مَنْ يَحْمِلُ فِكْرَةَ الإِسْلَامِ إِذَنْ بِعُمُرِ دَعْوةِ الإِسْلامِ ذاتِها؛ إِذْ هُوَ حَلْقَةٌ فِي سِلْسِلَةِ الإِسْلامِ المُمْتَدَّةِ الطَّوِيلَةِ، فَهُوَ وَمَنْ فَوْقَهُ مِمَّنْ سَبَقَ، ومَنْ دُونَهُ مِمَّنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ يُشَكِّلُونَ حَقِيقَةَ الإِسْلامِ وجَوْهَرَهُ وتَرْجَمَتَهُ العَمَلِيَّةَ، ويُكْمِلُونَ حَلْقَتَهُ المُتَّصِلَةَ الرَّصِينَةَ.

* أَمَّا مَعْنَىٰ الفِكْرِ والفِكْرَةِ التِي جَعَلَها سَيِّدٌ مِحْوَرَ رِسَالَتِهِ فَهِيَ فِي اللُّغَةِ: مِنَ الفِكْرِ: وهُوَ «إِعْمَالُ الخَاطِرِ فِي الشَّيْءِ، والتفكر: التأمل»[1]، والفِكْرُ: «إِعْمَال الْعقلِ فِي الْمَعْلُوم للوصولِ إِلَىٰ معرفَة مَجْهُولٍ. الفِكْرَةُ: الاسْمُ مِنَ التَّفَكُّرِ»[2]. الفِكْرَةُ: «تَرَدُّدُ القَلْبِ فِي الشَّيْءِ»[3]. والفِكْرَةُ: «الصُّورَةُ الذهْنِيَّةُ لِأَمْرٍ مَا»[4].

---

(1) لسان العرب، لابن منظور: 5/ 65.

(2) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحميري: 1/ 5239.

(3) مجمل اللغة، لابن فارس: 1/ 407.

(4) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 698.

* والمُرادُ بالفِكْرِ هُنَا: «الرُّؤْيَةُ والصُّوْرَةُ الذِّهْنِيَّةُ لِتَصَوُّرِ الإسلامِ فِي عَقْلِ الفَرْدِ وتَفْكيرِهِ، سواءٌ كانَ مِنَ النَّاحِيَةِ الاعْتِقادِيَّةِ أَوِ العَمَلِيَّةِ»[1]، فليسَ المَقْصودُ بالفِكْرِ العَمَلَ الذهْنِيَّ فَقَطْ، بَلِ المُرادُ هُوَ جُمْلَةُ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَخْزونِ الذَّاكِرَةِ الإنْسانِيَّةِ مِنَ القِيَمِ والمَبادِئِ الأَخْلاقِيَّةِ التِي يَمْتَلِكُها الإنسانُ فِي المُجْتَمَعِ الذِي يعيشُ فِيهِ، ويَنْشَأُ فيهِ»[2]. فَالمُفَكِّرُ الإسْلامِيُّ، وصاحِبُ الفِكْرَةِ: هُوَ الذِي يَتَّخِذُ مِنَ الإسْلامِ: عَقَائِدِهِ، وتَشْريعاتِهِ، وأَحْكامِهِ، وقِيَمِهِ ومَبَادِئِهِ وأَدَبِيَّاتِهِ محْوَرًا لتَفْكيرِهِ، يُؤَصِّلُ عَلَيْهَا وَسَائِلَهُ مَنَاهِجَهُ وأَهْدافَهُ وغَايَاتِهِ، وَيَدْعُو إِلَىٰ إِحْيائِهَا وتَبَنِّيها، ويَحْمِلُ النَّاس عليها بالدَّليلِ والحُجَّةِ والبُرْهانِ.

مُضاعَفَةُ الأعمارِ فِي اسْتِشْعارِ مَعْنَى الحياةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّنَا نَرْبَحُ أضعافَ عُمُرِنَا الفَرْدِيِّ فِي هذهِ الحَالَةِ.. نَرْبَحُهَا حَقِيقَةً لَا وَهْمًا؛ فَتَصَوُّرُ الحياةِ علَىٰ هَذَا النَّحْوِ يُضاعِفُ شُعُورَنا بِأَيَّامِنَا وسَاعَاتِنَا ولَحَظَاتِنَا. فَلَيْسَتِ الحياةُ بِعَدَدِ السِّنينَ، ولَكِنَّها بِعَدَدِ المَشَاعِرِ، ومَا يُسَمِّيهِ «الوَاقِعِيُّونَ» فِي هَذِهِ الحَالَةِ «وَهْمًا!» هُوَ فِي الواقِعِ «حَقِيقَةٌ»، أَصَحُّ مِنْ كُلِّ حَقائِقِهِمْ!.. لِأَنَّ الحياةَ لَيْسَتْ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ شُعُورِ الإنسانِ بالحَياةِ. جَرِّدْ أَيَّ إنسانٍ مِنَ الشُّعُورِ بِحَياتِهِ؛ تُجَرِّدْهُ مِنَ الحياةِ ذَاتِهَا فِي مَعْناهَا الحَقِيقِيِّ! ومَتَىٰ أَحَسَّ الإنسانُ شُعُورًا مُضاعَفًا بِحَياتِهِ؛ فَقَدْ عاشَ حياةً مُضاعَفَةً فِعْلًا. يَبْدُو لِي أَنَّ المَسْأَلَةَ مِنَ البَدَاهَةِ بِحَيْثُ لا تَحْتَاجُ إِلَىٰ جِدَالٍ!».

---

(1) انظر: الانحراف الفكري في ضوء الكتاب والسنة، لـ د طه عابدين طه حمد: 12.

(2) انظر: تعزيز الفكر الأمني، لفايز شلدان: 1/ 44.

* إنَّ النزولَ بالأفكارِ فِي أسواقِ الفِكْرِ والدَّعوةِ، والاتِّجارَ بها، هيَ التِّجارَةُ الرَّابِحَةُ المُضاعفةُ، وإنَّما تكونُ مُضاعفةُ الأرباحِ بقدرِ رَواجِها، واعتناقِ الناسِ لَهَا، فَإذا عَلِمَ الدُّعاةُ باعتناقِ الناسِ أفكارَهُمْ، ورواجِها فِي واقِعِهِمْ؛ أَيْقَنُوا بربحِ الصَّفْقَةِ. وهذا الشعورُ ليسَ أوهامًا، ولا خيالاتٍ وَوَساوِسَ، إنَّما هو حقيقةٌ أَصَحُّ مِنْ كُلِّ حقائِقِ الأَرْضِيِّيْنَ.. فَحياةُ الإنسانِ هِي -فِي الحَقيقةِ- شُعُورٌ بالحياةِ، وتَذَوُّقٌ لِمَعْناها، وَوجْدانٌ لِمَقْصِدِها وغَايَتِهَا؛ لا مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ النَّاسُ علَىٰ وُجودِ الحياةِ مِنْ: طعامٍ وشرابٍ، ونَفَسٍ ونَبْضٍ، فَكَثيرٌ مِنَ الناسِ يأكُلُ ويشربُ ويتنفَّسُ، وهوَ مِنْ جُمْلَةِ الأَمْواتِ، وذلك حينما يتجرد من شعوره بمقصد الحياة، وغاية الحياة، وما خلق له الحياة، وقد ذكر القرآن هذا الصنف من الناس، فقال فيهم: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [1]، وَصَدَقَ فيهمْ قولُ الشَّاعِرِ:

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بِمَيْتٍ *** إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

إنَّما المَيْتُ مَنْ يعيشُ ذليلًا *** سيِّئًا بالُهُ قليلَ الرّجاءِ [2]

فهذِهِ الفِكْرَةُ بَدِيْهِيَّةٌ للأحياءِ الذينَ يُدْرِكُونَ مَعْنَىٰ الحياةِ، وحقيقَةَ الحياةِ، أمَّا المادِّيُّونَ الأَرْضِيُّونَ، فهمُ أمواتُ المَشَاعِرِ والأحاسيسِ؛ وهُمْ عَنْ هذِهِ المَعانِي بِمَعْزِلٍ، وهِيَ بالنِّسْبَةِ لهُمْ وَهْمٌ وخُرافَةٌ.

---

(1) النحل: 21.

(2) البيتان لعدِي بن رعلاء الغَسّاني، انظر: الأصمعيات، للأصمعي: 1/ 152.

مُضاعَفَةُ الأعْمارِ فِي العَيْشِ للآخَرِينِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**إِنَّنَا نَعيشُ لِأَنْفُسِنَا حياةً مُضاعَفَةً، حِينَمَا نَعيشُ للآخَرِينَ، وبِقَدْرِ مَا يُضاعَفُ إِحْساسُنَا بالآخَرِينَ[1]، نَضَاعِفُ إِحْساسَنَا بِحَياتِنَا، ونُضَاعِفُ هَذِهِ الحياةَ ذَاتَها فِي النِّهايَةِ!**».

* يُؤَكِّدُ سيِّدٌ مَا تَقَدَّمَ مِنْ تَضَاعُفِ حياةِ حَمَلَةِ الدَّعْوَةِ والدُّعاةِ إليها، وتَضَاعُفِ هذهِ الحياةِ بِمِقْدارِ مَنْ يَعْتَنِقُ أفكارَهَم ويقتنعُ بِهَا، فَكُلَّما كانَ عَدَدُ المُعْتَنِقينَ للفِكْرَةِ أكثرَ؛ كانَتْ مُضاعَفَةُ الحياةِ وامْتِدادُهَا ورَصيدُها وبَرَكَتُها أَكْثَرَ، فإذا شَعَرَ الدَّاعِيَةُ باعْتِنَاقِ غَيْرِهِ فِكْرَتَهُ، وانْتِسابِهِ إِلَيْهَا؛ شَعَرَ بِتَضَاعُفِ الحياةِ ونَمَائِها وامْتِدادِهَا؛ وهَذا لا يكونُ إِلَّا إذا عاشَ الإنسانُ لِغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ؛ يَدْعوهُمْ، ويَغْذُوهُمْ مِنْ أفكاره، ويُشْرِبُهُمْ مِنْ مَشْرَبِهِ.

(1) يقصد سيد بـ (الآخرين): غير المنتسبين للعمل الإسلامي، والذين لا يحملون أفكار الدعاة، من عموم الناس وآحادهم.

القاعدةُ الثَّالِثَةُ

الخَيْرُ أَقْوَى مِنَ الشَّرِّ وأَرْسَخُ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «بِذْرَةُ الشَّرِّ تِهيجُ، ولكنَّ بِذْرَةَ الخيرِ تُثْمِرُ، إِنَّ الأُوْلَىٰ تَرْتَفِعُ فِي الفَضاءِ سَرِيعًا، ولكنَّ جُذُورَهَا فِي التُّرْبَةِ قَرِيبَةٌ، حتَّىٰ لَتَحْجُبُ عَنْ شَجَرَةِ الخيرِ النُّورَ والهواءَ، ولكنَّ شَجَرَةَ الخيرِ تَظَلُّ فِي نُمُوِّهَا البَطِيءِ، لأَنَّ عُمْقَ جُذُورِهَا فِي التُّرْبَةِ يُعَوِّضُها عَنِ الدِّفْءِ والهواءِ.

مَعَ أَنَّنَا حينَ نَتَجاوَزُ المَظْهَرَ المُزَوَّرَ البَرَّاقَ لِشَجَرَةِ الشَّرِّ، ونَفْحَصُ عَنْ قُوَّتِهَا الحَقِيقِيَّةِ وصَلَابَتِهَا؛ تَبْدُو لَنَا وَاهِنَةً هَشَّةً نَافِشَةً فِي غيرِ صَلابَةٍ حَقِيقِيَّةٍ!.. علَىٰ حِينِ تَصْبِرُ شَجَرَةُ الخَيْرِ علَىٰ البَلَاءِ، وتَتَمَاسَكُ للعَاصِفَةِ، وتَظَلُّ فِي نُمُوِّهَا الهَادِئِ البَطِيءِ، لا تَحْفُلُ بِمَا تَرْجُمُها بِهِ شَجَرَةُ الشَّرِّ مِنْ أَقْذَاءٍ[1] وأَشْواكٍ!».

* يَعْقِدُ سيِّدُ هُنَا مُقَارَنَةً بينَ قُوَّةِ الخيرِ، المُتَمَثِّلَةِ فِي الأَفْكَارِ الخَيِّرَةِ، ومَنْ يَحْمِلُهَا ويَدْعُو إِلَيْهَا، وبينَ الأفكارِ الشِّرِّيرَةِ، ومَنْ يَحْمِلُهَا ويدعُو إِلَيْهَا؛ فَيُصَوِّرُ الشَّرَّ بشجرةِ الظِّلِّ التي سرعانَ ما ترتفِعُ وتَكْبرُ، ولكنها لَمْ تَسْتَفِدْ قُوَّةً مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وحرارَتِها؛ فَمَهْمَا عَلَتْ هذهِ الشَّجَرَةُ النَّابتَةُ فِي الظِّلِّ وكَبُرَتْ وانْتَفَشَتْ ومَلَأَتِ المكانَ؛ فَلَنْ يكُونَ لَها ثَمَرٌ، وسَتَبْقَىٰ ضَعِيفَةً، تَقْتَلِعُها يَدُ الصَّبِيِّ الضَعِيفَةُ بِسُهولَةٍ ويُسْرٍ.. وقَريبًا مِنْ شجرةِ الظِّلِّ تِلْكَ

---

(1) الأقذاء، والقذىٰ: جمع قذاة، وهو ما يقع في العين والماء والشراب من تراب، أو تبن، أو وسخ أو غير ذلك، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 4/ 30.

شجرةٌ نابتةٌ فِي الشَّمْسِ والهواءِ، قَدْ أكْسَبَتْها حرارَةُ الشمسِ قُوَّةً وصلابَةً ونَضَارَةً، فَهِيَ - وإنْ بَدَتْ صغيرةً بَطيئَةَ النُّمُوِّ- إلَّا إنَّها قَدِيمَةٌ رَاسِخَةٌ مُثْمِرَةٌ ثَمَرَةً حُلْوَةً جَنِيَّةً؛ لا يَضُرُّها مَا يَتَساقَطُ عليها مِنْ شَجَرَةِ الظِّلِّ مِنْ أغصانٍ وأشواكٍ؛ فإنَّ قوةَ جَذْورِهَا وصلابَةَ أعوادِهَا؛ هَيَّأَتْهَا لاحْتِمالِ الشَّدَائِدِ، والاسْتِعْصاءِ علَىٰ الكَسْرِ.. وهكذا الخيرُ والشَّرُّ؛ فَقَدْ يَنْتَفِشُ الشَّرُّ، ويَبْدُو لَهُ مِنَ الأَتْباعِ والجُنْدِ الكَثيرُ، ولَكِنْ حِين تُفْحَصُ قُوَّتُهُمْ تَتكَشَّفُ عَنْ هَشَاشَةٍ وضَعْفٍ وعَجْزٍ، لا يَصْمدُونَ فِي الشدائِدِ والأَهْوالِ، وسرعانَ مَا تُجْتَثُّ قُوَّتُهُمْ مِنْ جُذُورِها؛ لِمَا فِيهَا مِنْ وَهَنٍ وضَعْفٍ وعَجْزٍ، بِالرَّغْمِ مِنَ انْتِفاشِهِمْ وكَثْرَتِهِمْ وامتلائِهِمْ.. أَمَّا الخيرُ فَهُوَ يبدُو قَليلًا لا أَتْباعَ لَهُ، ولَا قُوَّةَ تَنْصُرُهُ؛ فإذا كانتِ المِحَنُ والشَّدائِدُ تَتَبَيَّنُ عن قُوَّةٍ وصَلَابَةٍ؛ وتَظهَرُ غَلَبَتُهُ وتَفَوُّقُهُ؛ فَإِنَّ بُطْءَ نُمُوِّهِ، وكَثْرَةَ تَجَارِبِهِ، ورُسُوخَ عَقيدَتِهِ أَغْنَتْهُ عَنِ الكَثْرَةِ الظَّاهِرَةِ والقُوَّةِ الزَّائِفَةِ.

* وهذا المَثَلُ الذِي ذَكَرَهُ سيِّدٌ حَقٌّ؛ والأخبارُ تُؤَيِّدُهُ وتُؤَكِّدُهُ؛ وأصدَقُ مثالٍ عليهِ تجربَةُ الإسلامِ الأُوْلَىٰ المُتَمَثِّلَةُ بِنَبْتَةِ الإسلامِ الأُوْلَىٰ: مُحَمَّدٍ ﷺ وصَحْبِهِ ﷺ، فَقَدْ كانَتْ نَبْتَةُ الجاهِلِيَّةِ مُنْتَفِشَةً مُتَطَاوِلَةً مُحِيطَةً بِهِمْ مِنْ كُلِّ مكانٍ، تَرْجُمُهُمْ بالتُّهَمِ والأباطيلِ، وتُؤْذيهِمْ بالضَّرْبِ والقَتْلِ والتَّنْكيلِ؛ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ؛ فَلَمَّا كانَتِ المواجَهَةُ الأُوْلَىٰ بينَ الفِئَةِ القَليلَةِ الصادِقَةِ المُتَمَسِّكَةِ بِدِينِها، المُتَجَذِّرَةِ بِعَقِيدَتِها، والفِئَةِ المُنْبَتَّةِ التي ليسَ لِدِينِها جُذُورٌ أَصيلَةٌ وامتدادٌ؛ سرعانَ مَا هُزِمَتِ الفِئَةُ الشِّرِّيرَةُ التي لا عَقيدَةَ صادِقَةَ لَها ولا امْتِدادَ أَيَّمَا انْهزَامٍ؛ في حينِ تَماسَكَتِ الفِئَةُ المُؤْمِنَةُ الخَيِّرَةُ القليلَةُ، وانْتَصَرَتْ أَيَّما انْتِصارٍ. وهَذَا النَّموذجُ مُتَكَرِّرٌ في كلِّ زمانٍ، فلقدْ رَأَينَا مَمَالِكَ الشَّرِّ الكُبْرَىٰ، كَفارِسٍ والرُّومِ تَتَهاوَىٰ وتَتَساقَطُ تَحْتَ مَعاوِلِ القِلَّةِ مِنَ المؤمنينَ الصادقينَ؛ والأمثلةُ مَكْرورةٌ في كلِّ زمانٍ، وَلَقَدْ

رأينَا فِي زمانِنَا قُوَىٰ الطُّغْيانِ والشَّرِّ المَدْعومَةَ مِنَ الدولِ الكُبْرَىٰ، التِي تَمَرَّسَتِ البَغْيَ والظُّلْمَ، وتَحَكَّمَتْ فِي تَفاصِيلِ تَفَاصِيلِ الناسِ، وأَرْهَبَتِ البلادَ والعِبادَ دَهْرًا طَوِيلًا وزَمَنًا مَدِيدًا، رأيناها تَتَهَاوَىٰ وتَتَساقَطُ يَوْمَ المُواجَهَةِ أمامَ الفِئَةِ المُؤْمِنَةِ الصَّابِرةِ، صاحِبَةِ الأفكارِ الصَّادقَةِ، والتِي غَابَتْ فِي سُجُونِ الطُّغاةِ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً، وذَاقَتِ العَذَابَاتِ عُقُودًا مُتَطَاوِلَةً.

* ولَقَدْ ضَرَبَ اللهُ تعالَىٰ مَثَلًا للخيرِ والشَّرِّ فِي القرآنِ الكريمِ، بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ ثابتَةِ الأُصُولِ، مُمْتَدَّةِ الفُروعِ، والشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ المُنْبَتَّةِ التِي لا جُذُورَ لَهَا ولا قَرَارَ، فقالَ تعالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1]، ولعلَّ سَيِّدًا يَتَأَوَّلُ هذهِ الآياتِ بِمِثْلِهِ هَذَا.

* وَوَرَدَ فِي السُّنَّةِ مَثَلٌ للخيرِ والشَّرِّ بالشجرةِ؛ فَعَنْ كَعْبِ بنِ مالكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفِيئُهَا الرِّيحُ، وَتَصْرَعُهَا مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا أُخْرَىٰ؛ حَتَّىٰ تَهِيجَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَىٰ أَصْلِهَا، لَا يُفِيئُهَا شَيْءٌ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً[2][3]».

(1) إبراهيم: 24-26.

(2) رواه مسلم، باب مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالزَّرْعِ وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَشَجَرِ الأَرْزِ: 8/ 136.

(3) ومعنىٰ: تَهِيجُ تَيْبَسُ، الأَرزة من الشّجر الأرْزِن، وَهِي شجرةُ الصَّنَوْبَرِ، والمجذية: الثابتة المنتصبة، والانجعاف: الانقلاع، والخامة: الغضة اللينة من الزرع. والحديث يشبه «الْمُؤمن بالخامة من الزَّرْع الَّتِي تميلها الرّيح؛ لِأَنَّهُ مُرْزَأٌ مُصَابٌ فِي نَفسه وَأَهله وَمَاله، وَشبه الْمُنَافِق بالأرزة الَّتِي لَا تميلها الرّيح؛ لِأَنَّهُ لَا

القاعدةُ الرَّابِعَةُ

العَطْفُ والإِحسانُ يَسْتَخْرِجُ الخيرَ المَكْنُونَ[1]

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «عِنْدَمَا نَلْمَسُ الجَانِبَ الطَّيِّبَ فِي نُفُوسِ النَّاسِ؛ نَجِدُ أَنَّ هُناكَ خَيْرًا كَثيرًا، قَدْ لا تَرَاهُ العُيونُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ[2]!. لَقَدْ جَرَّبْتُ ذَلِكَ.. جَرَّبْتُهُ مَعَ الكَثيرينَ.. حَتَّىٰ الذينَ يَبْدُو فِي أَوَّلِ الأَمْرِ أَنَّهُمْ شِرِّيرونَ، أَوْ فُقَرَاءُ[3] الشُّعُورِ».

* يَظْهَرُ سيدُ قُطْب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- واسِعَ الصَّدْرِ، بعيدًا عَنِ التَّعَصُّبِ المَقِيتِ[4] لِمَنْ ينتسبونَ لجماعَتِهِ أوْ لِمَنْ يحملونَ أَفْكَارَهُ، فالناسُ -مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِ سَيِّدٍ- فِيهِمْ خيرٌ

يرزأ شَيْئا حَتَّىٰ يَمُوت، وَإِن رُزِئَ وأُصيبَ لم يُؤجر عَلَيْهِ»، انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي: ص122.

(1) المكنون، المخبوء المستور، انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي: 4/ 389.

(2) وَهْلَة: مِنْ وَهَلَ إِلَىٰ الشَّيْءِ، يَهِلُ، وَهْلًا، إذا ذَهَبَ وَهْمُهُ، والوهلة: المرة من الفزع: أي لقيتُهُ أول فزعة، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 5/ 233، والمقصود هنا أول نظرة عابرة عاجلة من غير اختبار ولا تمحيص، والله أعلم.

(3) المقصود بفقراء الشعور: الموصوفين بالشدة والقسوة والغلظة، وهم المفتقرون للمشاعر والأحاسيس الرقيقة، التي تدفع علىٰ البر والإحسان، فكل من نقص عنده شيء واحتاجه؛ فهو فقير إليه.

(4) المَقيتُ: البغيضُ، وَالْمَقْتُ: الْبُغْضُ مَعَ خِزْيٍ وَصَغَارٍ، انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: 22/ 323.

كثيرٌ، ولكنَّ هَذا الخيرَ قَدْ لَا يكونُ ظاهِرًا مَرْئِيًّا لِأَوَّلِ وهلَةٍ؛ ولكنْ مَنْ تَحَسَّسَهُ وَنَقَّبَ عَنْهُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ؛ فَسَيَجِدُ كُنُوزًا مِنَ الخَيْرِ مَخْبُوأَةً فِي مَكْنونِ[1] قَلْبِهِ، مَدْفونَةً فِي طَيَّاتِ نَفْسِهِ؛ فَمَا إِنْ يُكْشَفْ عَنْها حَتَّىٰ تَظْهَرَ زَاهِيَةً بَرَّاقَةً؛ تمامًا كالكنْزِ المَدْفونِ فِي أَعْماقِ الأَرْضِ، أَوْ كالدُّرَّةِ المُسْتَوْدَعَةِ فِي الأَصْدافِ فِي قيعانِ البِحارِ؛ وهِيَ كَذَلِكَ كالماءِ المُسْتودَعِ القريبِ مِنْ قِشْرَةِ الأرضِ، مَا إِنْ يُكْتَشَفْ، ويُحْفَرْ عَنْهُ، حتَّىٰ تَتَفَجَّرَ ينابيعُ الماءِ العذْبِ الزُّلالِ، فَيَسْتَقِي مِنْها العِبَادُ والبِلَادُ، وعَدَمُ رُؤْيَتِهِ قبلَ اكْتِشافِهِ لا يعني عَدَمَ وجودِهِ، ولكنْ يعني عَدَمَ وجودِ الرُّؤْيَةِ البَاصِرَةِ الكاشِفَةِ لَهُ، فَإِذا وُجِدَ البصيرُ الخَبِيرُ، وَزُوِّدَ بِوسَائِلِ الرُّؤْيَةِ الفَاعِلَةِ الدَّقِيقَةِ الحَسَّاسَةِ، التِّي يُبْصَرُ بِهَا مَا فِي أعماقِ الأَرْضِ، ولُجَجِ البِحَارِ؛ فَسَيَرَىٰ مَا خَفِيَ عَلَىٰ عَامَّةِ النَّاسِ. وهذا هُوَ الشَّأْنُ فِي الخيرِ المَخْبوءِ فِي قُلوبِ النَّاسِ.

وَهذا الذِي يقُولُهُ سَيِّدٌ، مُجَرَّبٌ مَعْلومٌ، جَرَّبَهُ سَيِّدٌ، كَما جَرَّبَهُ حُكَماءُ الدَّعْوَةِ وفُقَهاؤُها كَثيرًا؛ فَكانَ الأمرُ كَمَا وَصَفَ سَيِّدٌ، والُمفَاجَأَةُ أنَّ مَعانِيَ الخَيْرِ مَوْجودَةٌ فِي نفوسِ مَنْ يَظُنُّ الناسُ فيهِمْ شَرًّا أَوْ سُوءًا؛ فَهؤُلاءِ كذلِكَ لَا يَعْدَمُ عِنْدَهُمُ الخيرُ لِمَنْ حَذَقَ البَحْثَ والتَّنْقيبَ، وتَمَرَّسَهُ وأَتْقَنَهُ.

(1) الْمَكْنُونِ: الْمَخْزُونُ الْمُخَبَّأُ لِنَفَاسَتِهِ، انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: 27/ 296.

سِرُّ كَسْبِ القُلُوبِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «شَيْءٌ مِنَ العَطْفِ علَىٰ أَخْطائِهِمْ وحَماقَاتِهِمْ[1]، شَيْءٌ مِنَ الوُدِّ الحَقِيقِيِّ لَهُمْ، شَيْءٌ مِنَ العِنايَةِ -غيرِ المُتَصَنَّعَةِ- باهْتِماماتِهِمْ وهُمُومِهِمْ..، ثُمَّ يَنْكَشِفُ لَكَ النَّبْعُ الخَيِّرُ فِي نُفُوسِهِمْ، حينَ يَمْنَحونَكَ حُبَّهُمْ ومَوَدَّتَهُمْ وَثِقَتَهُمْ؛ فِي مُقابِلِ القَليلِ الذِي أَعْطَيْتَهُمْ إياهُ مِنْ نَفْسِكَ، مَتَىٰ أَعْطَيْتَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ، مَتَىٰ أَعْطَيْتَهُمْ إِيَّاهُ فِي صِدْقٍ وَصَفاءٍ وإِخْلاصٍ».

* يَكشِفُ سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- عَنِ السِّرِّ الذِي به يَمْتَلِكُ الدُّعاةُ قلوبَ الناسِ، والمَفَاتيحِ التِي بِها يَصِلُونَ إِلَىٰ كنوزِ الخيرِ المَخْبوأَةِ فِي أَعْماقِ قلوبِهِمْ؛ إِنَّهُ العَطْفُ وَالوُدُّ والإِحْسانُ وَسَعَةُ الصَّدْرِ؛ فالمَطْلوبُ مِمَّنْ يَمْتَهِنُ الدَّعْوةَ أَنْ يَمْتَلِكَ المَفاتيحَ تِلْكَ أَوَّلًا، ثُمَّ لَا عَلَيْهِ إِلَّا أنْ يدخُلَ القُلوبَ بِرِفْقٍ ولُطْفٍ بِلَا اسْتِئْذانٍ. فالمَطْلوبُ مِنَ الدعاةِ ليسَ الكثيرَ، وإِنَّما شَيْءٌ قليلٌ من العَطْفِ والوُدِّ والإحسانِ وسَعَةِ الصَّدْرِ.. المَطْلوبُ أَلَّا يَضِيقَ الدُّعاةُ بِأَخْطاءِ النَّاسِ ومَطَامِعِهِمْ وجَهْلِهِمْ؛ فَالطَّمَعُ والهَلَعُ والجَهْلُ مَجْبولٌ فِي طِينَةِ ابْنِ آدَمَ، لَا إِنَّما المَطْلوبُ تَحَمُّلُ أَخْطائِهِمْ والصَّبْرُ علَيْها، وتَصْويبُ أَخْطائِهِمْ وإِرْشَادُهِمْ بِرِفْقٍ ولينٍ، ولَقَدْ أَرْشَدَ اللهُ تعالَىٰ خيرَ أَهْلِ زَمَانِهِ أنْ يَلِينَ القَوْلَ لِشَرِّ أَهْلِ الأَرْضِ وأَطْغاهُمْ وأَكْفَرِهِمْ فِي زَمانِهِ، وأَلَّا يَعْتَزِلَهُ ويَنْزَوِيَ عَنْهُ؛ فقالَ تَعالَىٰ لِمُوسَىٰ وهارونَ -عليهِمَا السَّلامُ:

---

(1) لم يُرِدْ سيد بوصفهم بـ (الحُمْقِ) هنا تسفيههم أو تحقيرهم، أو الحطّ من شأنهم؛ فإن هذا يتنافىٰ مع موضوع الفقرة، وما أراده منها، وإنما أراد تشخيص الحالة، وأن يسميها باسمها للدعاة من أهل العلم والحكمة، والحُمُقُ بمعناه اللغوي: قِلَّةُ العقل، وحقيقة الحمق: وضع الشيء في غير موضعه، والمراد: عدم الحكمة والاتزان في التصرفات، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 1/ 442.

﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[1]، فليسَ المطلوبُ مِنَ الداعيةِ إلَّا لينَ القَوْلِ للناسِ، وطَلَاقَةَ الوَجْهِ، والبِشْرَ والإِحْسانَ؛ ثُمَّ سَيَرَىٰ مِنْهُمْ صُدُورًا مُنْشَرِحَةً، وقلوبًا مَفْتُوحَةً، وكُنُوزًا ثَمِينَةً؛ مَا كَانَتْ لِتُرَىٰ بِدُونِ ذَلِكَ، وبِهَذا جَاءَ التَّوْجيهُ الإِلَهي: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[2]؛ وبِهِ نَطَقَتِ الحِكْمَةُ:

بُنَيَّ إِنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ *** وَجْهٌ طَلِيقٌ وكَلَامٌ لَيِّنٌ[3]

وتَجْرِبَةُ الإِسلامِ غَنِيَّةٌ بِأَمْثِلَةِ مَنْ كانَ لينُ القولِ سَبَبًا فِي تَدَيُّنِهِمْ، وحُبِّهِمْ لِلْإِسْلامِ.

* كَمَا أَنَّ المَطْلوبُ مِنَ الدُّعاةِ كَذَلِكَ التَّصَدِّي لِحاجَاتِ الناسِ واهْتِماماتِهِمْ، والسَّعْيُ فِي قَضَائِهَا، وإِشْعارُهُمْ بِحُبِّهِمْ لَهُمْ، وباهْتِمامِهِمْ بِمَصَالِحِهِمْ وحَاجَاتِهِمْ، وهَذا مَا وصفتْ به خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عنها رسولَ اللهِ ﷺ، فقالتْ: «كَلَّا وَاللهِ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ»[4]؛ وَهَذا هُو وَصْفُ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَقَالَ ابْنُ الدَّغِنَّةِ[5] عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يَوْمَ أرادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُخْرِجَ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه: «إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ»[6]،

---

(1) طه: 43، 44.

(2) البقرة: 83.

(3) البيت قاله سفيان بن عيينة، انظر: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، للبكري: 1/ 72.

(4) رواه البخاري في صحيحه، باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ: 1/ 7.

(5) ويروىٰ: ابْنُ الدَّغِنَةِ، وابنُ الدُّغُنَّةِ.

(6) رواه البخاري في صحيحه، بَاب جِوَارِ أَبِي بَكْرٍ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَقْدِهِ: 3/ 98.

وَلَقَدْ أرشَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ الأَخْلاقِ التِي بِهَا يُسْتَخْرَجُ الخيرُ مِنْ نفوسِ النَّاسِ، فقالَ ﷺ: «عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»[1].

* فالإحسانُ إِلَىٰ النَّاسِ سببٌ أكيدٌ لِكَسْبِ قُلُوبِ النَّاسِ، والنُّفُوسُ مُفْطُورَةٌ عَلَىٰ حُبِّ مَنْ أَحْسنَ إِلَيْها، والنَّاسُ مُنْقادُونَ طَوْعًا لِذَوِي الأَيْدِي مِنَ المُحْسنينَ، وقَدْ قيلَ: الناسُ عبيدُ الإِحْسانِ، ويُرْوَىٰ: الإِحْسانُ يَسْتَعْبِدُ الإِنْسانَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

أَحْسِنْ إِلَىٰ النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ *** فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسانَ إِحْسَانُ[2]

* كما أشارَ سَيِّدٌ إِلَىٰ أَمْرٍ يَنْبَغِي أَلَّا يُغْفَلَ، وهُوَ الصِّدْقُ والإِخْلاصُ فِي مُعامَلَةِ النَّاسِ: صِدْقُ المَشَاعِرِ والأَحاسِيسِ، صِدْقُ القَوْلِ والفِعْلِ، وإِرَادَةُ اللهِ تَعالَىٰ بِالإِحسانِ إِلَىٰ النَّاسِ ودَعْوَتِهِمْ، لَا التَّصَنُّعُ والتَّكَلُّفُ المَمْجُوجُ[3]، لِيُظْهِرَ نَفْسَهُ فِي ثِيَابِ المُصْلِحِينَ، وَزِيِّ المُحْسِنِينَ، أَوْ لِيَحُوزَ تَأْيِيدَهُمْ وأَصْواتَهُمْ حينَ يُحْتاجُ إِلَيْهِمْ، فَهَذا التَّصَنُّعُ والتَّمَلُّقُ[4] غيرُ الصَّادِقِ سُرْعانَ مَا يَنْكَشِفُ لِمَنْ أَرَادَ وُجُوهَهُمْ مِنَ النَّاسِ؛ لا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَجِدْ فِي النَّاسِ

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، بَاب عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ: 2/ 115، ومسلم، باب بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ: 2/ 699.

(2) البيت لأبي الفتح البستي، انظر: اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب، لمحمد السراج: 1/ 276.

(3) المَمْجُوجُ: المستقبحُ المُسْتَهْجَنُ، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 3/ 2069.

(4) التملق: التَّصَنُّعُ بشيء ليس فيه، ورجل مَلِقٌ: يُعْطِي بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 298، والمقصود هنا: التَّصَنُّع للمدعوين بوصفهم بأوصاف ليست فيهم، مِدْحةً لهم واستمالةً واستعطافًا.

مَا كانَ يَرْجُو لِنَفْسِهِ، ولَرُبَّمَا انْقَلَبَ عَلَىٰ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ بالأَمْسِ؛ يَصِفُهُمْ بِأَسْوَإِ الأوصافِ. وَسُنَّةُ اللهِ تعالَىٰ جَارِيَةٌ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يُسِرُّ سَرِيرَةً؛ إِلَّا وَيُظْهِرُها اللهُ تَعالَىٰ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

أَصَالَةُ الخَيْرِ، وهَشَاشَةُ الشَّرِّ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّ الشَّرَّ لَيْسَ عَمِيقًا فِي النَّفْسِ الإِنْسانِيَّةِ إِلَىٰ الحَدِّ الذِي نَتَصَوَّرُهُ أَحْيانًا.. إِنَّهُ فِي تِلْكَ القِشْرَةِ الصُّلْبَةِ، التِي يُواجِهُونَ بِهَا كِفَاحَ الحياةِ لِلْبَقَاءِ.. فإذا أَمِنُوا؛ تَكَشَّفَتْ تِلْكَ القِشْرَةُ الصُّلْبَةُ عَنْ ثَمَرَةٍ حُلْوَةٍ شَهِيَّةٍ.. هَذِهِ الثَّمَرَةُ الحُلْوَةُ، إِنَّمَا تَتَكَشَّفُ لِمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُشعِرَ النَّاسَ بِالأَمْنِ مِنْ جَانِبِهِ، بِالثِّقَةِ فِي مَوَدَّتِهِ، بِالعَطْفِ الحَقِيقِيِّ عَلَىٰ كِفَاحِهِمْ وآلَامِهِمْ، وعَلَىٰ أَخْطائِهِمْ، وعلَىٰ حَمَاقَاتِهِمْ كَذَلِكَ.. وشَيْءٌ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، كَفِيلٌ بِتَحْقِيقِ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَقْرَبَ مِمَّا يَتَوَقَّعُ الكَثِيرُونَ.. لَقَدْ جَرَّبْتُ ذَلِكَ، جَرَّبْتُهُ بِنَفْسِي؛ فَلَسْتُ أُطْلِقُهَا مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ مُجْنِحَةٍ وَلِيدَةِ أَحْلَامٍ وأَوْهَامٍ!».

* يُشِيرُ سَيِّدٌ هُنَا إِلَىٰ مَا قَرَّرَهُ الإِسْلامُ مِنْ أَنَّ الناسَ مَفْطُورُونَ علَىٰ الخيرِ، إِذِ الخيرُ أَصِيلٌ فِي النُّفُوسِ، والشَّرُّ طَارِئٌ، ليسَ أَصيلًا؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ: فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ؛ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [1]»[2]، ومعنىٰ جَمْعَاءَ: مُكْتَمِلَةُ الأعضاءِ، الَّتِي لم يذهب من بدنها شَيْءٌ، سميت بها لِاجْتِمَاعِ سَلامَةِ أعضائِها[3]، والجَدْعَاءُ: مَقْطُوعَةُ الأُذُنِ أوِ الأَنْفِ أوِ الأَطْرافِ[4]. والمَعْنَىٰ: كَمَا تُولَدُ البَهائِمُ مُكْتَمِلَةَ الأعضاءِ، ليسَ فِيها مَقْطُوعَةُ الأطرافِ؛ فَكذلِكَ يُولَدُ الناسِ مَفْطورِينَ علَىٰ الخيرِ؛ وإنَّما الشَّرُّ يأتيهِمْ مِنْ خارِجِ نُفُوسِهِمْ، مِنْ قِبَلِ آبائِهِمْ أَوْ مَنْ تَوَلَّاهُمْ. فَإِذا كانَ الأَمْر كذلِكَ؛ إذًا لابُدَ أنْ تَبْقَىٰ أُصُولُ الخيرِ وبُذُورُهُ باقِيَةً فِي النَّفْسِ التِي ظَاهِرُها الشَّرُّ، وعَلَىٰ الدُّعاةِ أنْ يَرْعَوْا بُذُورَ الخَيْرِ الكَامِنَةِ فِي نُفُوسِ الشِّرِيرِينَ، وأنْ يُزِيلوا ما حولَها مِنْ خَبيثِ الأَعْشابِ.

* ثمَّ إنَّ سيِّدًا يُشيرُ إِلَىٰ بعضِ الأسبابِ الخَفِيَّةِ التِي تُهَيِّجُ النفوسَ وتَحْمِلُها علَىٰ الشَّرِّ: إنَّهُ شُقَّةُ الحياةِ وقسوتُها، فَالفقيرُ قَدْ يدفَعُهُ فَقْرُهُ للسَّرِقَةِ أوِ التَّسَوُّلِ، والمَدِينُ قدْ يدفَعُهُ دَيْنُهُ للاخْتِلاسِ أوِ الرِّبا أو الاحتيالِ، والضَّعيفُ الخَائِفُ قدْ يدْفَعُهُ خَوْفُهُ وحاجَتَهُ للكَذِبِ أَوِ التَّمَلُّقِ ومُمَالَأَةِ الطُّغاةِ، وصاحِبُ الشَّهْوَةِ قَدْ تَصْرَعُهُ شَهْوَتُهُ، وتَهْوِي بِهِ إِلىٰ المُسْتَنْقَعِ

---

(1) الروم: 30.

(2) رواه البخاري في صحيحه، بَاب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّىٰ عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَىٰ الصَّبِيِّ الْإِسْلَامُ: 2/ 94، ومسلم، باب مَعْنَىٰ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ وَحُكْمِ مَوْتِ أَطْفَالِ الْكُفَّارِ وَأَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ: 4/ 2047.

(3) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 8/ 178.

(4) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقَسْطَلَّانِيِّ: 8/ 178.

الآسِنِ[1] السَّحيقِ[2]؛ فإذَا مَا فَهِمَ الدُّعاةُ هَذِه المَعانِيَ، وَسَعَوْا في قَضاءِ حوائِجِ هؤلاءِ: مِنْ إغْناءِ الفقيرِ، وقَضاءِ دَيْنِ المَدِينِ، وتَأْمينِ الخائِفِ، وقَضاءِ حوائِجِ المُحْتاجينَ، وإرْشادِ العُصاةِ الضَّالِّينَ؛ لَمْ يَبْقَ للشَّرِّ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ سُلطانٌ، ولا إلَيْها سَبِيلٌ، وسَتَتَكَشَّفُ نُفُوسُهُمْ عَنِ الخيرِ الفِطْرِيِّ الأَصِيلِ، وسَيَتَرَحَّلُ الشَّرُّ الطَّارِئُ الحَديثُ.

* ومَثَلُ الخيرِ المَسْتُورِ كَمَثَلِ ثَمَرَةِ الجَوْزِ، فَهِيَ صُلْبَةٌ، لَا يَسْتَطيعُ أَكْلَهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ بِثَمَرَتِها المَسْتورَةِ وَرَاءَ الغِلَافِ الصُّلْبِ الرَّقيقِ؛ أَمَّا مَنْ لَهُ سابِقُ عِلْمٍ بِهَا وتَجْرِبَةٍ بِأَكْلِها؛ فَالأَمْرُ عَلَيْهِ سَهْلٌ؛ فَمَا عليهِ إلَّا أنْ يُزيلَ الغِلَافَ الرَقيقَ، لِيَجِدَ ثَمَرةً طَيِّبَةً شَهِيَّةً؛ فَتَكُونُ ثَمَّ اللَّذَّةُ والمُتْعَةُ والهَنَاءَةُ. وهَذَا الأَمْرُ مَعْلومٌ بِالتَّجْرِبَةِ للدُّعاةِ؛ فعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: غَزَا رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ الْفَتْحِ؛ فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاقْتَتَلُوا بِحُنَيْنٍ؛ فَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَعْطَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ، ثُمَّ مِائَةً، ثُمَّ مِائَةً. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: «وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»[3]. فَلَقَدْ عَلِمَ الرَّسولُ ﷺ ما فِي نَفْسِ صَفْوانَ مِنْ حُبِّ المالِ؛ فَأَتَاهُ مِنْ جِهَتِهِ، ومَا زَالَ بِهِ حتَّىٰ أزالَ مَا فِي قَلْبِهِ ونَفْسِهِ مِنْ شُرورٍ وأَحْقادٍ، حَتَّىٰ امْتَلَكَ قَلْبَهُ ونَفْسَهُ، وَيُؤَكِّدُ هذا المعنَىٰ قولُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

---

(1) الآسِنُ: متغير الطعم والرائحة، من شدة تلوثه ونتانته، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 1/ 49.

(2) السَّحيقِ: البعيد، انظر: معجم العين، للخليل: 3/ 37.

(3) رواه مسلم، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لَا. وَكَثْرَةِ عَطَائِهِ: 7/ 75.

﴿هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]، وَهكَذا ينبغِي أنْ يكونَ الدُّعاةُ؛ وَيؤَكِّدُ سيِّدٌ أنَّ هَذَا أَمْرٌ مُجَرَّبٌ، جَرَّبَهُ بِنَفْسِهِ مَعَ الكَثيرينَ، فَوَجَدَ هذِهِ النَّتيجَةَ الصَّادِقَةَ؛ فَهُوَ ليسَ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ كَثيرِ بُرْهانٍ.

* وهَذَا الوَصْفُ الذِي ذَكَرَهُ سَيِّدٌ للنَّاسِ؛ لَا يُعَمَّمُ، وإِنَّما هُوَ وَصْفُ أَكْثَرِ الناسِ، وسَوَادِهِمُ الأَعْظَمِ، وإِنَّما اقْتَصَرَ سَيِّدٌ علَىٰ ذِكْرِهِ دونَ ذِكْرِ غَيْرِهِ؛ لِمُناسَبَةِ الفِكْرَةِ التِي أرادَ أَنْ يُقَرِّرَهَا؛ وإِلَّا فإِنَّ بِمُقابَلَةِ هؤلاءِ صِنْفٌ مِنَ الناسِ فَسَدَتْ فِطْرَهُمْ، وتَلَوَّثَ أَصْلُهَا؛ فَلَا يُرْجَىٰ مِنْهُمْ خيرٌ أَلْبَتَّةَ[2]، ولَا يُنْتَظَرُ مِنْهُمْ رُشْدٌ أبدًا؛ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ تعالَىٰ، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهِ تعالَىٰ في كتابِهِ بوصفِهِ لَهُمْ بالطَّبْعِ علَىٰ قلوبِهِمْ، والخَتْمِ علَيْها، وتَغْطِيَتِها وظُلْمَتِها، كَمَثَلِ قولِهِ تعالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[3]، وكقولِهِ تعالَىٰ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[4]، وكقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5]، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[6].

---

(1) فصلت: 34.

(2) أَلْبَتَّةَ: قطعًا، يُقَال: لَا أَفعلهُ أَلْبَتَّةَ: قطعًا لَا رَجْعَة فِيهِ، ويجوز وصل همزتها (البتة)، ويجوز قطعها (ألبتة)، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 1/ 37.

(3) غافر: 35.

(4) البقرة: 7.

(5) المطففين: 14.

(6) الأنعام: 122.

* كَمَا أخبرَ عَنْ هذا الصِّنْفِ المَيْؤُوسِ مِنْهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ، فَقالَ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ: عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا؛ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا؛ نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ: أَبْيَضُ بِمِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا: لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ[1]»[2]، فالحديثُ يُشَبِّهُ الْقَلْبَ الَّذِي لَا يَعِي خَيْرًا بِالْكُوزِ الْمُنْحَرِفِ المقلوبِ الَّذِي لَا يَثْبُتُ فيهِ الْمَاءُ، ومَعْنَىٰ الْحَدِيثِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا اعْتَادَ اتِّبَاعَ هَوَاهُ وَارْتِكَابَ الْمَعَاصِي؛ دَخَلَ قَلْبَهُ بِكُلِّ مَعْصِيَةٍ يَتَعَاطَاهَا ظُلْمَةٌ، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ؛ افْتُتِنَ وَزَالَ عَنْهُ نُورُ الْإِسْلَامِ، وَالْقَلْبُ مِثْلُ الْكُوزِ؛ فَإِذَا انْكَبَّ انْصَبَّ مَا فِيهِ وَلَمْ يَدْخُلْهُ شَيْءٌ بَعْدَ ذَلِكَ[3].

* وهؤلاءِ فِي الأغلَبِ هُمْ أَهْلُ الفِتَنِ، مِنْ حَمَلَةِ راياتِ الجاهليَّةِ والدَّاعينَ إِلَيْها عَنْ عِلْمٍ وعنادٍ وتكَبُّرٍ عنِ الحقِّ، ومُحَادَّةٍ[4] للهِ تعالَىٰ ولِرَسولِهِ ﷺ وللذينَ آمَنُوا، ولا يُحْكَمُ

---

(1) رواه مسلم، باب بَيَانِ أَنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ: 1/ 128.

(2) ومعنىٰ (الصَّفَا): الْحَجَرِ الْأَمْلَسِ مِنْ غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالصَّفَا، و(مُرْبَادًّا): صَارَ كَلَوْنِ الرَّمَادِ، مِنَ الرُّبْدَةِ لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْغَبَرَةِ، و(مُجْخِيًّا): مَائِلًا مَنْكُوسًا، لَا يَثْبُتُ فِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يَسْتَقِرُّ، (وإِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)، أي: ما وافق هواه طَبْعًا، مِنْ غَيْرِ مُلَاحَظَةِ كَوْنِهِ مَعْرُوفًا أَوْ مُنْكَرًا شَرْعًا، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 3377.

(3) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: 2/ 172.

(4) المحادَّةُ: المعاداة والمخالفة والمنازعة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 3/ 140.

عَلَىٰ السُّوْقَةِ[1] مِنْ أَتْباعِهِمْ بِهَذا الوَصْفِ، وهُمْ قِلَّةٌ في الناسِ، فَمَثَلُ هَذَا الصِّنْفِ لَا يَصْدُقُ عليهِ الوَصْفُ السابقُ لسيِّدٍ، وهؤلاءِ يَنْبَغِي أَلَّا تُهْدَرَ فِي سبيلِ دَعْوتِهِمُ الطَّاقَاتُ والأَوْقاتُ؛ ويَكْفِي فِي حَقِّ هؤلاءِ إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيهِمْ بإعلامِهِمْ بالحَقِّ، ودَعْوتِهِمْ إِلَيْهِ دُونَمَا إِكْثارٍ؛ فَلا خيرَ فيهِمْ؛ فَقُلُوبُهُمْ مَنْكُوسَةٌ مَقْلوبَةٌ، لا يَسْتَقِرُّ فيها خيرٌ أَبَدًا، وهَذَا الصِّنْفُ يَنْبَغِي ألا يُحْسَنَ الظَّنُّ بِهِمْ، فَإِحْسانُ الظَّنِّ بِهِمْ جَهَالَةٌ وغَفْلَةٌ، قَدْ تَقُودُ إِلَىٰ انْتِكَاسَاتٍ كَبِيرَةٍ، لَا تُحْمَدُ عَاقِبَتُها، وقَدْ وَقَعَ الدُّعاةُ والمُصْلِحونَ فِي هَذَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ؛ فَجَرَّهُمْ إِحْسانُ الظَّنِّ والثِّقَةُ بمثْلِ هؤلاءِ إِلَىٰ وَبَالَاتٍ، تَجَرَّعَ المُسْلمُونَ مَرَارَتَها في أقطارِ الأَرْضِ عُقُودًا مِنَ الزَّمَنِ، ولَا يزالُ المسلمونَ يَتَجَرَّعُونَ مَرَارَةَ ذلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ البِلادِ.

* وَهَذَا الصِّنْفُ لَا يَحْكُمُ عليهِ هَذَا الحُكْمَ كُلُّ أَحَدٍ، وإِنَّما يُتْرَكُ الحُكْمُ عليهِمْ لِفُقَهاءِ الدَّعْوَةِ وحُكمائِهَا المُجَرِّبينَ المُتَمَرِّسينَ الرَّاشدينَ المُتَجَرِّدينَ مِنَ الهَوَىٰ، الذينَ أَنَارَ اللهُ تعالَىٰ قلوبَهُمْ بِنُورِ البَصيرَةِ؛ حَتَّىٰ لا يَحْكُمَ كُلُّ أَحَدٍ علَىٰ النَّاسِ بِهَواهُ وحَظِّ نَفْسِهِ. فَبَعْضُ النَّاسِ يَبْدو شِرِّيرًا، رَأْسًا فِي الباطِلِ، ولكنَّ طَوِيَّتَهُ[2] سَلِيمَةٌ، وفِطْرَتَهُ نَقِيَّةٌ؛ فَما هِيَ حتَّىٰ يَتَكَشَّفَ الخيرُ فِي نُفُوسِهِمْ، مَا يُفاجِئُ الدُّعاةَ الراشدينَ.

* ويَنْبَغِي ألا يَسْتَغْفِلَ الدُّعاةَ مَا وَصَفَ بِهِ سَيِّدٌ أكثرَ النَّاسِ بالخَيْرِيَّةِ، فإِنَّهُ هُنَا أرادَ أَنْ يَحْمِلَ الدُّعاةَ علَىٰ الاتِّساعِ للنَّاسِ والعَطْفِ عَلَيْهِمْ والانتفاعِ بِهِمْ؛ وإِلَّا فإِنَّ سَيِّدًا -رَحِمَهُ

---

(1) السُّوْقَةُ: الرّعية وأوساط النَّاس وعمومهم، وَتطلق علىٰ الْوَاحِد وَغَيره، فَيُقَال: هُوَ سوقة وهم سوقة، وهم بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك، سموا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 10/ 170، والمعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: 1/ 465.

(2) الطوية: السريرة، والنية، والضمير، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 2/ 1428.

اللهُ تعالَىٰ- أطالَ النَّفَسَ فِي وَصْفِ الفِئَةِ الأُخْرَىٰ، التِي فَسَدَتْ فِطْرَتُها فِي كِتَابَاتِهِ، فَالمَقَالُ بِحَسَبِ الحَالِ.

❋ والمَعْرِفَةُ بِأَصْنافِ النَّاسِ وطِبَاعِهِمْ، والخَيِّرِ مِنْهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ حَقِيقَةً، ضَرُورِيٌّ لِمَنْ يَمْتَهِنُ العَمَلَ الدَّعَوِيَّ، وهُوَ مَا يُمَيِّزُ الدُّعاةَ العَامِلِينَ نَجَاحًا وإِخْفَاقًا[1].

(1) الإخفاق: ضد النجاح، ويقال: أخفق الرجل، إذا غزا ولم يصب شيئًا، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 201.

القاعدةُ الخَامِسَةُ

فِي الإِحْسانِ رَاحَةٌ وهَنَاءَةٌ

قالَ سيِّدٌ قُطْبٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ-: «عِنْدَمَا تَنْمُو فِي نُفُوسِنَا بُذُورُ الحُبِّ والعَطْفِ والخَيْرِ؛ نُعْفِي أَنْفُسَنَا مِنْ أَعْبَاءَ ومَشَقَّاتٍ كَثيرَةٍ.. إِنَّنَا لَنْ نَكُونَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ نَتَمَلَّقَ[1] الآخَرِينَ؛ لِأَنَّنَا سَنَكُونُ يَوْمَئِذٍ صادِقِينَ مُخْلِصينَ، إِذْ نُزْجِي إِلَيْهِمُ الثَّنَاءَ؛ إِنَّنَا سَنَكْشِفُ فِي نُفُوسِهِمْ عَنْ كُنُوزٍ مِنَ الخَيْرِ، وسَنَجِدُ لَهُمْ مَزَايا طَيِّبَةً، نُثْنِي عَلَيْهَا حِينَ نُثْنِي، ونَحْنُ صَادِقُونَ، وَلَنْ يَعْدِمَ إِنْسانٌ نَاحِيَةً خَيِّرَةً، أَوْ مَزِيَّةً[2] حَسَنَةً؛ تُؤَهِّلُهُ لِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، ولَكِنَّنَا لَا نَطَّلِعُ عَلَيْهَا وَلَا نَرَاها إِلَّا حِينَ تَنْمُو فِي نُفُوسِنَا بِذْرَةُ الحُبِّ!».

* لَمْ يَزَلْ سَيِّدٌ يُرَسِّخُ مَعانِيَ العَطْفِ والإِحْسانِ علَىٰ الآخَرينَ بِلَا مُقابِلَ، فَيُقَرِّرُ أَنَّ الإِحْسانَ لَيْسَ كَلِمَةً عَابِرَةً، ولا فِكْرَةً طارِئَةً؛ ولا خُلُقًا مُتَكَلَّفًا؛ ولا تُطاوِعُ نُفُوسُ أَكْثَرِ الناسِ عليهِ بِسُهُولَةٍ، وإِنَّما هُوَ سَهْلٌ مَيْسورٌ علَىٰ مَنْ كَانَتْ بُذُورُ الإِحسانِ والحُبِّ مَبْثوثَةً فِي أَرْضِ قَلْبِهِ، وغَذَّاها ونَمَّاهَا بِدوامِ الإِحسانِ والعَطْفِ، حتَّىٰ تَصِيرَ نَبْتَةً عالِيَةً مُثْمِرَةً مُبارَكَةً. ويومَ يكونُ هذا هُوَ حالَ الدُّعاةِ، سَيَتَجَنَّبونَ كثيرًا مِنَ العقباتِ والتَّكاليفِ التي

---

(1) التملق: التَّصَنُّعُ بشيء ليس فيه، ورجل مَلِقٌ: يُعْطِي بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 298، والمقصود هنا: التَّصَنُّعُ للمدعوين بوصفهم بأوصاف ليست فيهم، مِدْحةً لهم واستمالةً واستعطافًا.

(2) الْمَزِيَّةُ: الْفَضِيلَةُ، والتَّمَامُ. وَلِفُلَانٍ مَزِيَّةٌ، أَيْ: فَضِيلَةٌ يَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للحموي: 2/ 571.

تُكَلِّفُ الدُّعاةَ غاليًا؛ فإحْسانُهُمْ وعطْفُهُمْ يفتحُ لَهُمْ مَغالِيقَ الصُّدُورِ، لِيَدْخُلُوهَا بِلا اسْتِئْذانٍ، فَيُصْلِحُوا مَا فَسَدَ مِنْها، ويُطَيِّبُوا مَا سَقِمَ، ويَجْتَثُّوا مِنْها كُلَّ نَبْتَةٍ خبيثَةٍ، ويَغْرِسُوا بَدَلَ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْها بِذْرَةً للخَيْرِ والفضيلةِ.

* ويومَ تَنْمُو مَعانِي الخيرِ فِي نُفُوسِ المَدْعُوِّينَ، سَيَتَجَنَّبُ الدُّعاةُ كُلْفَةَ التَّمَلُّقِ المُتَصَنَّعِ للمَدْعُوِّينَ بِوَصْفِهِمْ بأوصافٍ لَيْستْ فِيْهِمْ، مِدْحةً لهمْ واستمالةً واستعطافًا، وسيُعْفَوْنَ مِنْ هذا كلِّه؛ لأنَّهُمْ أصبَحُوا خَيِّرِينَ حَقًا، فإذَا أَثْنَوْا عَلَيْهِمْ؛ أَثْنَوْا وَهُمْ صادِقُونَ؛ فَيَذْهَبُ عَنْهُمْ حَرَجُ الأَوْصافِ غَيرِ الصَّادِقَةِ، وسَيُعْفُونَ أَنْفُسهُمْ مِنْ نَقِيصَةِ الكَذِبِ والتَّمَلُّقِ.

* ويَوْمَ نُغَيِّرُ مَا فِي نُفُوسِ الناسِ مِنْ معانِي الشَّرِّ؛ فَتَسْتَحِيلُ خَيْرًا، ويَوْمَ نُثْنِي عليهِمْ ونَحْنُ صادِقُونَ، تَمامًا كَمَا يَمْتَدِحُ البُسْتانِيُّ الحاذِقُ ثَمَرَتَهُ الطَّيِّبَةَ التِي طَالَتْ عِنَايَتُهُ بِهَا، وَرِعايَتُهُ لَهَا حتَّىٰ طَابَتْ ونَضَجَتْ، فَهُو يُثْنِي عليها عَنْ عِلْمٍ وصِدْقٍ، فَلَا يُكَذَّبُ، ولا يُراجَعُ، بَلْ تُؤْخَذُ ثَمَرَتُهُ مَأْخَذَ الثِّقَةِ والاطْمِئْنَانِ؛ يَوْمَها سَتَنْكَشِفُ معانِي الخَيْرِ والصَّلاحِ فِي نُفُوسِهِمْ يَوْم نُعْلِمُ الناسَ بِها؛ لِيَنْتَفِعُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ خيرٍ وعطاءٍ، وسَنَكُونُ مُصَدَّقِينَ دائمًا، يَوْمَ يَجِدُ الناسُ صِدْقَ ما ذَكَرْنَا وحَقِيقَةَ مَا وَصَفْنَا.

وهَكَذَا كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ النَّاسَ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَبَّاسَ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ الْفَخْرَ، فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ؛ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دخل المسجد فهو آمن، قَالَ: فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَىٰ دُورِهِمْ، وَإِلَىٰ الْمَسْجِدِ»[1]. ومَا حاجَةُ النَّاسِ لِدَارِ أَبِي سُفيانَ ما دَامُوا آمِنِينَ فِي بُيوتِهِمْ

(1) الآحاد والمثاني، لابن أبي عاصم: 1/ 364، ومعرفة السنن والآثار، للبيهقي: 13/ 297، ودلائل النبوة، للبيهقي: 5/ 34.

وفي المَسْجِدِ؟ ولَكِنَّهُ الثَّناءُ المُوَجَّهُ الحَكيمُ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ علَىٰ أَبِي سُفْيانَ؛ يُداوِي بِهِ نَفْسَهُ، ويُعَوِّضُهُ شَيئًا مِنَ المَنْزِلَةِ والجَاهِ الذِي فَقَدَهُ بالإِسْلامِ، ويُثَبِّتُ بِهِ إِيمانَهُ، ويَسْتَخْرِجُ مِنْ قَلْبِهِ مَعَانِي الخَيرِ والتَّفَانِي والإِحْسان! فَكانَ مِنْ شَأْنِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ. قالَ الذَّهَبِيُّ فِي السِّيَرِ: «وَكَانَ أبو سفيانَ مِنْ دُهَاةِ العَرَبِ، وَمِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالشَّرَفِ فِيهِمْ، فَشَهِدَ حُنَيْنًا، وَأَعْطَاهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنَ الغَنَائِمِ مائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَرْبَعِيْنَ أُوْقِيَّةً مِنَ الدَّرَاهِمِ؛ يَتَأَلَّفُهُ بِذَلِكَ؛ فَفَرَغَ عَنْ عِبَادَةِ هُبَلَ، وَمَالَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ. وَشَهِدَ قِتَالَ الطَّائِفِ، فَقُلِعَتْ عَيْنُهُ حِيْنَئِذٍ، ثُمَّ قُلِعَتِ الأُخْرَىٰ يَوْمَ اليَرْمُوْكِ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ قَدْ حَسُنَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- إِيْمَانُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ يُحَرِّضُ عَلَىٰ الجِهَادِ، فَكَانَ يَصِيْحُ: يَا نَصْرَ اللهِ اقْتَرِبْ، وَكَانَ يُذَكِّرُ، وَيَقُوْلُ: اللهَ اللهَ، إِنَّكُمْ أَنْصَارُ الإِسْلَامِ وَدَارَةُ العَرَبِ[1]، وَهَؤُلَاءِ أَنْصَارُ الشِّرْكِ وَدَارَةُ الرُّوْمِ؛ اللَّهُمَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِكَ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ»[2].

* ثُمَّ يُؤَكِّدُ سَيِّدٌ مَا بَدَأَهُ فِي الفِقْرَةِ السَّابِقَةِ، مِنْ أنَّ الخيرَ أَصيلٌ فِي النفوسِ، فَكُلُّ نَفْسٍ فيها مِنَ الخيرِ مَا فِيهَا: قِلَّةً أو كَثْرَةً، ولا تُوجَدُ نَفْسٌ مَعْدُومَةَ الخيرِ بالكُلِّيَّةِ، ولكنْ لا يُدرِكُ ذلكَ ويَبْلُغُهُ إلَّا أهلُ الحِكْمَةِ والخِبْرَةِ والخيرِ والإحسانِ مِنَ الدُّعاةِ، الذينَ نَمَتْ فِي نُفُوسِهِمْ معانِي الخيرِ والحُبِّ للنَّاسِ: يومَ يَرَىٰ الدَّاعِيَةُ مُسْلِمًا فَرِحًا؛ فَيَفْرَحُ لِفَرَحِهِ، دُوْنَ أنْ يَعْلَمَ مَنْ هُوَ.. ومَا سَبَبُ فَرَحِهِ.. كُلُّ الذِي يَعْلَمُهُ أنَّ مُسْلِمًا فَرِحٌ لِمَسَرَّةٍ أَصَابَتْهُ؛ فَهُوَ يَفْرَحُ لَفَرَحِهِ.. يومَ يَرَىٰ مُسْلِمًا حَزِينًا مُبْتَئِسًا؛ فَيَحْزَنُ لِحُزْنِهِ، دُوْنَ أنْ يعلمَ مَنْ هُوَ.. ومَا سَبَبُ حُزْنِهِ.. كُلُّ الذِي يَعْلَمُهُ أنَّ مُسْلِمًا حَزِنَ لِبَأْساءَ أَصَابَتْهُ؛ فَهُو يَحْزَنُ لِحُزْنِهِ.. بَلْ إذا

(1) يقال للدار: دارة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 299.

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 2/ 106.

بَلَغَهُ أَنَّ خيرًا أصابَ مُسْلِمًا فِي أَقْصَىٰ بِلادِ الأَرْضِ؛ فَيَأْخُذُهُ مِنَ الفَرَحِ، وكَأَنَّ الخيرَ قَدْ أَصَابَهُ هُوَ.. وإِذَا بَلَغَهُ أَنَّ ضُرًّا أصابَ مُسْلِمًا فِي أَقْصَىٰ بِلادِ الأَرْضِ؛ فَيَأْخُذُهُ مِنَ الحُزْنِ، وَكَأَنَّ الضُّرَّ قَدْ نَزَلَ بِسَاحَتِهِ.

العَطْفُ والاحْتِمَالُ دليلُ كَمالِ الدُّعاةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «كَذَلِكَ لَنْ نَكُونَ فِي حَاجَةٍ لِأَنْ نُحَمِّلَ أَنْفُسَنَا مَئُونَةَ[1] التَّضَايُقِ مِنْهُمْ، ولا حَتَّىٰ مَئُونَةَ الصَّبْرِ علَىٰ أَخْطائِهِمْ وحَمَاقَاتِهِمْ؛ لِأَنَّنَا سَنَعْطِفُ علَىٰ مَواضِعِ الضَّعْفِ والنَّقْصِ، ولَنْ نُفَتِّشَ عَلَيْها لِنَرَاهَا يومَ تَنْمُو فِي نُفُوسِنَا بِذْرَةُ العَطْفِ! وبِطَبِيعَةِ الحالِ لَنْ نُجَشِّمَ[2] أَنْفُسَنَا عَنَاءَ الحِقْدِ عَلَيْهِمْ، أَوْ عِبْءَ الحَذَرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّمَا نَحْقِدُ علَىٰ الآخَرِينَ، لِأَنَّ بِذْرَةَ الخَيْرِ لَمْ تَنْمُ فِي نُفُوسِنَا نُمُوًّا كَافِيًا، ونَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ عُنْصُرَ الثِّقَةِ فِي الخيرِ يَنْقُصُنَا!».

* ساعَةَ ينمُو الخيرُ في نفوسِ الدُّعاةِ إِلَىٰ هذا الحَدِّ؛ لَنْ تَضيقَ صُدُورهُمْ بِأَخْطاءِ النَّاسِ وزَلَّاتِهِمْ وسَقَطَاتِهِمْ، فَصُدُورُهُمُ الكبيرةُ تَتَّسِعُ لِهَفَواتِ المَدْعُوِّينَ، ولا تَضِيقُ بِأَخْطائِهِمْ وسَقَطَاتِهِمْ، وفِي الحَديثِ: «إذا بَلَغَ الماءُ قُلَّتَيْنِ؛ لَمْ يَحْمِلِ الْخَبَثَ»[3]. فَكَمَا أَنَّ الماءَ إِذَا

---

(1) المَئُونَةَ: الكلفة، والعناء، انظر: مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار، للسبتي: 1/ 370.

(2) نُجَشِّمُ: نتكلف الأمر علىٰ مشقة وعناء، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 100.

(3) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: 8/ 211، وصَحَّحَهُ شعيب الأرنؤوط.

كَثُرَ يحتَمِلُ مَا يُلْقَىٰ فيهِ مِنْ أَقْذاءٍ ونَجَاسَاتٍ، ويبقَىٰ ماؤُهُ عذبًا غيرَ مَعْكُورٍ[1]؛ فكذلِكَ القُلوبُ الكبيرةُ تَحْتَمِلُ ما يَعْرِضُ لها مِنْ نَقَائِصِ الناسِ وأَخْطائِهِمْ، ولَنْ تَتَعَكَّر مِنْ جِهَتِهِمْ. وسَيُعْفِي الدُّعَاةُ -يومَ ينمُو الخيرُ في قلوبِهِمْ- أَنْفُسَهُمْ مِنْ مَشَقَّةِ البَحْثِ عَنْ أَخْطاءِ النَّاسِ، وتَعَقُّبِها، وَكَشْفِها ونَشْرِها، ولَنْ تَضِيقَ صدُورُهم كَذَلِكَ. ولَنْ تحملَ قُلُوبُهُمُ الأحقادَ علَىٰ النَّاسِ إِذَا أَعْفَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عَنَاءِ البَحْثِ عَنِ الأَخْطاءِ والزَّلاتِ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَبحَثُوا عَنِ الشَّرِّ ويَسْتَقْصُوهُ؛ لَنْ يَجِدُوهُ، وإِذَا رَأَوْا مِنْه مَا رَأَوْا دُوْنَمَا اسْتِقْصاءٍ، يُداوُوْنَهُ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَدْوِيَةِ الإِحْسانِ والإِشْفَاقِ علَىٰ الخَلْقِ، والنُّصْحِ الصَّادِقِ لهُمْ، ولَقَدْ حَذَّرَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ تَعَقُّبِ أَخْطاءِ النَّاسِ، والتَّفْتيشِ عَنْها أَيَّمَا تَحْذيرٍ؛ فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ؛ يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ؛ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ»[2].

* فَالذِينَ لَمْ تَكْتَمِلْ معانِي الإحسانِ ومَحَبَّةِ الخيرِ فِي قلوبِهِمْ، وذُوُو العُيُوبِ هُمُ الذينَ يُحْصُونَ علَىٰ الناسِ أخطاءَهُمْ، ويَتَشَكَّكُونَ مِنْ كُلِّ بَادِرَةٍ مِنْهُمْ، ويَحْمِلُونَها علَىٰ أَسْوَأِ المَحَامِلِ، ويَتَخَوَّفُونَ مِنْهُمْ، ويَحْقِدونَ عليهم لِزَلَّةٍ حَصَلَتْ مِنْهُمْ أَوْ هَفْوَةٍ؛ كما قَالَ الشَّاعِرُ:

---

(1) مَعْكُورٍ: من العَكَرَ: وهو ما يكون في الشراب من التربة والرواسب، والعكر: ضد الصفاء، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 618.

(2) رواه أبو داود، بَابٌ فِي الْغِيبَةِ: 4/ 270، وصَحَّحَهُ الألباني.

وأجْرأُ مَنْ رأيْتُ بِظَهْرِ غَيْبٍ *** علَىٰ عَيْبِ الرِّجَالِ أَخُو العُيوبِ[1]

أَمَّا مَنْ كَمُلَتْ فِي نفوسِهِمْ معانِي الإحسانِ وحُبِّ الخيرِ للخَلْقِ؛ فإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا فِي صُدُورِهِمْ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ. تَمَامًا كَالطَّبِيبِ الحَاذِقِ الرَّحِيمِ، يُزِيلُ الأَوْساخَ والصَّدِيدَ والدِّماءَ، ويُطَهِّرُ الجُرُوحَ، ويُطَبِّبُ الآلَامَ؛ ولا يَضِيقُ بِصُراخِ المرضَىٰ فِي وَجْهِهِ، وَرُبَّما يَسْمَعُ سُبابَ الصِّغارِ لَهُ؛ فَلَا يُقابِلُ ذلكَ إِلَّا بالابْتِسامَةِ المشرقة، واليَدِ الحَانِيَةِ العَطُوفِ. وهكذا كَانَ حالُ رسول الله ﷺ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللهم اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[2]. فَهُوَ يُؤْذَىٰ أَشَدَّ الإيذاءِ، وليسَ لِمَنْ آذاهُ عِنْدَهُ إِلَّا الإحسانُ والدُّعاءُ.

الرَّاحَةُ والسَّعَادَةُ فِي الحُبِّ والإِحْسانِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**كَمْ[3] نَمْنَحُ أَنْفُسَنَا مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ والرَّاحَةِ والسَّعَادَةِ؛ حينَ نَمْنَحُ الآخَرينَ عَطْفَنَا وحُبَّنَا وثِقَتَنَا، يَوْمَ تَنْمُو فِي نُفُوسِنَا بِذْرَةُ الحُبِّ والعَطْفِ والخَيْرِ؟!**».

---

(1) بهجة المجالس وأنس المجالس، للقرطبي: 1/ 87. ويروىٰ: (أَخُو العُيوبِ)، بدل: (أَخُو العُيوبِ)، انظر: الذخائر والعبقريات، للبرقوقي: 2/ 191.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب حديث الغار: 4/ 175، ومسلم، باب غزوة أحد: 3/ 1417.

(3) (كم) هذه، يقال لها: (كم) الخبرية، فهي تخبر عن الكثرة، والمراد: كثيرًا ما نمنح أنفسنا الطُّمَأْنِينَةَ والرَّاحَةَ والسَّعَادَةَ.

* سَيَكْسِبُ الدُّعاةُ الرَّاحَةَ، وسَيَجْنُونَ الطُّمَأْنِينَةَ، وسَيَحْصُدونَ السَّعادَةَ؛ ثِمَارًا طَيِّبَةً زَكِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ ونُفُوسِهِمْ وأَرْواحِهِمْ يَوْمَ تَكْتَمِلُ فِي نُفُوسِهِمْ هَذِهِ المَعَانِي، ويومَ يعيشُونَ بِهَا ولَهَا، يومَ يُحِبُّونَ الخيرَ للنَّاسِ، ويَسْعَوْنَ فِي تَحْصيلِهِ، وإيصالِهِ لهُمْ دُونَما مُقَابِلٍ؛ وحينَ يَكْرَهُونَ الشَّرَّ للناسِ، ويَجْتَهِدُونَ فِي صَرْفِهِ عنهُمْ بِكُلِّ سبيلٍ، دُونَ أنْ يصيبَهُمْ مِنْه أَدْنَىٰ ضَرَرٍ.. يومَ يُشفِقُونَ عليهِمْ، ولا تَضيقُ صدورُهُمْ بأخطائِهِمْ، فَلا يَحْقِدُونَ عليهِمْ، ولا يَكْرَهُونَهُمْ، وسَيَعيشُونَ طَرَفًا مِنْ حياةِ الجَنَّةِ، وهُمْ -بَعْدُ- علَىٰ الأَرْضِ؛ فإنَّ اللهَ تعالَىٰ أخبَرَ عنْ أهلِ الجَنَّةِ بقولِهِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[1]. قال شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً، مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا؛ لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ، أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ»[2].

(1) الحِجْر: 47.

(2) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 1/ 452.

القاعدةُ السَّادِسَةُ

الاسْتِعَانَةُ بالآخَرِينَ؛ كَمَالٌ لا نَقْصٌ

قالَ سيِّدُ قطبٍ -رحمَهُ اللهُ تعالىٰ-: «حِينَ نَعْتَزِلُ الناسَ؛ لِأَنَّنَا نُحِسُّ أَنَّنَا أَطْهَرُ مِنْهُمْ رُوحًا، أَوْ أَطْيَبُ مِنْهُمْ قَلْبًا، أَوْ أَرْحَبُ مِنْهُمْ نَفْسًا، أَوْ أَذْكَىٰ مِنْهُمْ عَقْلًا؛ لَا نَكُونُ قَدْ صَنَعْنَا شَيْئًا كَبِيرًا.. لَقَدِ اخْتَرْنا لِأَنْفُسِنَا أَيْسَرَ السُّبُلِ، وأَقَلَّها مَئُونَةً!».

* جديرٌ بالدُّعاةِ المُصْلحينَ منْ حَمَلَةِ الأفكارِ الخَيِّرَةِ ألَّا يَعْتَزِلُوا النَّاسَ، وألا يَنْأَوْا عَنْهُمْ، فإنْ همُ اعْتَزَلُوهم، فَمَنْ إِذَنْ لَهُمْ إلا شياطينُ الإنسِ والجِنِّ يَسْتَزِلُّونَهُمْ وَيَؤُزُّونَهُمْ[1]؟ وإنْ هُمْ لَمْ يَعْرِضُوا أَفْكارَهُمْ علَىٰ النَّاسِ؛ فَسَيَجِدُ الناسُ مَنْ يَعْرِضُ عليهِمْ مِنَ الأَفْكارِ الفاسِدَةِ المُلَوَّثَةِ الكثيرَ، وسَيُقْبِلُونَ عَلَيْها؛ إذْ لَمْ يَجِدُوا الأَفْكارَ الطَيِّبَةَ النَّبيلَةَ. وإنْ لمْ يَتَكَلَّفِ الدُّعاةُ عناءَ الدَّعْوَةِ والمُجَاهَدَةِ فِيهَا؛ فَقَدْ اختارُوا لِأَنْفُسِهِمْ طريقَ الرَّاحَةِ، وتَجَنَّبُوا المَشَقَّةَ والعناءَ؛ وسَتَبْقَىٰ أفكارُهُمْ مَقْبورَةً فِي قُلُوبِهِمْ وصدورِهِمْ، ولَنْ يُكْتَبَ لَهَا الحياةُ، حتَّىٰ إِذَا مَاتُوا؛ مَاتَتْ أفكارُهُمْ، وكانَتْ قلوبُهُمْ قُبُورًا لها.

---

(1) الْأَزُّ: الْهَزُّ وَالِاسْتِفْزَازُ الْبَاطِنِيُّ، مَأْخُوذٌ مِنْ أَزِيزِ الْقِدْرِ إِذَا اشْتَدَّ غَلَيَانُهَا، انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: 16/ 165.

* وَيُبَيِّنُ سَيِّدٌ هنا أسبابَ اعتزالِ بعضِ أصحابِ الأفكارِ للنَّاسِ، وهُوَ أنَّ بعضَ أصحابِ الأفكارِ يَظُنُّ بِنَفْسِهِ الخيرَ، ويظُنُّ بالناسِ الشَّرَّ، يُعْجَبُ بنفسِهِ، ويَزْدَرِي[1] غيرَهُ، ويرَاهُ دُونَهُ فِي المَنْزِلَةِ، وأصحابُ هذِه الحالِ علَىٰ خَطَرٍ عظيمٍ، والدعوةُ مِنْهُمْ علَىٰ خَطَرٍ عظيمٍ كذلِكَ.

* أمَّا الخَطَرُ الذِي يُهَدِّدُهُم، فَهُوَ أنَّ هذهِ الحالَ حالُ أصحابِ العُجْبِ والكِبْرِ مِنَ الناسِ، الذِي إِذَا عمِلَ خَيْرًا أَعْجَبَتْهُ نفسُهُ، وازْدَرَىٰ غَيْرَه، واسْتَقَلَّ خَيْرَهُ، ودفَعَهُ ذلكَ العُجْبُ إِلَىٰ التَّكَبُّرِ علىٰ الخَلْقِ؛ إِذِ الكِبْرُ وليدُ العُجْبِ؛ وهَذَا الخُلُقُ مَرَضٌ مِنْ أمراضِ القلوبِ خطيرٌ؛ إِذِ العُجْبُ قرينُ الرِّياءِ، فالعُجْبُ ورؤيةُ النَّفْسِ إشراكٌ للنَّفْسِ فِي العَمَلِ مَعَ اللهِ تعالَىٰ. والرياءُ، ومُراءاةُ الخَلْقِ: إشراكٌ للخَلْقِ في العملِ معَ اللهِ تعالَىٰ؛ وكلاهُما مُحْبِطٌ للعملِ، مُمْحِقٌ لِبَرَكَتِهِ، وصاحبُهُ مَمْقُوتٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أشدَّ المَقْتِ؛ ولْيُعْلَمْ أنَّ العُجْبَ كبيرةٌ مِنْ كبائرِ الذُّنوبِ التِي لا يَغْفِرُها إلا الله تعالَىٰ، إذا تابَ صاحبُها مِنْهُ تَوْبَةً مُسْتَقِلَّةً، وَعَمَلَ بِضِدِّهِ مِنَ الإِخْلاصِ، قالَ ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيُّ: «الْكَبِيرَةُ الرَّابِعَةُ: الْعُجْبُ»[2]، وقالَ ابنُ القَيِّمِ: «وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ جَهْلَهُ بِنَفْسِهِ، وَصِفَاتِهَا، وَآفَاتِهَا، وَعُيُوبِ عَمَلِهِ، وَجَهْلَهُ بِرَبِّهِ، وَحُقُوقِهِ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ بِهِ، يَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا رِضَاهُ بِطَاعَتِهِ، وَإِحْسَانُ ظَنِّهِ بِهَا، وَيَتَوَلَّدُ مِنْ

---

(1) يَزْدَرِي: يحتقر، ويستخفُّ، ازدرىٰ خصمَه: حقَّره واستخفَّ به، نظر الحاضرون إلىٰ المتّهم بازدراء: باحتقار، وازدرته عيني: احتقرَته، والازدراء أقسىٰ أنواع التأنيب، انظر: معجم اللغة العربية، لأحمد عمر: 2/ 983. وفي الشعر:

تَرَىٰ الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزْدَريهِ *** وفي أَثْوابِهِ أَسَدٌ جَسُورُ

(2) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي: 1/ 112.

ذَلِكَ مِنَ الْعَجَبِ وَالْكِبْرِ وَالْآفَاتِ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ وَنَحْوِهَا»[1].

فالذَّنْبُ الذِي وَقَعَ فِيهِ الدَّاعِيَةُ المُعْجَبُ بنفسِهِ أَعْظَمُ مِنْ ذُنُوبِ مَنْ اسْتَخَفَّ بِهِمْ وازْدَرَاهُم، واستقلَّ شَأْنَهُمْ، واعْتَزَلَهُمْ لأَجْلِه. وللْخلاصِ مِنْ داءِ العُجْبِ يُرْجَعُ إلىٰ كُتُبِ السُّلُوكِ، ويُنْظَرُ فِي آفَةِ العُجْب، وأسبابِها، وَسُبُلِ الخلاصِ مِنْهَا.

* وأَمَّا الخَطَرُ الذِي يُصيبُ الدعوةَ الإسلاميةَ، أَنّ أمثالَ هذا الصِّنْفِ سَبَبٌ فِي انْفِضاضِ الناسِ عنِ الدَّعْوةِ، ونُفُورِهِمْ مِنْها. وكَمْ مِنْ مُقْبِلٍ علَىٰ الدعوةِ؛ قَدْ قَطَعَ عليهِ أمثالُ هؤلاءِ -مِمَّنْ يَنْتسبُ للدُّعَاةِ- طَرِيقَهُ إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ؟! وكانُوا سَبَبًا فِي رُجُوعِهِمْ وانْزِوائِهِمْ وتَرْكِهِمُ الدَّعْوَةَ بالكُلِّيَّةِ، قالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي وَصْفِهِمْ: «فَهُمْ فِي الصُّورَةِ أَدِلَّاءُ، وَفِي الْحَقِيقَةِ قُطَّاعُ الطُّرُقِ، فَكُلَّما قَالَتْ أَقْوَالُهُمْ للنَّاسِ: هَلُمُّوا؛ قَالَتْ أفعالُهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ»[2]، ولا يزالُ العُجْبُ بِصاحِبِهُ حتَّىٰ يُجَرِّدَهُ مِنَ الفَضَائِلِ، ويُلْبِسَهُ ثيابَ الرَّذائِلِ، قالَ المَاوَرْدِيُّ: «فالْكِبْرُ وَالْإِعْجَابُ يَسْلُبَانِ الْفَضَائِلَ، وَيُكْسِبَانِ الرَّذَائِلَ، وَلَيْسَ لِمَنِ اسْتَوْلَيَا عَلَيْهِ إِصْغَاءٌ لِنُصْحٍ، وَلَا قَبُولٌ لِتَأْدِيبٍ»[3].

فالعُقْمُ والتَّآكُلُ الذِي يصيبُ الدَّعواتِ -فِي الأَغْلَبِ- هُوَ بِسَبَبِ هذا الصِّنْفِ مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ للدُّعاةِ؛ وهؤلاءِ ينْبَغِي أنْ يُنَبَّهُوا، ويُعالَجُوا، ولا يُتْركوا؛ فَإِنَّ كلَّ يومٍ مِنْ أَيَّامِهِمْ

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 1/ 192.

(2) الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 61.

(3) أدب الدنيا والدين، للماوردي: 1/ 236.

هوَ خُسرانٌ عظيمٌ للدَّعْوةِ، ويَنْبَغِي ألا يَتَقَلَّدَ أَمْثالُهُمْ مواقِعَ الصَّدارَةِ؛ حتَّىٰ لا يَكُونُوا حُجَّةً علَىٰ الدَّعْوَةِ، لا حُجَّةً لَهَا.

لا عَيْبَ فِي الاسْتِعانَةِ بالنَّاسِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «وعِنْدَمَا نَصِلُ إِلَىٰ مُسْتَوًىٰ مُعَيَّنٍ مِنَ القُدْرَةِ؛ نُحِسُّ أَنَّهُ لا يَعِيبُنَا أَنْ نَطْلُبَ مُساعَدَةَ الآخَرِينَ لَنَا، حَتَّىٰ أُولَئِكَ الذينَ هُمْ أَقَلُّ مِنَّا مَقْدِرَةً! وَلَا يَغُضُّ[1] مِنْ قِيمَتِنَا أَنْ تَكُونَ مَعُونَةُ الآخَرِينَ لَنَا قَدْ سَاعَدَتْنَا».

* الأقوياءُ مِنَ الدُّعاةِ، والكُمَّلُ مِنْ أَصْحابِ الأَفْكارِ هُمُ الذينَ لا يَجِدونَ حَرَجًا ولا غَضَاضَةً فِي الاسْتِعانَةِ بالآخرينَ، ولا يَجِدونَ عَيْبًا فِي أَنْ يعلمَ الناسُ بذلكَ، ولا يكونُ ذلكَ إِلَّا عَنْ ثِقَةٍ بالنَّفْسِ، وثِقَةٍ بالمَنْهَجِ والفكرةِ؛ حتَّىٰ لوْ كانَ المُستعانُ بِهِمْ أقلَّ عِلْمًا أوْ حِكْمَةً أوْ قُدْرَةً مِنَ الدُّعاةِ؛ فَلَعَلَّهُمْ يُحْسنونَ مِنَ الأمورِ مَا يَخْفَىٰ علَىٰ كِبارِ الدُّعاةِ، أَوْ مَا لَا يَتَيَسَّرُ لَهُمْ؛ ولعلَّ ازْدِحامَ أوقاتِ الدُّعاةِ بالأعباءِ تَجْعَلُهُم بحاجةٍ إِلَىٰ مَنْ يُعينُهُمْ، فَلَو قامَ الدُّعاةُ بِكُلِّ شيءٍ؛ فَسيعجزونَ، ولَنْ تَتَّسِعَ أوقاتُهُمْ، ورُبَّما كَلَّتْ قُواهُمْ، وفَتَرَتْ هِمَمُهُمْ؛ ولعلَّ اشْتِهَارَ الدُّعاةِ، وَوُضوحَ فِكْرِهِمْ يَحُولُ دُونَ تَسْهيلِ أُمُورِهِمْ ومُعامَلاتِهِمْ، لاسِيَّما مِنْ قِبَلِ الحُكُوماتِ الرَّسْمِيَّةِ المُعادِيَةِ للدُّعاةِ؛ فَهُمْ بِحاجَةٍ -إِذَنْ- إِلَىٰ غيرِ المُشْتَهرينَ مِنْ عمومِ النَّاسِ حتَّىٰ تَتَيَسَّرَ أمورُهُمْ. ولَقَدْ كانَ الرسولُ ﷺ قُدْوةً في ذلِكَ؛ يومَ استعانَ -وَهُوَ مُهاجِرٌ- بعَامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ، مَوْلَىٰ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فكان يَرْعَىٰ عَلَيْهِمَا الغنمَ، يَتَّبِعُ بِغَنَمِهِ أَثَرَ عَبْدِ

(1) يَغُضُّ: يُنْقِصُ ويُقَلِّلُ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 3/ 371.

اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ ذهابِهِ إِلَىٰ مَكَّةَ لِيُعْفِيَ[1] عليهِ، ويَذْهَبَ أَثَرُهُ. وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا ماهرًا بِالْهِدَايَةِ، ومَعْرِفَةِ الطُّرُقِ، وَهُوَ عَلَىٰ دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ[2].

* ولَقَدْ بَلَغَنَا أَنَّ مِنْ كِبَارِ المجاهدينَ مَنْ كانُوا يستعينونَ بِآحادِ النَّاسِ مِنْ غيرِ المُشْتَهرينَ بالتَّدَيُّنِ، مِنْ غيرِ المُنْتسبينِ لِأَفْكارِهِمْ؛ فكانَ لهُمْ عظيمُ الأَثَرِ فِي وقوعِ نكايَةٍ عظيمَةٍ بالأعْداءِ، ثمَّ إِنَّهُمْ بعدَ طُولِ عَهْدٍ، وحُسْنِ خَلِيقَةٍ رَأَوْها مِنَ المُجاهِدينَ؛ أَصْبَحُوا مِنَ المُنْتَسبينَ للعَمَلِ الإِسْلامِيِّ، بلْ معَ الزَّمَنِ صَارُوا مِنْ قادَةِ العَمَلِ الإِسْلامِيِّ.

* وفيمَا أَذْكُرُ أَنَّنَا كُنَّا فِي زيارَةٍ لِكُلِّيَّةٍ جامِعِيَّةٍ خاصَّةٍ بالطالباتِ فِي الضِّفَّةِ الغَرْبِيَّةِ مَطْلَعَ التِّسْعينيَّاتِ مِنَ القَرْنِ الفَائِتِ، فَرَأَيْنَا عَجَبًا.. رَأَيْنَا طالباتٍ مُتَبَرِّجاتٍ يَرْفَعْنَ لافتاتٍ إِسْلامِيَّةً، ويَعْتَلِينَ الجُدْرانَ ويُعَلِّقْنَها، وكانتِ المُنَافَسَةُ وَقْتَئِذٍ فِي الكُلِّيَّةِ مُحْتَدِمَةً علَىٰ مَجْلِسِ الطالباتِ؛ فَسَأَلْنَا عَنْ سَبَبِ رَفْعِ هؤلاءِ البناتِ لِلَافِتَاتِ الإِسلامِيَّةِ، وهَلْ هَكَذا هُنَّ الإِسلامِيَّاتُ عِنْدَكُنَّ مُتَبَرِّجَاتٌ؟ أَمْ عُدِمَتِ الإِسلامِيَّاتُ، ولَمْ تَجِدْنَ إِلَّا هؤلاءِ؟ فَأَجَبْنَا: لمَّا أَخَذْنَا نَعْتَلِي الجُدْرانَ لِتَعْلِيقِ اللَّافِتاتِ أَقْبَلَتْ علينَا هُؤلاءِ الطالباتُ، وعَرَضْنَ علينَا أَنْ يُسَاعِدْنَنَا ويَقُمْنَ هُنَّ بتعليقِها؛ خَشْيَةً علينَا مِنْ حَرَجِ التَّكَشُّفِ إذا قُمْنَا بصعودِ الأماكِنِ المُرْتَفِعَةِ؛ فَهُنَّ حَرِيصَاتٌ علَىٰ بقاءِ هَيْبَتِنا، وأَخْبرْنَنَا أَنَّهُنَّ يُحِبُّنَنَا، ويُدافِعْنَ عنَّا، ويَدْعَمْنَنَا فِي مجلسِ الطالباتِ؛ فَسَعِدْنَا بِذَلك، وأَذِنَّا لهُنَّ بحملِ الرَّاياتِ ورَفْعِها، وتَعْلِيقِها؛ فوَجَدْنَا

---

(1) يُعْفِي: يُذْهِبُ بالأثر ويمحوه، ومنه: عفّتِ الرِّيحُ آثارَ الأقدام: أزالتها ومحتها، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 2/ 1523.

(2) انظر: صحيح البخاري: 5/ 58، والرحيق المختوم، للمباركفوري: 1/ 149.

مِنَ السعادَةِ حينَ سَمِعْنا ذلكَ الشَّيْءَ الكثيرَ، وعَلِمْنَا أنَّ الخيرَ فِي النَّاسِ كَثيرٌ، ولكَنَّهُ يكون مَسْتورًا أحيانًا، تَسْتُرُهُ بعضُ المَعاصِي الظَّاهِرَةِ، والفَلَتَاتِ العَابِرَةِ.

الاسْتِعانَةُ بالآخَرينَ دليلُ ثِقَةٍ وكَمالٍ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «وحينَ نُحاوِلُ أَنْ نَصْنَعَ كُلَّ شَيْءٍ بِأَنْفُسِنَا، ونَسْتَنْكِفُ[1] أَنْ نَطْلُبَ عَوْنَ الآخَرينَ لَنَا، أَوْ أَنْ نَضُمَّ جُهْدَهُمْ إِلَىٰ جُهُودِنَا، كَمَا نَسْتَشْعِرُ الغَضَاضَةَ[2] فِي أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ أَنَّهُ كانَ لِذَلِكَ العَوْنِ أَثَرٌ فِي صُعُودِنَا إِلَىٰ القِمَّةِ.. إِنَّنا نَصْنَعُ هَذَا كُلَّهُ حِينَ لَا تَكُونُ ثِقَتُنَا بِأَنْفُسِنَا كَبيرةً؛ أَيْ عِنْدَمَا نَكُونُ بِالفِعْلِ ضُعَفَاءَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي.. أَمَّا حينَ نكونُ أَقْوياءَ حَقًّا؛ فَلَنْ نَسْتَشْعِرَ مِنْ هَذَا كُلِّهُ شَيْئًا..».

* وعلَىٰ العَكْسِ مِنَ الصنْفِ السابقِ مِنَ الدُّعاةِ الأقوياءِ الذينَ لا يَجِدُونَ حَرَجًا فِي الاسْتِعانَةِ بالآخَرِينِ؛ يَقِفُ صِنْفٌ آخَرُ مِنَ الدُّعاةِ، وهُمُ الذينَ يَتَحَرَّجونَ مَنْ مُساعَدَةِ النَّاسِ لَهُمْ، أَوْ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ أَنْ يستعينُوا بِغَيْرِهِم مِنَ الناسِ، ويَرَوْنَ أَنَّ الاستعانَةَ بغيرِهِمْ مَنْقَصَةٌ ومَثْلَبَةٌ، فَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يعلمَ الناسُ أَنَّ أحدًا كانَ عونًا لَهُمْ فِي أعمالِهِمْ، وسببًا فِي نَجاحِها وإِنْجازِها وإِتْمامِها؛ وهَذَا كُلُّهُ ناتِجٌ عَنْ ضَعْفِ هؤلاءِ الدُّعاةِ: إِمَّا لِضَعْفِهِمْ فيمَا يُوْكَلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مَهَامٍّ، فإِذا عُلِمَ أَنَّ غيرَهُمْ قَدْ أَنْجَزَ لَهُمُ الأعمالَ بِمَا يَفُوقُ قُدُراتِهِمْ؛ أَخَذَهُمُ الحَرَجُ والاسْتِحْياءُ. وإِمَّا لِتَكَبُّرِهِمْ علَىٰ الناسِ؛ فيَرَىٰ نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْ أَنْ يستعينَ بِغَيْرِهِ، فماذَا يقولُ

(1) نَسْتَنْكِفَ: نمتنع عن قبول عونهم تكبرًا وتعاظمًا، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 24/ 439.

(2) الغَضَاضَةَ: المنقصة، انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري: 3/ 1095.

النَّاسُ لَوْ عَلِمُوا بذلك؟ وإمَّا لِحَذَرِهِ الزَّائِدِ، وخوفِهِ مِن اطِّلاعِ الناسِ علَىٰ بعضِ أسرارِ العَمَلِ الدَّعَوِيِّ، وإمَّا لِجَهْلِهِمْ بِفِقْهِ العملِ الإِسْلامِيِّ، وأَنَّ فِي ساحَةِ العَمَلِ مَساحَةً تَسْتَوْعِبُ كلَّ صَاحِبِ يَدٍ بَنَّاءَةٍ أَمينَةٍ، إِلَىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ الأَسْبابِ، وكُلُّ ذلكَ ضَعْفٌ وعَجْزٌ يَنْبغِي أَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ حَمَلَةُ الأَفْكارِ مِنَ الدُّعاةِ العاملينَ؛ إِذْ فِي الاستِعانَةِ بالآخرينَ مِنَ الفوائِدِ الكثيرُ: مِنْها -إِضَافَةً إِلَىٰ مَا سَبَقَ- أنّ الاستعانَةَ بالآخرينَ مِنَ الأُمَناءِ الصادقينَ وإِشْراكَهُمْ فِي أعمالِ الدَّعوةِ خيرُ وَسِيلَةٍ لكسبِهِمْ، وكَسْبِ عوائِلِهِمْ ومَعارِفِهِمْ ومُحِبِّيهِمْ إِلَىٰ صفِّ الدعاةِ، وانْحيازِهِمْ إليهم بِأَيْسَرِ السُّبُلِ، وأَقَلِّ التَّكالِيفِ؛ فإذا وَجَدَ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ قَرِيبًا مِنَ الدُّعاةِ، وتَعَرَّفَ عليهِمْ، واسْتمعَ لِأَفْكارِهِمْ، وَرَأَىٰ مِنْ صِدْقِهِمْ، وَوَفائِهِمْ، وإِحْسانِهِمْ مَا كانَ يَسْمَعُ خِلافَهُ عَنْهُمْ، وَوَجَدَ نَفْسَهُ عامِلًا مَعَهُمْ وَوَاحِدًا مِنْهُمْ؛ فَلَنْ يَتَرَدَّدَ فِي أَنْ يُعْلِنَ انْتِسابَهُ لِرَكْبِهِمُ الطَّاهِرِ، وإِكْمالِ المَسيرِ مَعَهُمْ؛ والتَّجارِبُ شاهِدَةٌ علَىٰ ذلِكَ، فكثيرٌ مِنْ كبارِ الدُّعاةِ كانَتْ هَكَذا بِدَايَتُهُمْ، اسْتعانَ بِهِمُ الدُّعاةُ أَوَّلَ الأَمْرِ، فَرَأَوْا مِنْ دِيانَتِهِمْ وأَخْلاقِهِمْ مَا أَقْنَعَهُمْ بِهِمْ وبِأَفْكارِهِمْ؛ ثمَّ لَمْ تَزَلْ بِهِمُ الأَيَّامُ واللَّيالِي حَتَّىٰ رَفَعَهُمُ اللهُ تعالَىٰ، وَكَانَ منهُمْ مِنَ الخيرِ والفَضْلِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ القُدَمَاءِ المُعَمِّرِينَ؛ مِنْ هؤلاءِ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعودٍ رضي الله عنه، استعانَ به النَّبِيُّ ﷺ، فلمَّا رَأَىٰ مِنْهُ ما رَأَىٰ؛ أَسْلَم، ولَمْ يَزَلْ بِهِ الإسلامُ حتَّىٰ أَضْحَىٰ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم وَعُظَمَائِهِمْ؛ فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا يَافِعًا[1] أَرْعَىٰ غَنَمًا لِعُقْبَةَ ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، وَقَدْ فَرَّا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَا: «يَا غُلَامُ، هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنٍ تَسْقِينَا؟، قُلْتُ: إِنِّي مُؤْتَمَنٌ، وَلَسْتُ

(1) اليافِعُ: مَنْ شَارَفَ الِاحْتِلَام، وَهُوَ دون الْمُرَاهق، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 1065.

سَاقِيَكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ[1] لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ[2]؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَأَتَيْتُهُمَا بِهَا، فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ الضَّرْعَ، وَدَعَا، فَحَفَلَ[3] الضَّرْعُ، ثُمَّ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ، فَاحْتَلَبَ فِيهَا، فَشَرِبَ، وَشَرِبَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ شَرِبْتُ، ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: اقْلِصْ[4] فَقَلَصَ، فَأَتَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: «إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ»، قَالَ: فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً، لَا يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ»[5].

ومِنْ ذلِكَ إِسْلامُ أُمِّ مَعْبَدٍ وزوجِها، وغيرُهُمْ كثيرٌ؛ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ عَمِلَ مَعَ الدُّعَاةِ، فَرَأَىٰ مِنْهُمْ مَا كَانَ سَبَبًا فِي دُخُولِهِ وأَهلِهِ فِي الإِسْلَامِ؛ بلْ إِنَّ أُمَمًا كثيرةً دخلَتْ فِي الإسلامِ، كانَتْ تَرْبِطُهُمْ بالمسلمينَ علاقاتٌ تجاريَّةٌ؛ فلمَّا رَأَوْا مِنْ حُسْنِ دِيانَتِهِمْ وأَخْلاقِهِمْ؛ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الدُّخُولُ فِي الإسلامِ.

(1) الْجَذَعَة: مَا قوي من الْغنم، وَذَلِكَ قبل أَن يحول عَلَيْهِ الْحول، انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: 2/ 233.

(2) نزا: وثب، والفحل: الذكر الذي يستخدم للوقاع، والفحل: يدل علىٰ ذكارة وقوة، والمعنىٰ: لم يلقحها الذكر، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 4/ 478.

(3) حفل: امتلأ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 157.

(4) قَلصَ الشيء، يقْلِصُ قُلوصًا، أي: انضم إلىٰ أصله، انظر: معجم العين، للخليل: 5/ 62.

(5) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: 7/ 416، وحسَّنه شعيب الأرنؤوط.

أُمْنِيَّةٌ: مَنْ يُسْعِدُها؟!

* وإِنَّهُ إِذَا كانَ علَىٰ الدُّعاةِ ألَّا يَجِدُوا حَرَجًا فِي الاستعانَةِ بعُمُومِ النَّاسِ مِنْ غيرِ حَمَلَةِ الفِكْرِ الإِسْلامِيِّ؛ فَمِنْ بابٍ أَوْلَىٰ أنْ يستعينَ الإِسْلاميونَ بِبَعْضِهِمْ أَفْرادًا وجماعاتٍ، حتَّىٰ لَوْ كانَ بينَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الاختلافِ فِي مَنْهجياتِ العملِ وآلياتِهِ وَوَسائِلِه؛ ويَنْبَغِي ألَّا يُؤَثِّرَ الاخْتلافُ فِي المناهِجِ والوسائِلِ علَىٰ العلاقَةِ والتعاوُنِ الحَمِيدِ بينَ الإِسلامِيينَ، ويَنْبَغِي أنْ يكونَ اخْتلافُهُمْ تَكامُليًّا لا تَناقُضِيًّا: فيكونُ مِنْهُمْ مَنْ يَمْتَهِنُ الدَّعْوَةَ والتبليغَ، ومنهُمْ مَنْ يَتَفَرَّغُ لِلْعِلْمِ: تَعَلُّمًا وتَعْليمًا، ومنهُمْ مَنْ يتَخَصَّصُ فِي العَمَلِ الاجْتماعِيِّ، ومنهمْ مَنْ يَتَخَصَّصُ فِي العملِ الصِحِّيِّ، ومِنْهُمْ مَنْ يَتَفَرَّغُ للجِهَادِ ومُقارَعَةِ الأَعْداءِ، ويَتَصَدَّرُ للحُكَّامِ الظَّلَمَةِ، ويُنَافِسُ عَلَىٰ إِمَامَةِ الأُمَّةِ؛ فإِذا تكامَلَتْ جهودُهُمْ، واجْتَمَعُوا علَىٰ التَّعاوُنِ علَىٰ البِرِّ والتَّقْوَىٰ، وَكَمَّلَ كُلٌّ منهُمُ الآخَرَ؛ كانَ الخيرُ العَميمُ، والفَتْحُ العظيمُ علَىٰ الإِسلامِ والمسلمينَ.

والحَذَرَ مِنْ لَمْزِ الإِسْلاميينَ لإِخْوانِهِمْ مِنْ أصحابِ الفِكْرِ الإِسْلامِيِّ، والتَّنْقيصِ مِنْهُمْ، واسْتِقْصاءِ عُيوبِهِمْ وزَلَّاتِهِمْ وإِعْلانِها فِي النَّاسِ، ونَشْرِها فِي الفَضَاءِ، والفَرَحِ إِذَا أَصابَهُمْ ضُرٌّ، والحُزْنِ إذا حَصَلَ لَهُمْ فَتْحٌ وتَوْفيقٌ فِي عَمَلٍ مَا؛ فَيَشْمَتُ بِهِمْ خُصومُ الإِسْلامِ المُتَرَبِّصونَ.

والحَذَرَ مِنْ أنْ يَتَسَقَّطَ الدُّعاةُ أخطاءَ بعضٍ، فَيَقْرَأَ أَحَدُهُمْ كتاباتِ الدُّعاةِ المُخالفينَ لَهُ فِي المَنْهَجِ؛ مُتَمنيًا أَنْ يَجِدَ فيها عَثْرَةً، يَنْتَقِصُ مِنْهُ بِهَا، ويُسْقِطُ مِنْ هَيْبَتِهِ عِنْدَ الأتباعِ والخصومِ، فإِنَّ سُقوطَ هيبةِ أهلِ الدِّينِ؛ تنقيصٌ لهيبةِ الدينِ فِي عيونِ النَّاسِ. وإِنَّ مَنْ يقرأُ للمخالفينَ بِنِيَّةِ تَصَيُّدِ الأَخْطاءِ؛ فَسَيَحْمِلُهُ هَذَا علَىٰ حَمْلِ أقوالِ المخالفينَ علَىٰ أسوَأِ

المَحامِلِ، وَسَيُسيءُ الظَّنَّ بِهِمْ، وإِذَا وَجدَ خطأً -وكلُّ ابْنِ آدمَ خَطَّاءٌ- كَبَّرَهُ وعَظَّمَهُ؛ أَمَّا إِنْ هُوَ قَرَأَ بِنِيَّةٍ صادِقَةٍ، وقلبٍ واسِعٍ، وصدْرٍ مُنْشَرِحٍ، ورُوحٍ مِنَ الإِنْصافِ، وحُبٍّ لظهورِ الخيرِ علَىٰ أَيدِي الناسِ؛ فحينها سَيَحْمِلُ أقوالَ مُخالِفيهِ وأفعالَهِمْ واجْتِهاداتِهِمْ علىٰ أَحْسَنِ المَحَامِلِ؛ وَسَيُحْسِنُ الظَّنَّ بهم، وسَيُوَجِّهُ كلامَ مخالِفِيهِ وأفعالَهِمْ واجْتِهادَاتِهِمْ أَحْسَنَ تَوْجِيهٍ.

فَلَسْتَ بِرَاءٍ عَيْبَ ذِي الـوُدِّ كُـلَّه *** وَلَا بَعْــضَ مَا فِــيهِ إِذَا كُنْتَ رَاضِيا

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ[1] *** ولَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا[2]

بَلْ يَجْدُرُ أَنْ يسترَ بعضُهُمْ علَىٰ بعضٍ، وأَنْ يَتَناصَحُوا فِي السِّرِّ لَا العَلَنِ، وأَنْ يَتَواصَوْا بالحَقِّ وأنْ يَتَواصَوْا بالصبر، ويَحْمِيَ بعضُهُمْ ظَهورَ بعضٍ؛ فالكَمالُ ليسَ إِلَّا للهِ تعالىٰ وحدَهُ، ومَا مِنْ قَوْمٍ إِلَّا وفِيهِمْ مِنَ النَّقْصِ مَا فيهِمْ، وهَذا النَّقْصُ ناشِئٌ عَنْ طبيعةِ النَّقْصِ البَشَرِيِّ؛ فإِذَا مَا تَكامَلَ الإِسلاميونَ وتَعاونُوا، وجَمَعَهُمْ هَمُّ الإِسلامِ الواحِدِ؛ فساعَتَها يَكونُ الكمالُ والرَّشادُ.

* وإِذا اختارَ فريقٌ مِنْهُمْ مُهادَنَةَ السُّلطانِ في مرحلةٍ مِنْ مراحِلِ العَمَلِ؛ فَلَا تَكُنْ مُهادَنَةُ السُّلطانِ علَىٰ حسابِ علاقَتِهِمْ بِإِخْوانِهِمُ الإسلامِيِّينَ؛ فَيَأْخُذُوا فِي التَّنْقيصِ والتَّشْهيرِ بِإخوانِهِمُ الإسلامِيِّينَ مُمَالَأَةً واسْتمالَةً للسُّلْطانِ الظَّالِمِ؛ فَيَتَجَرَّأُ السُّلْطانُ عليهِمْ، لِمَا

---

(1) كَليلَةٌ: ضعيفة الإِبْصارِ، وبَصَرٌ كَليلٌ، إذا لم يُحَقِّقُ المَنْظورَ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 4/ 198.

(2) الأبيات لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة: 3/ 87.

يَسْمَعُ مِنْ جُرْأَةِ إِخْوانِهِمُ الإسلاميِّينَ عليهِمْ؛ فيكونوا سَبَبًا فِي وَبَالٍ كبيرٍ علَىٰ إخوانِهِمُ العاملينَ للإسلامِ.

* ولقَدْ نجحَ أعداءُ الإسلامِ مُنْذُ سقوطِ الخِلافَةِ فِي إشاعَةِ الفُرْقَةِ والتَّنازُعِ والخِلافِ بينَ العاملينَ للإسلامِ، حتَّىٰ بِتْنا نَجِدُ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنَ الإسلاميِّينَ العَناوينَ الكثيرةَ، وكُلُّهُمْ يَدَّعِي أنَّ الصوابَ حِكْرٌ عَلَيهِ، ليسَ مَعَ غيرِهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وأنَّهُ يصيبُ ولا يُخْطِئُ، وأنَّ غيرَهُ يُخْطِئُ ولا يُصيبُ، وأنَّ الخِلافَ بينَهُمْ أكبرُ مِنْ أَنْ يُجْبَرَ؛ بَلْ إنَّ بعضَهُمْ اتَّخَذَ مِنَ النُّصوصِ الشَّرْعِيَّةِ والعَقيدَةِ الإِسْلاميَّةِ سَيْفًا شَهِيرًا علَىٰ إِخْوانِهِ الإسلاميينَ، وجَعلَها آلَةً يُفَسِّقُ بِهَا إِخْوانَهُ العاملينَ للإسلامِ بالجُمْلَةِ، ويُبَدِّعُهُمْ، ويُدْخِلُهُمْ فِي زُمْرَةِ الهالِكينَ. ولا تَجِدُ مِنْهُ فِي ذَاتِ الوَقْتِ كَلِمَةً فِي خُصُومِ الإسلامِ، والمُجاهِرينَ بالحَرْبِ علَىٰ اللهِ تعالَىٰ، وعلَىٰ دينِهِ، وعلَىٰ كُلِّ مَا هُوَ إِسْلَامِيٌّ؛ فهلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ عَجَبٍ؟!

فالحَذَرَ.. الحَذَرَ؛ إِذِ الأُمَّةُ بحاجَةٍ إلىٰ اجتماعِ جهودِ أبنائِها كافَّةً، وتَكامُلِها، وإِغْماضِ العينِ عَنْ أخطائِها وزَلَّاتِها، ويَنْبَغِي أنْ يَتَداعَىٰ الإسلاميُّونَ لِحِلْفٍ أَوِ ائْتِلافٍ، يَجْمَعُهُمْ ويُكامِلُ جُهودَهُمْ، يَحْمِي بَمُوجَبِهِ بَعْضُهُمْ ظُهُورَ بَعْضٍ، ويُكَمِّلُ بعضُهُمْ دَوْرَ بعضٍ، ويُمْسِكُ بعضُهُمْ عنْ بَعضٍ. وأنْ يَتَناصَحُوا فِي السِّرِّ لا العَلَنِ، وأَنْ يُؤَجِّلُوا خَلَافاتِهِمْ حتَّىٰ يُظْهِرَ اللهُ تعالَىٰ دِينَهُ؛ ويَوْمَهَا الأَمْرُ للهِ يَضَعُهُ حيثُ يَشَاءُ.

* وهذا لا يَعْنِي أنْ يَتَخَلَّىٰ كُلٌّ عَنْ قَناعاتِهِ الخاصَّةِ ومَنْهَجِيَّاتِهِ فِي العَمَلِ، وأَنْ يَذُوبَ فِي الآخرينَ، لَا إِنَّما المطلوبُ فَقَطْ أَنْ يَتوافَقَ الجميعُ علَىٰ مَا يُمْكِنُ أنْ يَتوافَقُوا ويَجْتَمِعُوا عليْهِ: مِنْ إصلاحِ المُجْتَمَعِ، وُصُولًا إِلَىٰ إصلاحِ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ؛ وأنْ يُتْرَكَ لِكُلِّ خُصوصِيَّاتُهُ فِي الوسائِلِ والمَنَاهِجِ؛ وأنْ يَتَناسَىٰ بَعْضُهُمْ أخطاءَ بَعْضٍ؛ وساعَتَها سَيكونُ

للمسلمينَ المجتمعينَ شَوْكَةٌ وغَلَبَةٌ ومَنَعَةٌ، ولَنْ يَغْلِبَهُمْ أَحَدٌ، وسَيعودُ عِزُّ الإسلامِ، وقُوَّتُهُ وَهَيْبَتُهُ وسُلْطَانُهُ، ولَنْ يكونَ بَين المسلمينَ وبَيْنَ عودَةِ الخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ الوَسَطِيَّةِ إِلَّا عَشِيَّةٌ أَوْ ضُحَاهَا.

* وإنَّ أَهْلَ الكِتَابَيْنِ لَيْسُوا بِأَوْلَىٰ مِنَّا فِي الوِحْدَةِ والتَّرَفُّعِ عَنِ الخِلافَاتِ؛ فَلَقَدْ دامَ الخِلافُ بينَ أَهْلِ الكِتَابينِ فِي أكبرِ قَضَيَّةٍ عَقَدِيَّةٍ عِنْدَهُمْ؛ وهِيَ الخِلافُ علَىٰ دَمِ المسيحِ عليه السلام بِزَعْمِهِمْ زُورًا وبُهتانًا؛ فَكانَتْ بينَهُمْ ثَارَاتٌ دَامَتْ قُرابَةَ الأَلْفِي سَنَةٍ؛ ثُمَّ إِنَّهُمْ فِي مواجهَةِ الإسلامِ اصْطَلَحُوا علَىٰ حَرْبِ المُسْلمينَ، وإسقاطِ خِلافَتِهِمْ، وتَمْزيقِ وَحْدَتِهِمْ؛ واتَّفَقُوا علَىٰ تَأْجيلِ البَحْثِ فِي دَمِ المسيحِ عليه السلام؛ فإذا كانَ هَذَا شَأْنَ مَنْ كانَ الخلافُ بينَهُمْ فِي أكبرِ قَضِيَّةٍ عَرَفَتْهَا دِياناتُهُمْ ومُعتَقَدَاتُهُمْ؛ أَلَيْسَ الأَوْلَىٰ بالعاملينَ للإسلامِ، وخِلافَاتُهُمْ فِي فُرُوعِ المَسائِلِ والآلياتِ والمَنَاهِجِ، وَمَا يجمعُهُمْ أَكْثَرُ بكثيرٍ مِمَّا يُفَرِّقُهُمْ؟ أليسَ الأَوْلَىٰ بهِمْ أنْ يَجْتَمعُوا، ويَتَآلَفُوا، ويَتَعالَوْا عَلَىٰ خِلافَاتِهِمْ، التِي لَا تُذْكَرُ إذا ما قِيْسَتْ بخلافَاتِ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ؟!

* فَمَتَىٰ يَتَداعَىٰ أهلُ الرَّأْيِ مِنَ الدُّعاةِ والمُصْلحينَ والمُفَكِّرينَ والعلماءِ لإحياءِ فِقْهِ الوِفَاقِ[1]؛ لِتقريبِ مَواقِفِ العَامِلينَ للإسلامِ فِي أقطارِ الأرضِ، وحَشْدِ صفوفِهِمْ تحتَ

(1) ولقد وقعت علىٰ مقالة جليلة القدر بعنوان: (فقه الوفاق، متىٰ نُحْييه؟!)، للشيخ الدكتور الكاتب: عبد العزيز بن مصطفىٰ كامل، يَسْطُرُ فيها الكاتب تصورًا حَسَنًا لفقه الوفاق؛ لجمع كلمة العاملين لنصرة الدين، والحقّ إنها دراسة جديرة بالاهتمام، لا سيما من أهل الرأي من الدعاة والمصلحين والمفكرين والعلماء الإسلاميين؛ وأَخْذِها علىٰ محمل الجدّ؛ إذ فيها من الخير -علىٰ قلة سطورها- ما ليس في طويل الكتب، وكبير الأسفار.

رايَةٍ واحِدَةٍ؛ لِمواجهَةِ الحَرْبِ المَحْمومَةِ[1] المُسْتَعِرَةِ، التِي يَقْدَحُ زِنَادَها[2] أَئِمَّةُ الضَّلالِ والفجورِ مِنْ أعداءِ الإسلامِ علَىٰ اختلافِ مَنابِتِهِمْ، ويَتولَّىٰ تَأْجيجَ أُوارِها[3] عُمَّالُهم وَوُكلاؤُهُمْ فِي بلادِ الإسلامِ والمسلمينَ؟ فلا يُعقَلُ أنْ يواجَهَ الباطلُ المجتمِعُ بالحقِّ مُتَفَرِّقًا، ولا يُمْكِنُ -والحالَةُ هذِهِ- أنْ تكونَ الغَلَبَةُ للحقِّ، هَكَذَا سُنَّةُ اللهِ تعالَىٰ جَرَتْ.

* ومَتَىٰ تَجْتَمِعُ كَلِمَةُ الدُّعاةِ والمُصْلحينَ والمُفَكِّرينَ والعلماءِ الإسلاميينِ لمعالجَةِ واحدٍ مِنْ أهمِّ أسبابِ خُذلانِ المُسْلمينَ وهزيمتِهِمْ منذُ أكثرَ مِنْ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَنِ، وداءٍ مِنْ أَدْهَىٰ الأدواءِ التِي وَضَعَ أعداءُ الأُمَّةِ فَيروسَهَا الفَتَّاكَ فِي جسدِ الأمَّةِ العظيمِ، وتركُوها تَنْخُرَ جسدَ الأُمَّةِ المنيعَ منذُ عقودٍ مُتطاوِلَةٍ؟ ومَا سَبَبُ سقوطِ الخلافَةِ الأَوَّلِ-رَابِطَةِ وِثاقِ الأُمَّةِ- إِلَّا هُوَ.

* ولا يَخْفَىٰ أَنَّ إنفاذَ هذهِ الخُطَّةِ ليسَ بالأمرِ الهَيِّنِ المَيْسورِ، فِي ظِلِّ واقِعِ شَتاتِ العَمَلِ الإسلامِيِّ: عناصرَ، وقياداتٍ، ورُؤَىً، وأَفكارًا، وتَجَاذُباتٍ خَارِجِيَّةً وداخِلِيَّةً، ومَصَالِحَ خاصةً، وطُولِ هُجرانٍ رَافَقَهُ تَسْفيهٌ وتَحْقيرٌ، واخْتراقَاتٌ للإعداءِ، ورُبَّما صناعةُ الأعداءِ لبعضِ حالاتٍ تَسَمَّتْ بالإسْلامِ، وفِي الحقيقةِ هدفُهَا الوُقوفُ فِي وَجْهِ كُلِّ جُهْدٍ لتجميعِ الأُمَّةِ وَوَحْدَتِها؛ ومنها كذلِكَ فسادُ نفوسِ بعضِ المُتَنَفِّذينَ فِي ساحاتِ العَمَلِ الإسلامِيِّ، والذينَ يُشَكِّلونَ العائِقَ الأَكْبرَ فِي طَرِيقِ جُهودِ المُصْلحينَ المُجَدِّدينَ

---

(1) المحموم: من الحميم: وهو الحار، وكل شَيْء سخنته فقد حممته تحميمًا. وَيُقَال: حممت التَّنور إذا سجرته، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 1/ 102.

(2) الزناد: العود الْأَعْلَىٰ الَّذِي تقدح بِهِ النَّار، انظر: المخصص، لابن سيده: 3/ 165.

(3) الأوار: حر الفرن من بعيد، انظر: معجم العين، للخليل: 8/ 306.

الخَيِّرِينَ، ...؛ كُلُّ هذهِ العوائِقِ وغيرُها يَجْعلُ مِنْ إمكانِيَّةِ نجاحِ هذِه الأفكارِ فِي غايَةِ الصعوبَةِ، ولكنْ حَسْبُنا فِي ذلِكَ اعتقادُنا أنَّ اللهَ تعالَىٰ إذا أرادَ أنْ يقضِيَ أَمْرًا؛ هيَّأَ لَهُ أسبابَ النَّجاحِ، وهُوَ-سُبْحانَهُ- مَن يُؤلِّفُ بينَ قلوبِ المُؤمنينَ، ثُمَّ عِلْمُنا أنَّ كُلَّ فِكْرةٍ نَجَحَتْ، كانَتْ بداياتُها أَفْكارًا صادِقَةً، وقَعَتْ فِي قلوبٍ صادِقَةٍ، ونفوسٍ عظيمةٍ، وهِمَمٍ عَلِيَّةٍ عالِيَةٍ، هَيَّأَها اللهُ تعالَىٰ؛ فكانَ العَجَبُ، وما خَبَرُ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ علَىٰ يَدَيّ مُحَمَّدٍ الفَاتِحِ، وتحريرِ القُدْسِ علَىٰ يَدَيّ صلاحِ الدِّينِ بعدَ توحيدِ صفوفِ المسلمينَ ببَعيدٍ.

* فهلَّا تَنَبَّهَ الإسلاميُّونَ لِهذَا، وتَدَاعَوْا لائْتِلافٍ جامِعٍ؛ يَتَعاهَدُونَ فيه علَىٰ تقديمِ مصلحَةِ أُمَّةِ الإسلامِ علَىٰ المصالِحِ الضَّيِّقَةِ؟! وهَلَّا تَنازَلُوا -ولَوْ قليلًا- عنْ حظوظِ نُفُوسِهِمُ التِي زَيَّنَها لَهُمُ الشيطانُ؛ حتَّىٰ رَأَوْهَا مَسائِلَ كُبْرَىٰ لا يُمْكِنُ التَّنازُلُ عَنْها؟! وهلْ أكبرُ مِنْ توحيدِ الأُمَّةِ وإعادَةِ خِلافَتِها شَيْءٌ؟ وهَلَّا حَمَلَ هذا الهَمَّ المصلحُونَ والعلماءُ الكِبارُ الذينَ يُريدونَ بِعِلْمِهِمْ وَجْهَ اللهِ تعالَىٰ؟! فَمَنْ فِي المسلمينَ يَحْمِلُ هَذَا اللِّواءَ؟!!!

سَائِلًا رَبًّا كريمًا بَرًّا رحيمًا أنْ يُهَيِّأَ لأمَّتنا مَنْ يَلُمُّ شَمْلَها، ويُوَحِّدُ كَلِمَتَها مِنَ المُصْلحينَ الصادقينَ، وأنْ يشرحَ صدورَ العلماءِ والدعاةِ والمصلحينِ والمفكرينَ مِنْ أُمَّتِنَا إِلَىٰ هذا الأمرِ العظيمِ.

مَثَلٌ بَدِيعٌ[1]

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّ الطِّفْلَ هُوَ الذِي يُحاول أَنْ يُبْعِدَ يَدَكَ التِي تُسْنِدُهُ وهُوَ يَتَكَفَّأُ[2] فِي المَسيرِ».

* هَذَا مَثَلٌ بديعٌ يسوقُهُ سيِّدُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- لِتَقريبِ الصُّورَةِ، فَهُوَ يُشَبِّهُ مَنْ يَرْفُضُ الاستعانَةَ بالآخرينَ ويَأْباها، بالطفلِ الذِي يُبْعِدُ اليَدَ التِي تَمْتَدُّ لِتُسْنِدَهُ خَوْفًا مِنْ سقوطِهِ وتَعَثُّرِهِ وهُوَ يَتَمايَلُ فِي أَوَّلِ مَمشاهُ، فَهُوَ لِجَهْلِهِ لا يُميِّزُ بينَ اليَدِ التِي تَمْتَدُّ لِتُساعِدَهُ، وبينَ اليَدِ التي تمتَدُ لِضَرْبِهِ وأَذِيَّتِهِ؛ وجَامِعُ الشَّبَهِ بينَ الطفلِ ومَنْ يَرْفُضُ الاستعانَةَ بالآخرينِ، أنَّ كِلَيْهِمَا يأْبَىٰ مَعُونَةَ الآخرينَ، وهُوَ أحوجُ ما يكونُ إليها، وأنَّ كِلَيْهِما جاهِلٌ بِما يَنْفَعُهُ ومَا يَضُرُّهُ، وأنَّ كِلَيْهِمَا يُبْعِدُ الخيرَ عَنْ نَفْسِهِ مِنْ حيثُ يُريدُ الخيرَ.

الفَرَحُ بِعَوْنِ الآخرينَ دَليلُ ثِقَةٍ وقُوَّةٍ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «عَنْدَمَا نَصِلُ إِلَىٰ مُسْتَوًىٰ مُعَيَّنٍ مِنَ القُدْرَةِ؛ سَنَسْتَقْبِلُ عَوْنَ الآخَرِينَ لَنَا بِرُوحِ الشُّكْرِ والفَرَحِ.. الشُّكْرِ لِمَا يُقَدَّمُ لَنَا مِنْ عَوْنٍ.. والفَرَحِ

---

(1) البديع: من الإبداع والاختراع علىٰ غير مثال، وبدع في الأمر أي أول لم يسبقه أحد، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 8/ 6.

(2) يَتَكَفَّأُ: بمعنىٰ يتمايل غير متماسك، وكَفَأْتُ الإناءَ كَفْأً، إذا قلبْتَهُ، وأكْفَأْتُ فِي مَسِيرِي إذا مَا جُرْتُ عَن القَصْدِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 10/ 210.

بِأَنَّ هُناكَ مَنْ يُؤْمِنُ بِمَا نُؤْمِنُ بِهِ نَحْنُ.. فَيُشَارِكُنَا الجَهْدَ[1] والتَّبِعَةَ[2].. إنَّ الفَرَحَ بِالتَّجَاوُبِ الشُّعُورِيِّ هُوَ الفَرَحُ المُقَدَّسُ[3] الطَلِيقُ!».

يُؤَكِّدُ سيِّدٌ ما بدأَهُ فِي هذهِ الفِقْرَةِ مِنْ أنَّ الأقوياءَ والكُمَّلَ هُمُ الذينَ لا يجدونَ حرجًا فِي الاستعانَةِ بالآخرينَ، بل إنَّهم يستشعرونَ رُوْحًا مِنَ الفَرَحِ الصَّافِي يَجْتاحُ كيانَهُمْ: قُلوبَهُمْ، ونُفُوسَهُمْ، وأرواحَهُمْ، وأبدانَهُمْ؛ عِنْدَما يجدونَ غيرَهُمْ يَمُدَّ يدَهُ لِمَعُونَتِهِمْ؛ فهذَا دليلٌ علَىٰ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَنَا، ويُحِبُّونَ أَفْكارَنَا، ويَتَمَنَّوْنَ مُشارَكَتَنَا، وَهُوَ مَدْعاةٌ إلىٰ الفَرَحِ والابْتِهاجِ، لَا التَّحَرُّجِ والاكْتِئَابِ. ومَنْ يَعِي هذِه المَعانِيَ يَجِدُ مِنَ الفَرَحِ لا يُشْبِهُهُ إلا فَرَحُ مَنْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ الثَّمِينَةَ النَّادِرَةَ التِي يَلْتَمِسُها فِي كُلِّ نَاحِيَّةٍ، ويَعِدُ عَلَىٰ وجدانِها أَجْزَلَ المكافآتِ!

---

(1) الجَهْدُ: المشقَّةُ، يقال: جَهَدَ دابته وأَجْهَدَها، إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها، وجَهَدَ الرجل في كذا، أي جَدَّ فيه وبالغ، والجُهْدُ بالضم الطاقةُ، انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري: 2/460.

(2) التَّبِعَةُ: التكليف، والعاقبة، ومَا يلْحَقُ مِنْهَا، انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي: 27/141.

(3) المُقَدَّسُ: المطهر، الصافي، المبارك، والتقديس: التطهير ومنه قول الله تعالىٰ حكاية عن قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [الْبَقَرَة: 30]، أَي: نُطَهِّرُ أَنْفُسنَا لَك، وَكَذَلِكَ نفعلُ بمنْ أطاعَكَ، نقدِّسهُ أَي: نطهِّرُهُ، وَمن هَذَا بَيت الْمُقَدّس أَي: البيتُ المطهر الَّذِي يُتَطَهَّرِ بِهِ مِن الذُّنوبِ. وَقَوله تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الْحَشْر: 23]، هُوَ من أَسمَاء الله الحسنىٰ بمعنىٰ: الطَّاهِر. وَجَاء فِي التَّفْسِير: أَنَّ القدوس المبارك، وَيُقَال: أرضٌ مقدسةٌ أَيْ مباركَةٌ، انظر: تهذيب اللغة للأزهري: 8/303.

احْتِكارُ الأَفْكارِ دليلُ سَطْحِيَّةٍ وضَعْفٍ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّنَا نُحاوِلُ أَنْ نَحْتَكِرَ[1] أَفْكارَنَا وعَقَائِدَنا، ونَغْضَبُ حينَ يَنْتَحِلُها[2] الآخَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، ونَجْتَهِدُ فِي تَوْكِيدِ نِسْبَتِها إِلَيْنَا، وعُدْوانِ الآخَرِينَ عَلَيْها! إِنَّنَا إِنَّمَا نَصْنَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ؛ حِينَ لا يَكُونُ إِيمانُنَا بِهذِهِ الأَفْكارِ والعَقَائِدِ كَبِيرًا، حِينَ لا تَكُونُ مُنْبَثِقَةً[3] مِنْ أَعْماقِنَا، كَمَا لَوْ كَانَتْ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مِنَّا، حِينَ لا تَكُونُ هِيَ ذَاتُها أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ ذَوَاتِنَا!».

خَليقٌ بالدُّعاةِ، وحَمَلَةِ الأَفْكارِ السَّامِيَةِ النَّبيلَةِ ألَّا يَحْتكِرُوا أفكارَهُمْ، ويكتُمُوها، ويُخْفُوها عَنِ الناسِ، ويَغْضَبُوا ساعةَ يَجِدُونَ فِي النَّاسِ مَنْ يَحْمِلُ مِنَ الأَفْكَارِ مِثْلَمَا يَحْمِلُونَ، ويدعونَ إِلَىٰ مِثْلِ ما يدعونَ إليهِ؛ كما يصنعُ التُّجارُ فِي الأسواقِ، الذينَ يحتكِرُونَ بَضائِعَهمْ، ويُخْفونَها عنِ الناسِ، ويَحْرصونَ ألَّا تكونَ البضائعُ الغَالِيَةُ النَّادِرَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وحدَهمْ. ولَقَدْ قرَّرَ الإسلامُ أنَّ الاحْتِكارَ خَطِيئَةٌ؛ وفِي الحَدِيثِ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ

---

(1) الحَكْرُ: الحَبْسُ. والحُكْرَةُ: حَبْسُ الطعام مُنْتَظِرًا لِغَلائِهِ، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 2/ 92، والمراد هنا: عدم نشر الأفكار، واعتناق الناس لها.

(2) يَنْتَحِلُها: ينسبها لنفسه، وهي لغيره، كمن يَتَمَلَّكُهَا، ومنه: نُحِلَ الشاعرُ قَصيدةً: إذا نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وَهِي من قِبَلِ غيرِه، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 30/ 364، وأصل النَّحْلِ: الهِبَةُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّمْليكِ، قال تعالىٰ: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4].

(3) البثق: الاندفاع، والتدفق، ومنه: بثق المَاء بثوقًا، إذا انْدفع فَجْأَة، وانبثقت البئر: إذا امْتَلأت وفاض مَاؤُهَا، وَانبثقت الْعين: إذا أسْرع دمعها، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: 1/ 38.

احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ»[1]، فإذَا كانَ احْتِكارُ أَقْواتِ الناسِ التِي تَحْيَا بها أبدانُهُمْ خَطيئَةً؛ فَكيفَ باحتكارِ الأفْكارِ -أَعْنِي الأفكارَ الإسلامِيَّةَ المُسْتقيمةَ الوَسَطِيَّةَ الرَّشيدَةَ- التِي تَحْيَا بِهَا قُلوبُهُمْ، ونُفُوسُهُمْ، وأَرْواحُهُمْ؟! ومعلومٌ أنَّ حياةَ القلبِ والنَّفْسِ والرُّوحِ أَكْملُ مِنْ حياةِ البَدَنِ، وأنَّ مرضَ البدنِ يُؤْجَرُ العَبْدُ عليهِ؛ إذا صبرَ واحْتَسَبَ، أمَّا مَرَضُ القَلْبِ، فَيَهْلِكُ بِهُ العَبْدُ أَيَّمَا هَلَاكٍ، وأَنَّ مَيِّتَ القلبِ هُوَ المَيِّتُ علَىٰ الحَقيقَةِ، وأنَّ موتَ البَدَنِ يُفْضِي بالعبدِ الصالحِ إِلَىٰ رِحابِ الجِنَانِ؛ أمَّا موتُ القَلْبِ؛ فَإِنَّهُ يُفْضِي إلىٰ سعيرِ النِّيرانِ؛ وبِهذَا يَتَبَيَّنُ أنَّ كِتْمانَ الأَفْكارِ واحْتِكارَهَا خَطِيئَةٌ هِيَ أَكْبَرُ بكثيرٍ مِنَ احْتِكارِ البَضَائِعِ مِنَ الأَقْواتِ الضَّرُورِيَّةِ وَقْتَ حَاجَةِ الناسِ إِلَيْهَا.

* وحينَ يصنَعُ أصحابُ الدَّعواتِ ذلكَ: حينَ يَغْضَبُونَ إِذَا وَجَدُوا مَنْ يحمِلُ أفكارَهُمْ، ويَدْعُو إِلَيْهَا، ويُوَفِّقُهُ اللهُ تعالَىٰ إِلَيْهَا؛ إِنَّمَا يصنعونَ ذلِكَ لِنَقْصِ معانِي الخيرِ فِي نفوسِهِمْ، ولِغِيابِ فَهْمِ مَعْنَىٰ الفِكْرَةِ التِي يَحْملونَ، ولِضَعْفِ الإيمانِ بها وبالعقَائِدِ التِي يعتقدونَ؛ حين تُسَيْطِرُ الأَنَانِيَّةُ والأَثَرَةُ[2] البَغيضَةُ علَىٰ نُفوسِهِمْ؛ حينَهَا يَجْهَرُونَ بِنِسْبَةِ هذهِ الأفكارِ لهمْ دونَ غيرِهِمْ، وأنَّ غيرَهُمْ ليسوا مِنْ أهلِهَا، أَوْ أَنَّهُمْ إِنَّما استفادُوهَا منهُمْ، ونَسَبُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ سَرِقَةً وانْتِحَالًا.

* أَمَّا حينَ يُحِبُّ الدعاةُ أَفْكارَهُمْ وعقائدَهُمْ، حينَ تكونَ قَدْ أُشْرِبَتْ قُلوبَهُمْ، وخَالَطَتْ لحْمَهُمْ ودِمَاءَهُمْ؛ حِينَ تكونُ أحبَّ إليهمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ حِينَها سَيُحِبُّونَ أنْ يَعْتَنِقَها الآخرُونَ، ويدعوا إليها؛ ولا يَضِيرُ إِلَىٰ مَنْ تَنْسَبُ وَقْتَئِذٍ؛ طَالَمَا وجدَتْ لَهَا مَكَانًا

---

(1) رواه مسلم، باب تَحْرِيمِ الاِحْتِكَارِ فِي الأَقْوَاتِ: 3/ 1227.

(2) الأثرة: من الاستئثار: وهو الانفراد بالشيء، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 8.

فِي نفوسِ النَّاسِ وقلوبِهِمْ وعقولِهِمْ وحياتِهِمْ؛ تَمَامًا كصاحِبِ الصَّدَقَةِ التِي أَخْرَجَها مِنْ خَالِصِ مالِهِ؛ كُلُّ هَمِّهِ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ مُحْتاجٍ بَئِيسٍ؛ يَغْتَنِي بِهَا ويَسْعَدُ؛ فَإِذَا كانَ ذلِكَ، وَوَجَدْ أَنَّ صدَقَتَهُ كَانَتْ سَبَبًا فِي غِنَىٰ فقيرٍ، حَتَّىٰ لَوْ أَصْبَحَ أَغْنَىٰ مِنْهُ، وأَكْثَرَ أَمْوالًا؛ فَإِنَّهُ سَيَجِدُ مِنَ الفَرَحِ مَا لَا يُتَصَوَّرُ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ وما يملِكُ فِي صَحِيفَتِهِ يومَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ.

* أَوْ هُوَ كَأَبٍ عالِمٍ حكيمٍ، قَدْ أخذَ مِنْهُ أبناؤُهُ كُلَّ عُلُومِهِ، وزادُوا عليهَا مِمَّا تَعَلَّموهُ مِنْ غيرِ أَبيهِمْ، مِمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمُهُ، وعَلَّمُوهَا النَّاسَ، ونَسَبَها الناسُ لِلْأَبْناءِ لَا لِلْأَبِ؛ فَلَنْ يَجِدَ الأبُ إِلَّا الفَرَحَ والسُّرورَ؛ لِأَنَّه يَرَىٰ نَفْسَهُ قدْ تَكَرَّرَتْ فِي أبنائِهِ، وأنَّ عِلْمَهُ سَيُكْتَبُ لهُ البَقَاءُ. وهَكَذا هُمْ حَمَلَةُ الأفكارِ العُقلاءُ؛ هُمْ آباءٌ لِكُلِّ مَنْ يَحْمِلُ أفكارَهُمْ، ويَعْتَقِدُ عقيدَتَهُمْ، فَلا يَضيرُهُمْ إِلَىٰ مَنْ تُنْسَبُ حِينَئِذٍ؛ طَالَمَا كُتِبَ لها الحياةُ، وطَالَمَا أَنَّ اللهَ تعالَىٰ يعلمُ بِها، وأَنَّه لَا يَضيعُ عندَ اللهِ تعالَىٰ شَيْءٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

* ويُشْبِهُ هؤلاءِ الذينَ يحتكرونَ أفكارَهُمْ ومعتقداتِهِمْ بعضُ الكُتَّابِ مِنْ أهلِ العِلْمِ والفِكْرِ الذين ذاعَ صيتُهُمْ فِي الآفاقِ؛ فَهُمْ يَحْجِرُونَ علَىٰ إِصْدارَاتِهِمْ، ويمنعونَ نَشْرَها إِلَّا بِإِذْنٍ خَطِّيٍّ مِنْهُمْ، ويُصَدِّرُونَ كُتُبَهُمْ وإِصْدارَاتِهِمْ بقائِمَةٍ مِنَ المَمْنوعاتِ والتَّحْذيراتِ: فيُمْنَعُ الطِّباعةُ، ويُمْنَعُ النَّشْرُ، ويُمْنَعُ التَّصْويرُ؛ إِلَّا بإِذْنٍ خَطِّيٍّ مِنَ الكاتِبِ أوِ النَّاشِرِ، وبَعْضُهُمْ يُصَدِّرُ إصداراتِهِ بِقَسَمٍ غليظٍ علَىٰ مَنْ يَقْرَأُ كُتُبَهُمْ بالالْتِزامِ بذلِكَ، وبَعْضُهُمْ ينْشُرُ دِعايَةً لِكِتاباتِهِ علَىٰ المَواقِعِ، وصُورَةً للغِلَافِ، ولا يُسْمَحُ بِفَتْحِ الكتابِ إِلَّا بعدَ دَفْعِ مبلغٍ مِنَ المَالِ، أوْ شراءِ النُّسْخَةِ الأَصْلِيَّةِ مِنَ المَكْتباتِ ودُوْرِ النَّشْرِ؛ وكُلُّ هَمِّهِمْ مِنْ ذلِكَ جَرُّ رِبْحٍ مَادِيٍّ، فتكُونُ الحساباتُ المَادِيَّةُ مُقَدَّمَةً علَىٰ الحساباتِ الدَّعويَّةِ والفِكْرِيَّةِ، ورِبْحُ

(1) التوبة: 120.

الأَمْوالِ مُقَدَّمًا علَىٰ رِبْحِ القلوبِ والنُّفوسِ والعقولِ، فَتكونُ حِسْبَتُهُمْ: لُوْ فُرِضَ رِبْحُ جِنيهٍ واحِدٍ أَوْ ر يالٍ واحِدٍ أَوْ شيكلٍ واحِدٍ علَىٰ كُلِّ كِتَابٍ، وبيعَ مِنَ الكتابِ مِلْيونُ نُسْخَةٍ؛ فهَذا يَعْنِي كَسْبَ مليونٍ مِنَ الأموالِ، وعلَىٰ ذلِكَ يَبْنُونَ صَفقَاتِهِمْ مَعَ دُورِ النَّشْرِ، وبَعْضُهُمْ يمنعُ تَحْميلَ محاضَراتِهِ الصَّوْتِيَّةِ والمَرْئِيَّةِ إِلَّا بعدَ دَفْعِ مبلَغٍ مُقابِلَ ذلِكَ، فَلَوْ تواصَلْتَ مَعَ أَحَدِهِمْ؛ فإِنَّهُ يُحِيلُكَ إِلَىٰ مُحاسِبِهِ الخاصِّ للتَّفاهُمِ علَىٰ المبلَغِ المطلوبِ، وبعضُهُمْ مِنْ أساتذةِ الجامعاتِ، يُلْزِمُ الطُّلابَ بِنُسْخَةِ كتابِهِ الشَّخْصِيَّةِ مُقَرَّرًا للمَادَّةِ الدِّراسِيَّةِ، فَلا يَسْمَحُ بِكِتابٍ آخَرَ، ويَتَعَمَّدُ فِي امتحاناتِهِ أسئِلَةً ليسَتْ إِلَّا فِي كتابِهِ، ويَتَعَمَّدُ كُلَّ فترةٍ مِنَ الزَّمَنِ تَغْييرًا مَا فِي كتابِه إِمَّا بزيادَةٍ أَوْ تغييرٍ؛ حتَّىٰ يُلْجِئَ الطلابَ إِلَىٰ شِرَاءِ كِتَابِهِ الجديدِ؛ ولا يَسْتَعيرونَ أو يَتَواهَبُونَ الكتابَ مِنَ الأجيالِ السابِقَةِ، وحتَّىٰ يَبْقَىٰ الكتابُ مَبيعًا، والرِّبْحُ المادِيُّ جَارِيًا؛ وكُلُّ هَذَا والنَّاسُ ينظرونَ باسْتِهْجانٍ لِذلِكَ، كيفَ لأهْلِ العِلْمِ أنْ يبْلُغَ بِهِمُ الاحتيالُ علَىٰ جَمْعِ المالِ بِهَذِهِ الحِيَلِ؟! وكيفَ بِمَنْ ينتصبُ مُعَلِّمًا للناسِ يهبِطُ بِهِ حُبُّ المالِ إِلَىٰ أنْ يُقَدِّمَهُ علَىٰ أَفْكارِهِ ونَظَرِيَّاتِه؟! وكيفَ يكونُ فَرَحُهُ بالمالِ أكبرَ مِنْ فَرَحِهِ بأفْكَارِهِ؟!

* ونحنُ هُنَا لا نعيبُ أنْ ينتَفِعَ الكُتَّابُ وأصحابُ الفِكْرِ بِكِتاباتِهِمْ نَفْعًا ماديًّا، يُعينُهُمْ علَىٰ التَّفَرُّغِ للعِلْمِ والدَّعْوَةِ، ويَكْفيهِمْ تكاليفَ العَمَلِ الدَّعَوِيِّ. ولَسْنَا نُجَرِّئُ النَّاسَ علَىٰ سَرِقَةِ الجُهُودِ العِلْمِيَّةِ؛ لَسْنَا نَدْعُو إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذلِكَ. وإِنَّما نَدْعُو إِلَىٰ أَلَّا يكونَ جَمْعُ المالِ هُوَ أَكْبَرَ الهَمِّ؛ فَلا يُسْمَحُ لدورِ النَّشْرِ مَثَلًا أَنْ تَطْبَعَ الكتابَ إِلَّا بِإِذْنِ صاحبِهِ، أَمَّا آحَادُ النَّاسِ، وطُلَّابُ العِلْمِ؛ فَيُؤْذَنُ لَهُمْ بالتصويرِ والتَّداوُلِ والتَّصَرُّفِ بِحُرِّيَّةٍ مَضْبُوطَةٍ؛ ونُحَرِّجُ علَىٰ

طَلَبَةِ العِلْمِ أَنْ يَنْسِبُوا العِلْمَ لأهلِهِ، ويُوَثِّقُوا مَعْلُوماتِهِم، ويَعْزُوها لأهلِهَا؛ إِلَىٰ غيرِ ذلِكَ منَ الضوابِطِ الأَدَبِيَّةِ التِي تَقْتَضِيها الأَمَانَةُ العِلْمِيَّةُ.

عِنْدَ الأَوَّلِينَ دَلِيلٌ وبُرْهانٌ

والنَّاظِرُ فِي سِيَرِ أَصْحابِ الدَّعواتِ مِنَ الأَوَّلِينَ؛ يَجِدُ فَرَحَهُمْ وسَعادَتَهُمْ بامْتِلاكِ الآخرينَ لأفكارِهِم واعْتِناقِها، وتَفَوُّقِهُمْ عليهِمْ، فَفِي قِصَّةِ غُلامِ أَصحابِ الأُخْدودِ؛ لمَّا أَخْبَرَ الغلامُ أُسْتاذَهُ الرَّاهِبَ -الذِي عَلَّمَهُ فِكْرَةَ الحَقِّ ودِينَ الحَقِّ- أَنَّ اللهَ تعالَىٰ أَجْرَىٰ لَهُ الكَرَامَةَ بِقَتْلِ الدَّابَّةِ التِي حَبَسَتِ النَّاسَ، وأَنَّ النَّاسَ قَدْ أَقْبَلُوا عليهِ، واتَّبَعوهُ، واتَّخَذُوهُ إِمَامًا؛ اشْتَدَّ فَرَحُ الرَّاهِبِ الغَائِبِ المَخْفِيِّ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وعِلْمِهِمْ، وَقالَ لِتِلْمِيذِهِ الغُلامِ: «أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ»[1]؛ ولَمْ يَأْخُذْهُ ما يَأْخُذُ مُحْتَكِرِي الدَّعواتِ اليومَ مِنْ حَسَدِ الأَقْرانِ والأَتْباعِ -إِذَا جَارَوْا أَئِمَّتَهُمْ، وَتَفَوَّقُوا عليهِمْ؛ وانْصَرَفَتْ وجوهُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ- والكيدِ والمَكْرِ بِهِمْ، وتَمَنِّي زَوالِهِمْ، والإِصْرارِ عَلَىٰ نِسْبَةِ الفَضْلِ لَهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ فِي نُبوغِ هَؤلاءِ الأَتْباعِ.

* والنَّاظِرُ فِي كُتُبِ أَكَابِرِ العُلَماءِ كذلِكَ؛ يَجِدُ كثيرًا مِنْ سَعَةِ صُدورِ العُلماءِ لِأَقْرانِهِمْ وطُلَّابِهِمْ، فَمَثَلًا النَّاظِرُ إِلَىٰ كِتابِ فَتْحِ البَارِي لابْنِ حَجَرٍ، وكِتابِ عُمْدَةِ القَارِي لِبَدْرِ الدِّينِ العَيْنِيِّ، وكِلَا الكِتَابَيْنِ جاءَ شَرْحًا لِصَحِيحِ البُخَارِيِّ؛ يَجِدُ أَنَّ كثيرًا مِنَ الشُّرُوحِ والنُّقُولِ

(1) رواه مسلم، بَابُ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ وَالسَّاحِرِ وَالرَّاهِبِ وَالْغُلَامِ: 4/ 2299.

تَكادُ تَكُونُ مُتَّفِقَةً فِي اللَّفْظِ والمَعْنَىٰ، ودونَ أَنْ يُشيرَ أَحَدُهُمَا عَمَّنْ أَخَذَ، وكَلاهما عاشَا زمانًا واحدًا، فَتُوفِيَ ابْنُ حَجَرٍ عام 852ه، وتوفِيَ بَدْرُ الدِّينِ العَيْنِيُّ، عام 855ه.

كما نَجِدُ ابْنَ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ يَنْقُلُ صفحاتٍ كثيرَةً فِي كِتَابِهِ: عُدَّةُ الصَّابِرينَ وذَخِيرَةُ الشَّاكِرينَ عَنِ الغَزَالِيِّ مِنْ كتابِهِ: إحياءُ علومِ الدِّينِ، بالنَّصِّ، ودُونَ تَصَرُّفٍ فِي أَحْيانٍ كثيرةٍ، دونَ أَنْ يُشيرَ إِشَارَةً واحِدَةً إِلَىٰ ذلِكَ، والأَمْثِلَةُ علىٰ ذلكَ كثيرةٌ. وطَالَما أَنَّ النَّفْعَ فِي المُحَصِّلَةِ عائِدٌ علَىٰ النَّاسِ؛ فَهَذا هُوَ الرِّبْحُ الحَقِيقِيُّ.

* وَعَىٰ هذا الرَّبَّانِيُّونَ المُخْلِصُونَ مِنَ العُلَماءِ؛ فَكَانَ فَرَحُهُمْ بِمَنْ يِأْخُذُ عَنْهُمْ، ويَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِمْ، أَكْثَرَ مِنْ فرحِهِمْ بِنِسْبَةِ العِلْمِ إِلَيْهِمْ؛ مِثالُ ذلكَ الإِمامُ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-، فَعَنْ حَرْمَلَةَ بنِ يَحْيَىٰ، قَالَ: سمعْتُ الشَّافِعِيَّ يقولُ: «وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ أَعْلَمُهُ تَعَلَّمَهُ النَّاسُ، أُوْجَرُ عَلَيْهِ، وَلا يَحْمَدُونِي»، وعنِ الرَّبيعِ، قالَ: «ذُكِرَ مَا وُضِعَ مِنْ كُتُبِ الشَّافِعِيِّ، فَقَالَ: لَوَدِدْتُ أَنَّ الخَلْقَ تَعَلَّمَهُ، ولَمْ يُنْسَبْ إِلَيَّ مِنهُ شيءٌ أبدًا»[1]، وقَال: قالَ الشَّافِعِيُّ أيضًا: «مَا نَاظَرْتُ أَحَدًا قَطُّ علَىٰ الغَلَبَةِ، وَوَدِدْتُ إِذَا ناظَرْتُ أَحَدًا أنْ يَظْهَرَ الحَقُّ علَىٰ يَدَيْهِ». وقالَ أيضًا: «ما كلَّمْتُ أحدًا قَطُّ إِلَّا أَحْبَبْتُ أنْ يُوفَّقَ ويُسَدَّدَ ويُعانَ، ويكونَ عليْهِ رِعايَةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ وحِفْظٌ»[2]. وقال -رَحِمَهُ اللهُ-: «مَا نَاظَرْتُ أحدًا قَطُّ؛ فَأَحْبَبْتُ أنْ يُخْطِئَ، وما كلَّمْتُ أحدًا قطُّ، وأَنَا أُبالِي أنْ يُبَيِّنَ اللهُ الحقَّ علَىٰ لِسانِي أوْ علَىٰ لِسانِهِ»[3]؛ هذا نَمُوذَجٌ لواحِدٍ من المُخْلِصينَ الصَّادِقينَ، وغيرُهُ مِنْهُمْ كثيرٌ.

---

(1) انظر: آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم: 1/ 68.

(2) بستان العارفين، للنووي: 1/ 30.

(3) إحياء علوم الدين للغزالي: 1/ 26.

قِصَّةُ الرَّاشِدِ رَشِيدَةٌ

* ولَكَمْ سَمِعْنَا وَرَأَيْنَا مِنَ الناسِ مَنِ اعتقدَ مَذْهَبَ رَجُلٍ مِنْ أهلِ العلمِ والفِكْرِ دونَ أنْ يراهُ أَو يسمعَ مِنْهُ، ومَا ذلكَ إِلَّا لأَنَّهُ قرأَ كتاباتِه، واقْتنعَ بأفكارِهِ، وتَرَبَّىٰ عليها، دونَ أنْ يَتكلَّفَ أصحابُ الفِكْرِ عناءَ دعوتِهِ وتبليغِهِ، ومِنْ ذلكَ مَا ذَكَرَهُ الراشِدُ فِي تقديمِهِ علَىٰ كتابِ (مُسافرٌ فِي قطارِ الدَّعْوَةِ)، لِعادِلِ الشّوَيخ[1]، يقولُ مُحَمَّدٌ أحمدُ الراشِدُ: «اسْتَبَدَ بالأخِ عادلِ الشويخِ الزَّهْدُ فِي الكلامِ وإلقاءِ الدروسِ قبلَ سنواتٍ، واشْتَكَىٰ مِنْ سلبيَّةٍ

---

(1) عادل عبد الله الشويخ: عالِمٍ عراقي في الفيزياء النووية، وخبير إشعاعي، درس في جامعة بغداد، وأتمَّ دراسته في جامعة أستون في برمنجهام -بريطانيا، وعاد منها إلىٰ المملكة العربية السعودية، ثمّ إلىٰ دولة الإمارات العربية المتحدة. ولد في المطيحة سنة 1946م، نال شهادة البكالوريوس في الدراسات الإسلامية بالمراسلة بدرجة امتياز، ثم توجّه إلىٰ بريطانيا عام 1975م، ونال الماجستير بأقلّ من سنة، وعنوان أطروحته: (الطرق الفيزياوية للتحليل)، أما الدكتوراه فكانت في مجال البصريات (أوبتكس)، وقد تم تسجيل اسمه ضمن المساهمين في اختراع المجهر الإلكتروني، وبعد ذلك حصل علىٰ شهادة الماجستير في الشريعة من المملكة العربية السعودية لدىٰ عودته من المملكة المتحدة؛ ليعمل كأستاذ جامعي في جامعة الملك سعود في الرياض. وتوفي في كردستان العراق ودفن في السليمانية عام 1993م، في أثناء قيامه بتغطية عسكرية لحساب مجلة القوات الجوية الإماراتية، سقطت السيارة التي كانت تقله مع عدد من الحراس في أحد الوديان في المناطق الكردية. تتلمذ علىٰ يدي محمد أحمد الراشد؛ ليصبح رفيقًا له في العمل الدعوي والتربوي، وشقيق روحه -كما وصفه؛ له كتاب في فقه الدعوة: (مسافر في قطار الدعوة) جدير بالمُذَاكَرَةِ والمُدارَسَةِ. كانت وفاته فاجعة للراشد، ولكل من عرفه. رثاه الراشد بمرثية أليمة في مقدمة كتاب: (مسافر في قطار الدعوة)، مرثية تقطر ألمًا.

السَّامعينَ، وعدَمِ مُجارَاتِهِمْ لَهُ مِنْ خلالِ الأسئلَةِ الواعِيَةِ التي تُحَرِّكُ -عادةً- لِمَزيدٍ مِنَ العطاءِ، حتَّىٰ ذَكَرَ لِي بِأَنَّهُ يَنْوِي التَّوَقُّفَ عَنِ الكِتابَةِ والكلامِ؛ فوجَدَ عندِي مِنْ هذا المعنَىٰ مَا هُوَ أَكْثَرُ، واسْتولَىٰ علينا التَّبَرُّمُ، وتَعاهدْنَا علَىٰ السكوتِ؛ فساقَ اللهُ تعالَىٰ إلينا شابًا يُخْرِجُنا مِنَ الخَطَأِ، إِذْ كُنْتُ أجلسُ مَعَ عادلٍ في مطارِ إسْتانبولَ، نَنْتَظِرُ الطائرةَ قافلينَ مِنْ دَوْرَةٍ، لَمْ نصادِفْ فيها مِنْ أسئلةِ الدُّعاةِ ما يُشَجِّعُ، وإِذْ نحنُ نَتَبَارَىٰ فِي التَّلَفُّظِ بمرادِفاتِ اليأسِ؛ إِذْ بشابٍ يقْبلُ علينا ثانيًا رُكْبَتَهُ، يَسْأَلُ: قالَ لي: أَأَنْتَ مُحَمَّدُ أَحْمَدُ الرَّاشِدُ؟ قَلْتُ: نَعَم، هَلِ الْتَقَيْنا سابقًا؟ قالَ: لَا، عَرَفْتُكَ مِنْ خلالِ رُؤْيَةِ فِيدْيُو كَلِمَتِكَ فِي مُؤْتمرِ هيوستن بأميركا. قلتُ: ومَنْ تكونُ؟ قالَ: اسْمي (خالدٌ المُوساوي)، وأنا جزائِرِيٌّ مِنْ أَهْلِ واحَةِ (وادِي سوف) علَىٰ بُعْدِ ألفِ كيلو مِتْرٍ مِنَ العاصمَةِ جَنُوبًا علَىٰ مشارِفِ الصحراءِ الأفريقيَّةِ الكُبْرَىٰ، قُرْبَ أَقْصَىٰ الحدودِ التُّونسيَّةِ، ونحنُ هناكَ نقرأُ لكَ، ونسمعُ أَشْرِطَتَكَ، ونَرَىٰ بعضَ دَرُوسِكَ مِنْ خلالِ الفِيديو، وأَنَا ذاهِبٌ إلىٰ الجهادِ فِي أفغانِسْتانَ؛ فَرَحَّبْنَا بِهِ، وأَبْدَىٰ سُرورَهُ لِهذا اللِّقاءِ علَىٰ غيرِ مَوْعِدٍ، وسأَلَنِي عنْ أمورٍ، وسأَلْتُهُ، ثُمَّ تَنَهَّدَ مُسْتَدْرِكًا. قالَ: لكنْ ما زالَ نِصْفُ حُلُمِي لمْ يَتَحقَّقْ؛ لمْ أَتَعَرَّفْ بعدُ إِلَىٰ عادلِ الشُّوَيِّخِ. قلتُ: فكيفَ بِكَ لَوْ عَرَّفْتُكَ بِهِ؟ قالَ: إِذًا يكونُ يومَ عيدِي؛ فَنَحْنُ نسمعُ دروسَهُ، ولَمْ نَرَ صُورَتَهُ عبرَ الفِيديو. وهُنَا تدخَّلَ عادلُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-؛ فَسَأَلَهُ عمَّا سَمِعَهُ مِنْ أشرِطَةِ دُروسِهِ دونَ أنْ يُعَرِّفَهُ بنفسِهِ؛ فَعَدَّدَ لَهُ عناوينَ دُروسٍ عديدةٍ، وأَتَىٰ بِمُخْتَصَرِ مَعانيها علَىٰ وَجْهِهَا. ثمَّ امْتَحَنَهُ مِرَارًا، يسأَلُهُ، والفَتَىٰ يأْتِي بالمعانِي علَىٰ وَجْهِهَا بإِتْقانٍ أَدْهَشَنَا. فَقُلْتُ لَهُ: إِذَنْ هذَا عادلُ الشُّوَيِّخُ أَمَامَكَ، وهُوَ الذِي يَمْتَحِنُكَ؛ فَطَارَ الفَتَىٰ فَرَحًا، وأَذْهَلَتْهُ المُفاجَأَةُ. وهَذِهِ الحادِثَةُ هَزَّتْ عَادِلًا، وجَعَلَتْهُ يُوقِنُ بِوجودِ مُبَلِّغينَ أَوْعَىٰ مِنْ سامعينَ؛ ومالَ إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِنَ

اليأسِ، وطَفِقَ يقولُ بعدَهَا: نَتَكَلَّمُ لأهلِ الواحَاتِ والغَابَاتِ؛ إنْ خَذَلَنَا أَهْلُ الحواضِرِ؛ فَكانَ مِنْ ثَمَّ إِكْثارُهُ فِي السنواتِ الأخيرةِ؛ رَحِمَهُ اللهُ»[1].

غَايَةُ فَرَحِ الدُّعاةِ بِرُؤْيَةِ مَنْ يَحْمِلُ أَفْكارَهُمْ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّ الفَرَحَ الصَّافِيَ هُوَ الثَّمَرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِأَنْ نَرَىٰ أَفْكَارَنَا وعَقَائِدَنا مِلْكًا لِلآخَرِينَ، ونَحْنُ بَعْدُ أَحْياءُ. إِنَّ مُجَرَّدَ تَصَوُّرِنَا لَها أَنَّها سَتُصْبِحُ - ولَوْ بَعْدَ مُفارَقَتِنَا لِوَجْهِ هَذِهِ الأَرْضِ- زَادًا لِلْآخَرِينَ وَرِيًّا؛ لَيَكْفِي لِأَنْ تَفيضَ قُلُوبُنَا بالرِّضَا والسَّعَادَةِ والاطْمِئْنانِ!».

* حَقيقٌ[2] بالدُّعاةِ والمُفَكِّرينَ أنْ يَبْتَهِجُوا ابتهاجًا عظيمًا، وأنْ يسعدُوا سعادةً كُبْرَىٰ إذا رَأَوْا في الناسِ مَنْ يَعْتَقِدُ عَقيدتَهُمْ، ويحمِلُ أفكارَهُمْ فِي حياتِهِمْ ويَدْعُو إِلَيْهَا؛ فَإِنَّ هَذا يُبَشِّرُ بِبَقَاءِ الفِكْرَةِ ونَمائِهَا بعدَ الموتِ؛ فَلْيَمُتِ الدُّعاةُ يومَها قَريرِي العُيونِ، مُطْمئِنِّينَ إِلَىٰ أنَّ فِي الناسِ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ سيُكْمِلُ المسيرَ، ويَحْمِلُ الرَّايَةَ.

* فإذا كانَ الشعراءُ المُنْشِدُونَ يفرحونَ إِذَا سَمِعوا مَنْ يُرِدِّدُ شِعْرَهُمْ وإِنْشادَهُمْ، وإذا كانَ مُصَمِّمُو الأزياءِ يفرحُونَ إذا رَأَوْا كَثْرَةَ الإقبالِ علَىٰ تَصْميماتِهِمْ، وإذا كانَ التُّجارُ يفرحونَ إذا وَجَدُوا بَضائِعَهُمْ رَائِجَةً فِي أيدِي النَّاسِ حيثُ ينزلونَ؛ مِنْ أَجْلِ حظوظِ نفوسِهِمْ، وامتلاءِ جُيوبِهِمْ؛ فالأَوْلَىٰ بأصحابِ الأفكارِ والدُّعاةِ أنْ يَفْرَحُوا مِنْ أَجْلِ دينِهِمْ وعقيدَتِهِمْ.

---

(1) انظر: مسافر في قطار الدعوة، لعادل الشويخ: 1/ 9، 10.

(2) حَقِيقٌ: جَدِيرٌ وخَلِيقٌ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 25/ 170.

مُقَارَنَةٌ ومُفَارَقَةٌ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «التُّجّارُ وَحْدَهُم هُمُ الذينَ يَحْرِصُونَ عَلَىٰ العَلَاقَاتِ التِّجارِيَّةِ لِبَضَائِعِهِمْ، كَيْ لَا يَسْتَغِلَّهَا الآخَرُونَ، ويَسْلِبُوهُمْ حَقَّهُمْ مِنَ الرِّبْحِ، أَمَّا المُفَكِّرُونَ وأَصْحابُ العَقَائِدِ، فَكُلُّ سَعَادَتِهِمْ فِي أَنْ يَتَقَاسَمَ النَّاسُ أَفْكارَهُمْ وعَقَائِدَهُمْ، ويُؤْمِنُوا بِهَا إِلَىٰ حَدِّ أَنْ يَنْسِبُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ، لَا إِلَىٰ أَصْحابِهَا الأَوَّلِينَ!».

* يَعْقِدُ سَيِّدٌ مُقارَنَةً بينَ التُّجَّارِ، وأصحابِ العقَائِدِ والأفكارِ: فَبَيْنَمَا يحرصُ التُّجارُ علَىٰ أنْ تكونَ علاقاتُهُمُ التجارِيَّةُ محدودَةً بِوُكَلاءَ حَصْرِيِّيْنَ حتَّىٰ يَضْمَنُوا ضَبْطَ أَرْباحِهِمْ، ويَتَحَكَّمُوا فِي الأَسْعارِ فِي السُّوقِ بِمَا يَضْمَنُ لهُمْ أكبرَ مَا يكونُ مِنْ عَائِدٍ رِبْحِيٍّ؛ نَجِدُ أَنَّ أَصْحابَ الأَفْكارِ والعقائِدِ الصادقينَ كُلُّ سعادَتِهِمْ، وَقُرَّةُ عُيُونِهِمْ يَوْمَ يرونَ أفكارَهُمْ يَتَنَاقَلُهَا الناسُ دُونَمَا اسْتِئْذانٍ، يومَ ينسِبُ كُلُّ واحِدٍ مِنَ النَّاسِ نَفْسَهُ لهذِهِ الأفكارِ، ويَنْسِبُها لِنَفْسِهِ، ويدافِعُ عنها كَأَنَّهُ صاحِبُهَا الأَوَّلُ، ولَا يَضُرُّ يومَهَا لِمَنْ تُنْسَبُ الأفكارُ؛ فَلَيْسَ المُهِمُّ عندَ الصادقينَ أنْ يَرَوْا أَنْفُسَهُمْ، وإنمَا المُهِمُّ أنْ يَرَوْا أَفْكارَهُمْ، وليسَ المُهِمُّ أنْ يُشارَ إِلَيْهِمْ، ويُنَوَّهَ بأسمائِهِمْ وأَوْصافِهِمْ؛ وإِنَّمَا المُهِمُّ أنْ يُشارَ إِلَىٰ مُعتقداتِهِمْ وأفكارِهِمْ؛ وليسَ المُهِمُّ أنْ يَعْظُمُوا هُمْ عِنْدَ الناسِ، وإِنَّمَا المُهِمُّ أنْ تَعْظُمَ العَقِيدَةُ والدينُ، وأَنْ يَعْظُمَ اللهُ تعالَىٰ وشَرْعُهُ فِي دُنْيا النَّاسِ وقُلُوبِهِمْ ونُفُوسِهِمْ!

الدُّعاةُ وُسطاءُ بينَ السَّابِقِ واللَّاحِقِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدونَ أَنَّهُمْ أَصْحابُ هذِهِ الأَفْكارِ والعَقَائِدِ، وإنَّمَا هُمْ مُجَرَّدُ وُسَطَاءَ فِي نَقْلِهَا وتَرْجَمَتِهَا.. إنَّهُمْ يُحِسُّونَ أَنَّ النَّبْعَ الذِي يَسْتَمِدُّونَ مِنْهُ لَيْسَ مِنْ خَلْقِهِمْ، ولَا مِنْ صُنْعِ أَيْدِيهِمْ. وكُلُّ فَرَحِهِمُ المُقَدَّسُ إنَّمَا هُوَ ثَمَرَةُ اطْمِئْنَانِهِمْ إِلَىٰ أَنَّهُمْ عَلَىٰ اتِّصالٍ بِهذَا النَّبْعِ الأَصِيلِ!».

* عِنْدَ الإنصافِ نَجِدُ أَنَّ الأَوَّلَ لَمْ يُبْقِ للآخرِ شَيْئًا، فالدُّعاةُ والكُتَّابُ وأهلُ العِلْمِ نَقَلَةٌ، يَحْمِلُونَ الفِكْرَ والعِلْمَ مِمَّنْ سَبَقَ، ويَنْقُلونَهُ لِمَنْ لَحِقَ؛ فلمْ يَصْنَعْ أحدُهُمْ إلا جُهْدَ النَّقْلِ والتَّرْتِيبِ والتَّصَرُّفِ فيمَا بَلَغَهُمْ مِنْ غيرِهِمْ، أَوْ فِيمَا وَفَّقَهُمُ اللهُ تعالَىٰ إِلَيْهِ مِنْ إضافَاتٍ أو تَجْديدٍ؛ فَهُمْ وُسطَاءُ بينَ مَنْ سَلَفَ وَمَنْ خَلَفَ، ونَقَلَةٌ مِمَّنْ سَبَقَ لِمَنْ لَحِقَ؛ ليسَ أكثرَ. إنَّ الأفكارَ التِي يحملونَ، وبِهَا يُبَشِّرونَ، والعقائِدَ التِي يَعْتقدونَ، وإِلَيْهَا يدعونَ ليسَتْ مِنْ صُنْعِهِمْ وإبداعِهِمْ علَىٰ الحَقِيقَةِ، وليسُوا هُمْ أصحابَهَا الأصليِّينَ، وإِنَّمَا هُمْ حَلْقَةٌ واصِلَةٌ بينَ جِيلٍ وجِيلٍ؛ ليسَ لَهُمْ فِيهِ فَضْلٌ، وإِنَّمَا الفَضْلُ للهِ تعالَىٰ وَحْدَهُ الذِي وَفَّقَ لِذَلِكَ؛ فالخيرُ كُلُّهُ مِنَ اللهِ تعالَىٰ، فَمِنَ اللهِ كُلُّ شَيْءٍ، ومَا مِنَ العبدِ شَيْءٌ.

فاللهُ تَعالَىٰ خَلَقَ الدُّعاةَ، واللهُ تَعالَىٰ هَدَاهُمْ، واللهُ تعالَىٰ وَفَّقَ وأَجْرَىٰ الخيرَ علَىٰ أيديهِمْ، واللهُ تعالَىٰ شَرَحَ صدورَ الناسِ لِقَبُولِ الدَّعوةِ، واعتناقِ الأفكارِ؛ واللهُ تَعالَىٰ -مِنْ كَرَمِهِ وفَضْلِهِ- نَسَبَهَا لِلْعبادِ، ويُثِيبُهُمْ عليهَا؛ فَمَاذَا يَبْقَىٰ للعبادِ بَعْدَ ذلِكَ؟!

العَظَمَةُ فِي السَّمَاحَةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّ العَظَمَةَ الحَقِيقِيَّةَ: أَنْ نُخَالِطَ هؤُلاءِ النَّاسَ، مُشْبَعِينَ بِرُوحِ السَّمَاحَةِ، والعَطْفِ عَلَىٰ ضَعْفِهِمْ ونَقْصِهِمْ وخَطَئِهِمْ، ورُوحِ الرَّغْبَةِ الحَقِيقِيَّةِ فِي تَطْهِيرِهِمْ وتَثْقِيفِهِمْ، وَرَفْعِهِمْ إِلَىٰ مُسْتَوانَا بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ!».

* الواجِبُ علَىٰ العُظَماءِ العُقلاءِ الحُكماءِ مِنَ الدُّعاةِ والمُفَكِّرينَ والعُلَمَاءِ النُّزُولُ إِلَىٰ النَّاسِ، ومُعاشَرَتُهُمْ ومُخَالطَتُهُمْ ومُعاملَتُهُمْ بِنِيَّةِ تَنْقِيَةِ نُفُوسِهِمْ، وتَطْهِيرِ قُلوبِهِمْ مِمَّا عَلَقَ بها مِنْ رواسِبِ الجاهِلِيَّةِ وعادَاتِها وتَقَالِيدِها التِي تَوارَثُوها عَنِ الآباءِ والأجدادِ الأَوَّلينَ، أَوِ اكْتسبُوَها مِنَ المَعارِفِ والأصدِقاءِ، أَوْ مَالَتْ إِلَيْها نُفُوسُهُمْ؛ مُجارَاةً لِهَوىٰ النَّفْسِ وحُظُوظِها؛ وَبِنِيَّةِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الخيرِ، وإِقْناعِهِمْ بِهِ، وتَنْمِيَةِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ خيرٍ -إِذْ فِي كُلِّ خيرٌ- والارتقاءِ بِهِمْ، وسِياسَتِهِمْ أَحْسَنَ سِياسَةٍ، ورِيَاضَتِهِمْ أفضلَ رِياضَةٍ؛ حَتَّىٰ يَبْلُغُوا مَا عليه الدعاةُ مِنْ خيرٍ وحِكْمَةٍ ورشادٍ؛ فَإِذَا فَعَلَ المُفَكِّرونَ والدُّعاةُ والعُلَماءُ ذلِكَ؛ كانَ لَهُمْ نصيبٌ مِنَ العَظَمَةِ بِحَسَبِ مَا لَهُمْ نصيبٌ مِنْ كَسْبِ النَّاسِ وتَرْقِيَتِهِمْ وتَعْلِيمِهِمْ.

التَّوازُنُ الحَكيمُ بينَ المُتَناقِضاتِ الدَّعَوِيَّةِ هُوَ العَظَمَةُ الحَقَّةُ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّهُ لَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنْ نَتَخَلَّىٰ عَنْ آفَاقِنَا العُلْيا، ومُثُلِنَا السَّامِيَةِ، أَوْ أَنْ نَتَمَلَّقَ هَؤُلاءِ النَّاسَ ونُثْنِيَ[1] عَلَىٰ رَذَائِلِهِمْ[2]، أَوْ أَنْ نُشْعِرَهُمْ أَنَّنَا أَعْلَىٰ مِنْهُمْ أُفُقًا.. إِنَّ التَّوْفِيقَ بَيْنَ هِذِهِ المُتَنَاقِضَاتِ، وسَعَةَ الصَّدْرِ لِمَا يَتَطَلَّبُهُ هَذَا التَّوْفِيقُ مِنْ جَهْدٍ: هُوَ العَظَمَةُ الحَقِيقِيَّةُ!».

* صَحيحٌ أَنَّهُ علَىٰ الدُّعاةِ أنْ يَمْتَدِحُوا الآخرينَ بِمَا فيهِمْ مِنْ خيرٍ؛ طَمَعًا فِي كَسْبِ قُلوبِهِمْ ونُفُوسِهِمْ؛ وتَرْغِيبًا لَهُمْ فِي أفكارِهِمْ وعَقَائِدِهِمْ، وأنَّ عَلَيْهِمْ أنْ يَفْرَحُوا بِمُساعَدَةِ الآخرينَ لَهُمْ، وَوُقُوفِهِمْ معهُمْ فِي مَحَطَّاتِهِمُ المُخْتَلِفَةِ؛ ولَكِنْ يَنْبَغِي ألا يكونَ ذلكَ علَىٰ حِسابِ أَفْكارِهِمْ ومُثُلِهِمُ التِي إِلَيْها يَدْعونَ، وبِهَا يُبَشِّرونَ؛ فَينبغِي ألا يَحْمِلَهُمْ حُبُّهُمْ لاسْتِمالَةِ النَّاسِ إليهِمْ وكَسْبِهِمْ إِلَىٰ الانْحِرافِ عَنِ الجَادَّةِ[3]، وَعَلَىٰ تَمَلُّقِهِمُ الزَّائِدُ؛ فَيُثْنونَ عليهِمْ بِمَا ليسَ فيهِمْ، أَوْ يُثْنونَ عَلَىٰ أَخْطائِهِمُ الجَلِيَّةِ[4] أَوْ يُسَوِّغُونَها لَهُمْ، أَوْ يُؤَوِّلُونَها؛ إِنَّهُمْ حِينئِذٍ يُخالِفُونَ مَا يَعْتَقِدونَ، ويَتَناقضونَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ وأفكارِهِمْ مِنْ جِهَةٍ؛ ويسلُكُونَ بالمَدْعُوِّينَ مِنَ الناسِ مَسْلَكًا مِنَ التربِيَةِ غيرَ سَديدٍ؛ إذْ إِنَّهُمْ حينَ يُثْنونَ علَىٰ أخطائِهِمْ

---

(1) الثَّناءُ: المَدْحُ، وذِكْرُ المَحاسِنِ، والشُّكْرُ الكثيرُ المُكَرَّرُ، وأصله من ثَنَىٰ: إِذَا كَرَرَ الشَّيْءَ، وعَطَفَهُ، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 1/ 101.

(2) الرذائل، جمع رذيل، وهو: الدنيء الخسيس، الرَّذْلُ: الدُّونَ من كلِّ شيءٍ، ورجُلٌ رَذِل أي وَسِخٌ، وامرأة رَذِلة، وثوبٌ رَذيل أي رَديءٌ، انظر: لمعجم العين، للخليل: 8/ 180.

(3) الجادّة: الطريق، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 9.

(4) الجلية: الواضحة، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 1/ 132.

وسَقَطاتِهِمْ وزَلَّاتِهِمْ؛ يُرَسِّخُونَها فِي ذواتِهِمْ، ويُعَمِّقُونها فِي نُفُوسِهِمْ؛ فإذا طالَ الزمانُ، ورَسَخُوا فِي الدَّعْوَةِ بعدَ ذلكَ بَقِيَتْ فيهِمْ أخطاؤُهُمْ وسَقَطَاتُهُمْ، وتَحَوَّلَتْ عندَهُمْ إِلَىٰ حسناتٍ وقناعاتٍ؛ فيكبُرُ فيهمُ الشَّرُّ كُلَّمَا كَبُرُوا فِي الدَّعْوَةِ؛ حتَّىٰ إِذَا عَظُمَ الشرُّ في نفوسِهِمْ، ولمْ يَعُدْ مُحْتَمَلًا مِنْهُمْ، وأَرَادَ إخوانُهُمْ توَجيهَهُمْ وتَذْكيرَهُمْ ونصيحتَهُمْ؛ قابلُوا ذلكَ بالصُّدودِ والهُجْرانِ والنُّكْرانِ، وربَّما بالقَطيعَةِ والقعودِ عنِ العَمَلِ؛ ورُبَّما نَاصَبُوا إخوانَهُمُ العداءَ.

* ومعلومٌ أَنَّ توجيهَ الوافِدِ الجديدِ أَمْرٌ ميسورٌ؛ فالمَدْعُوُّ فِي مبادِئِ أمْرِهِ؛ يكونُ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ يَسْتَقْبِلَ كُلَّ نُصْحٍ، ويأْخُذَهُ مَأْخَذَ التَّسْليمِ؛ بلْ يَحْمدُ مِن المُرَبِّينَ كُلَّ توجيهٍ؛ لِأَنَّهُ ينظرُ إليهِمْ بعينِ الإِكْبارِ لِسابِقَتِهِمْ، ولِمَا يَرَىٰ لهُمْ مِنْ فَضْلٍ، ولِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمٍ وحِكْمَةٍ؛ حتَّىٰ لَوْ وَجَدَ أحدُهُمْ فِي نفسِه شَيْئًا جَرَّاءَ تَوْجيهٍ لَمْ يَعْتَدْهُ؛ فَسرعانَ مَا تَطِيبُ نَفْسُهُ، وينقادُ للحَقِّ؛ فأرضُ قَلْبِهِ لَمْ تزلْ خَصْبةً قابِلَةً لِكُلِّ نَبْتَةٍ وغَرْسَةٍ، وغُصْنُهُ لَمْ يَزَلْ طَرِيًّا قَابِلًا لِكُلِّ تَقْويمٍ. أَمَّا إِذَا طالَ عَهْدُهُ، وعاشَرَ الدُّعاةَ وأَلِفَهُمْ، ورأىٰ منهُمْ أخطاءَهُمُ التِي تُمْليها عليهِمْ بَشرِيَّتُهُمْ، وتَعْقيداتُ العملِ وصُعوباتُهُ؛ ورَأَىٰ نَفْسَهُ واحدًا مِنْهُمْ؛ قَلَّتْ هيبتُهُمْ فِي نَفْسِه؛ وحِينَهَا يَصْعُبُ تَقْويمُهُ وتوجيهُهُ؛ ولَرُبَّما أدَّتْ محاولاتُ تقويمِهِ المُتَأَخِّرَةُ إِلَىٰ كَسْرِهِ؛ تمامًا كالغُصْنِ إِذَا طالَ عليهِ الزَّمانُ ويَبَسَ.

* ويجدرُ بالدُّعاةِ التوفيقُ الرَّشيدُ بينَ التَّعامُلِ مَعَ ما فِي الناسِ مِنْ خيرٍ وإحسانٍ؛ يُثْنُونَ علَىٰ ما يكونُ مِنْهُمْ، وبينَ ما يكونُ مِنْهُمْ مِنْ أَخْطاءٍ، وكَيْفِيَّةِ التَّعامُلِ مَعَها: بغَضِّ الطَّرْفِ عَنْهَا فِي مَرْحَلَةٍ مِنَ المراحِلِ، وتَوْجيهِهَا فِي مراحِلَ أُخْرَىٰ بِرِفْقٍ وحِكْمَةٍ؛ دونَ أَنْ يَمْتَدِحُوها أَوْ يُسَوِّغُوهَا أَوْ يُؤَوِّلُوها؛ وإِلَّا وَقَعُوا فِي التَّنَاقُضِ بينَ مَا يدعونَ إليهِ مِنْ ضرورَةِ

إصلاحِ النَّاسِ، ومعالَجَةِ الفَسادِ، ومُواجَهَةِ الشَّرِّ، وبينَ مَا يُرَىٰ مِنْهُمْ مِنَ الثَّناءِ علَىٰ الشَّرِّ والعيبِ والنَّقْصِ؛ وهنا تَتَجَلَّىٰ حِكْمَةُ الدُّعاةِ العُقَلاءِ المُتَمَرِّسينَ؛ الذِينَ لا تَأْخُذُهُمُ العواطِفُ بَعيدًا عَمَّا يَدْعونَ الناسَ إِلَيْهِ؛ وهنا تَظْهَرُ عَظَمَتُهُمْ، ويَبِينُ فَضْلُهُمْ، وتُحْمَدُ عاقبةُ تَرْبِيَتِهِمْ.

* إنَّ مُعالَجَةَ النَّقْصِ فِي الناسِ أَفْرادًا وجماعاتٍ مِنْ أَوْلَىٰ أَوْلَوِيَّاتِ الدُّعاةِ، وهُوَ جُزْءٌ مِنَ الفِكْرَةِ التِي يَحْمِلُونَ، وإِلَيْها يَدْعُونَ؛ إِذِ الفِكْرَةُ تَصْحيحٌ لقيمٍ ومبادِئَ وأفكارٍ خَاطِئَةٍ، وإِكْسابٌ لِقِيَمٍ ومبادِئَ وأَفْكارٍ صَحِيحَةٍ.

* أَمَّا فِي حالِ أَنْ يَكْتُبَ اللهُ تعالَىٰ للإِسْلامِيِّينَ الولايَةَ علَىٰ النَّاسِ، والقِوامَةَ والاسْتِخْلافَ عليهِمْ؛ فإِنَّهُ يُصْبِحُ تقويمُ النَّاسِ، ومعالَجَةُ أَخْطائِهِمْ، وتَغْيِيرُ مُنْكَراتِهِمُ التِي تَوارثُوهَا، لَا سِيَّما إِذَا كانَتْ هَذِهِ الأخطاءُ تَتَهَدَّدُ قِيَمَ الأُمَّةِ ومَبَادِئَها، وتَتَعارَضُ مَعَ شَرِيعَتِها ودِينِها.. يُصبِحُ ذلِكَ واجبًا شَرْعيًا، وتَكْليفًا رَبَّانِيًّا؛ «والرَّعِيَّةُ تَابِعَةٌ لِلْمَلِكِ، فَالنَّاسُ علَىٰ دينِ مُلُوكِهِمْ»[1]. ولَقَدْ أمرَ اللهُ تعالَىٰ بذلكَ، وجَعَلَهُ عبادَةً شَرْعِيَّةً، قَرِينَةَ الصلاةِ والزَّكَاةِ؛ فقالَ تعالَىٰ: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2]، فالعبادَةُ قِسْمانِ، امْتِثالٌ لِأَمْرٍ، وتَرْكٌ لِنَهْيٍ، وكَمَا أَنَّ اللهَ تعالَىٰ تَعَبَّدَ المسلمينَ بامْتِثالِ أَوَامِرِهِ؛ تَعَبَّدَهُمْ كَذَلِكَ بِتَرْكِ نَواهِيهِ.

---

(1) حاشية السندي: 2/ 477.

(2) الحج: 41.

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالَىٰ العليمَ بِما يَخْتَلِخُ[1] نفوسَ عبادِهِ مِنْ مَخاوِفَ.. عَلِمَ أَنَّهُمْ سَيَتَخَوَّفونَ مِنْ تَغْيِيرِ المُنْكَرِ؛ خَشْيَةَ أنْ يَنْقَلِبَ عليهِمُ النَّاسُ، وأَنْ تَسْتَغِلَّهَا الأُمَمُ المُناوِئَةُ لَهُمْ أَسْوَأَ اسْتِغْلالٍ؛ فَتُغْرِي سفهاءَ الناسِ، وضِعافَ النفوسِ، وأصحابَ الأهواءِ بالتَّمَرُّدِ علَىٰ المُسْلمينَ، ونَفْضِ يَدِ الطَّاعَةِ، وشَقِّ عَصَا الأُمَّةِ؛ عَلِمَ اللهُ تعالَىٰ مِنْهُمْ ذلكَ كُلَّهُ؛ فَطَمْأَنَهُمْ، وأَزَالَ مَخاوِفَهُمْ بِقَوْلِهِ تعالَىٰ فِي ذَيْلِ الآيةِ نَفْسِهَا: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، والمَعْنَىٰ: إنَّ عاقِبَةَ الأمورِ ومَآلَاتِهَا لَيْسَتْ إلَّا للهِ تعالَىٰ وَحْدَهُ؛ يُمَكِّنُ مَنْ يشاءُ، ويُدِيلُ مَنْ يشاءُ، يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يشاءُ، ويَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يشاءُ؛ فَإِذَا وَفَّىٰ المسلمونَ المُسْتَخْلَفونَ بِمَا نَاطَ[2] اللهُ تَعالَىٰ بِهِمْ مِنْ مَهَمَّةِ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ؛ وَفَّىٰ اللهُ تَعالَىٰ لَهُمْ بِمَزيدٍ مِنَ التَّمْكينِ، وأَتَاهُمُ الفَرَجُ مِنْ حيثُ مَظَنَّةُ المَخَاوِفِ، فإنَّ قلوبَ العبادِ، ونَواصيَهِمْ بيدِ اللهِ تعالَىٰ وَحْدَهُ؛ فإذَا كانَ العِبادُ للهِ تعالَىٰ كَمَا يُحِبُّ؛ كانَ لَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ، وإذَا أَعْطَىٰ الدعاةُ رَبَّهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَا يُحِبُّ؛ أَعْطاهُمْ مِنْ نَفْسِهِ ما يُحِبُّونَ؛ وفَتَحَ لَهُمْ مِنْ أبوابِ الظَّفَرِ، وأَرَاهُمْ مِنْ حُسْنِ صَنيعِهِ بِهِمْ مَا لَمْ يكنْ يَخْطُرُ لهُمْ علَىٰ بالٍ، ولَوْ مَكَرَ أهلُ الأَرْضِ قَاطِبَةً بعَبْدٍ مُطيعٍ للهِ تَعالَىٰ، مُتَوَكِّلٍ عليهِ؛ لَجَعلَ اللهُ تَعالَىٰ لَهُ مِنْهُم مَخْرَجًا، وأَنْجاهُ مِنْ مَكْرِهِمْ وكَيْدِهِمْ.

قالَ ابنُ القيِّمِ: «فَمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ فِي الحَقِّ، ولَوْ علَىٰ نَفْسِهِ كفاهُ اللهُ تعالَىٰ مَا بينَهُ وبينَ النَّاسِ، فإنَّ العبْدَ إذَا خَلُصَتْ نِيَّتُهُ للهِ تعالَىٰ، وكانَ قَصْدُهُ وَهَمُّهُ وعَمَلُهُ لِوَجْهِهِ سبحانَهُ؛ كانَ اللهُ تعالَىٰ مَعَهُ؛ فإنَّهُ سُبْحانَهُ مَعَ الذينَ اتَّقَوْا والذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، ورَأْسُ التَّقْوَىٰ والإحسانِ خلوصُ النِيَّةِ للهِ تعالَىٰ فِي إقَامَةِ الحَقِّ، واللهُ سُبْحانَهُ لا غَالِبَ لَهُ، فَمَنْ كانَ مَعَهُ؛ فَمَنْ ذَا

---

(1) يَخْتَلِخُ: ينازع ويجاذب، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 2/ 59.

(2) ناط: علق، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 5/ 141.

الذِي يَغْلِبُهُ أَوْ ينالُهُ بِسُوءٍ؟ فإنْ كانَ اللهُ تعالَىٰ مَعَ العَبْدِ؛ فَمَنْ يخافُ؟ وإنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ؛ فَمَنْ يَرْجُو؟ وبِمَنْ يَثِقُ؟ ومَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؟ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]؛ فَإِذَا قامَ العَبْدُ بالحَقِّ علَىٰ غيرِهِ وعلَىٰ نَفْسِهِ أَوَّلًا، وكانَ قِيامُهُ باللهِ ولله؛ لَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ، ولَوْ كَادَتْهُ السماواتُ والأَرْضُ والجبالُ؛ لكفاهُ اللهُ تعالىٰ مَؤُنَتَها، وجَعَلَ لَهُ فَرَجًا ومَخْرَجًا؛ وإِنَّما يُؤْتَىٰ العبدُ مِنْ تَفْرِيطِهِ وتَقْصيرِهِ فِي هذِهِ الأمور»[2]، وكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ»[3].

فَإِذَا صَلُحَ الرُّعاةُ الدُّعاةُ، وقَصَدُوا إِصْلاحَ الرَّعِيَّةِ؛ أَصْلَحَهُمُ اللهُ تَعالَىٰ لَهُمْ، وأرضاهُمْ عنهُمْ؛ فَعَنْ محمَّدِ بنِ المُنْكَدِرِ، قال: «إِنَّ اللهَ تعالَىٰ يَحْفَظُ بالرَّجُلِ الصالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وبُقْعَتَهُ التِي هُوَ فيهَا والدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ، فَلَا يزالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ تعالَىٰ وسِتْرِهِ»[4].

* ولَكِنِ الذِي علَىٰ الدُّعاةِ أَنْ يَفْقهوهُ عِنْدَ تَغْيِيرِ المُنْكَرِ هُوَ أَنْ يكونَ تَغْيِيرُ المُنْكَرِ بالحِكْمَةِ والاتِّزانِ وفقَ قواعدِ التَّدَرُّجِ، فَلا يَحْمِلُونَ الناسَ علَىٰ تَرْكِ المُنْكَرِ جُمْلَةً واحدةً؛ فَيَسْتَعْصِي عليهِمْ طاعَتُهُمْ؛ ولكنْ يَتَدَرَّجُونَ مَعَهُمْ بِتَقْبيحِهِ لَهُمْ أَوَّلًا، ثُمَّ تَجْرِيمِهِ ثانيًا، حتَّىٰ إِذَا رَأَوا اسْتِجابَةَ الناسِ واستعدادَهُمْ لَقَبُولِ الحقِّ؛ عاقَبُوا عَلَيْهِ أَخِيرًا؛ وفيمَا يُحْكَىٰ عَنْ

---

(1) آل عمران: 160.

(2) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية: 2/ 122.

(3) رواه الترمذي في سننه: 4/ 188، وصَحَّحَه الألباني.

(4) السيرة الحلبية، للحلبي: 1/ 319.

عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّ ابنَهُ عبدَ المَلِكِ قالَ لَهُ: «مَا لَكَ لا تُنْفِذُ الأُمُورَ؟ فواللهِ مَا أُبالِي لَوْ أَنَّ القُدُورَ غَلَتْ بِي وبِكَ فِي الحَقِّ». قَالَ لَهُ عُمَرُ: «لا تَعْجَلْ يا بُنَيَّ، فإنَّ اللهَ تعالَىٰ ذَمَّ الخَمْرَ فِي القُرْآنِ مَرَّتينِ، وحَرَّمَها فِي الثَّالِثَةِ، وإِنِّي أخافُ أَنْ أَحْمِلَ الحَقَّ علَىٰ النَّاسِ جُمْلَةً، فَيَدْفَعُوهُ جُمْلَةً، ويكونَ مِنْ ذَا فِتْنَةٌ»[1].

* ووَفقَ قاعِدَةِ تَزْيينِ المعروفِ وتَقْبيحِ المُنْكراتِ والمَعاصِي، هذهِ سُنَّةُ القرآنِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[2]، فيكونُ الدَّاعِي إِلَىٰ تَرْكِ المُنْكَراتِ هُوَ مَا اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِ الناسِ مِنْ كُرْهِ المُنْكَرِ وبُغْضِهِ والتَّقَزُّزِ مِنْهُ. وهَذَا الفِقْهُ فِي الدعوةِ لا يسلُكُهُ إِلَّا فقهاءُ الدَّعْوَةِ وحُكماؤُها.

* ووَفْقَ قاعدةِ تَعْظيمِ الأَمْرِ والنَّهْيِ، وتعظيمِ الآمِرِ النَّاهِي سُبْحانَهُ، وهَذانِ أَصْلانِ أَصِيلانِ مِنْ أُصولِ تَغْيِيرِ المُنْكَرِ، مُسْتَنْبطانِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾[3]، وقولِهِ تعالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[4]، فمتَىٰ عَظُمَتِ المَعْصيةُ فِي عينِ العَبْدِ، وعَظُمَ اللهُ تَعالَىٰ فِي قَلْبِه؛ لَمْ يَتَجَرَّأْ علَىٰ مَعْصيَةِ العَظِيمِ سُبْحانَهُ، فإِنَّ النفوسَ مَجْبولَةٌ علَىٰ تَرْكِ مُخالفَةِ مَنْ عَظَّمُوا فِي نفوسِهِمْ، إِمَّا هَيْبَةً وجَلالًا وحَياءً؛ وإِمَّا خَوْفًا وحَذَرًا؛ ومَنْ تَتَبَّعَ هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ وتَغْيِيرِ المُنْكَرِ، وجَدَهُ مَبْنِيًا علَىٰ هَذينِ الأَصْلينَ. وما تَجَرَّأَ مَنْ تَجَرَّأَ علَىٰ المَعْصِيَةِ ومُخالَفَةِ أَمْرِ اللهِ تعالَىٰ إِلَّا لِفُقْدانِ

---

(1) الموافقات، للشاطبي: 2/ 148.

(2) الحجرات: 7.

(3) الحج: 30.

(4) الحج: 32.

هذينِ الأَصْلَيْنِ، وهوَ بابُ إبليسَ إِلَىٰ نُفُوسِ العِبادِ، فَلا يزالُ اللَّعينُ يُهَوِّنُ المَعْصِيَةَ للعبدِ ويُزَيِّنُها لَهُ حتَّىٰ يُوْقِعَهُ فيها، وهِيَ سُنَّةُ الشيطانِ القديمةُ مِنْ يومِ زَيَّنَ لِأَبينَا الأَكْلَ مِنَ الشَّجَرَةِ، وهَوَّنَ عَلَيْهِ مُخالَفَةَ أَمْرِ اللهِ تَعالَىٰ، فَمَا زَالَ اللعينُ بِأَبينَا حتَّىٰ أَوْقَعَهُ فِي المَعْصِيَةِ.

وهَذا البابُ يجدُرُ أَنْ يُشْبَعَ بَحْثًا وتَأْصيلًا؛ لِمَا لَهُ مِنْ أَثَرٍ فِي تَغْييرِ المُنْكَرِ بأيسرِ السُّبُلِ، وأَسْرَعِ الأَوْقاتِ، وأَقَلِّ التَّكاليفِ.

❋ كَما ينبغِي أَنْ يكونَ تَغْييرُ المُنْكَرِ وفْقَ قاعِدَةِ الإِحْلالِ والإِبْدالِ؛ فَيُوجِدُ الدُّعاةُ والمُصْلحونَ للناسِ البَدائِلَ المَشْروعَةَ الحَسَنَةَ قبلَ أَنْ يمْنَعُوهُمْ مِنَ المُنْكراتِ التِي أَلِفُوها؛ فَيُوجِدُونَ فِرَقًا لِلْفَنِّ الإسلامِيِّ المُنْضَبِطِ المَوْزونِ مَثَلًا، قبلَ أَنْ يمنَعُوا الفَنَّ الفَاجِرَ الماجِنَ الهابِطَ، ويُوجِدُونَ مُتَنَزَّهاتٍ مُنْضَبِطَةً نزيهةً؛ قَبْلَ أَنْ يُغْلِقُوا أماكِنَ الفُجُورِ والفَسادِ.

وأَنْ يكونَ هَذَا كُلُّهُ وفْقَ خُطَطٍ ودِراساتٍ مُتَأَنِّيَةٍ وَوَاقِعِيَّةٍ، تُوضَعُ لَها المُوازنَاتُ اللَّازِمَةُ لعمليَّةِ الإصلاحِ المُجْتَمَعِيِّ؛ وأَنْ تُولَىٰ الاهْتمامَ؛ كَمَا تُوْلَىٰ خُطَطُ الإِنْعاشِ الاقْتصادِيِّ، وإصلاحِ البُنَىٰ التَّحْتِيَّةِ للبلادِ؛ فإنَّ إصلاحَ نفوسِ الناسِ وقُلوبِهِمْ أَوْلَىٰ مِنْ إصلاحِ أَبْدَانِهِمْ؛ وإنَّ قُوتَ القُلُوبِ أَهَمُّ مِنْ قوتِ الجُسومِ؛ فَأَمْراضُ القلوبِ أَشَدُّ وأَنْكَىٰ مِنْ أمراضِ الأبدانِ؛ فإذا ماتَ البَدَنُ وصاحِبُهُ صابِرٌ مُحْتَسِبٌ؛ كَانَتِ الجَنَّةُ؛ أَمَّا إِذَا ماتَ القَلْبُ؛ فَلَيْسَ ثَمَّ إِلَّا النَّارُ.

القاعدةُ السَّابعةُ

إِدْراكُ الحَقَائِقِ ومَعْرِفَتُهَا مِنْ أولوِيَّاتِ أصحابِ الفِكْرِ الرَّشيدِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «الفَرْقُ بعيدٌ.. جِدُّ بَعيدٌ.. بَيْنَ أَنْ نَفْهَمَ الحَقَائِقَ، وأَنْ نُدْرِكَ الحَقَائِقَ.. إِنَّ الأُوْلَىٰ: العِلْمُ.. والثَّانِيَةُ هِيَ: المَعْرِفَةُ..[1]!

---

(1) اختلفت أقوال العلماء في التفريق بين العلم والمعرفة:

* قال أبو هلال العسكري: «الْفرق بَين الْعلم والمعرفة أَن الْمعرفَة أخص من الْعلم؛ لِأَنَّهَا علمت بِعَين الشَّيْء مفصلًا عَمَّا سواهُ، وَالْعِلْمُ يكونُ مُجْمَلًا ومُفَصَّلًا؛ فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ عِلْمٌ وَلَيْسَ كلُّ عِلْمٍ مَعرِفَةً؛ وَذَلِكَ أَنَّ لفظَ الْمَعْرِفَةِ يُفِيدُ تَمْيِيزَ الْمَعْلُومِ مِنْ غَيرِهِ، وَلَفظُ الْعِلْمِ لَا يُفِيد ذَلِك إِلَّا بِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ التَّخْصِيصِ فِي ذِكْرِ الْمَعْلُومِ، وَالشَّاهِدُ قَولُ أَهْلِ اللُّغَةِ: إِنَّ الْعِلْمَ يتعَدَّىٰ إِلَىٰ مَفْعولَيْنِ لَيْسَ لَكَ الِاقْتِصَارَ عَلَىٰ أَحَدِهِمَا إِلَّا أَنْ يكونَ بِمَعْنَىٰ الْمَعْرِفَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]، أَي: لَا تعرفونهم الله يعرفهُمْ. وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِك كَذَلِك؛ لَأن لفظ الْعلم مُبْهَم، فَإِذا قُلْتَ: عَلِمْتُ زيدًا، فَذَكَرْتَهُ بِاسْمِهِ الَّذِي يعرفهُ بِهِ الْمُخَاطبُ لَمْ يَفِ، فَإِذا قُلْتَ: قائمًا؛ أَفَدْتَ؛ لِأَنَّكَ دَلَلْتَ بِذَلِك عَلَىٰ أَنَّكَ عَلِمْتَ زَيْدًا عَلَىٰ صِفَةٍ جَازَ أَلَّا تَعْلَمَهُ عَلَيْهَا، مَعَ عِلْمِكَ بِهِ فِي الْجُمْلَة. وَإِذا قُلْتَ: عَرَفْتُ زيدًا؛ أَفَدْتَ لأَنَّهُ بِمَنْزِلَة قَوْلِكَ: عَلِمْتُهُ مُتَمَيِّزًا مِنْ غَيرِهِ؛ فاسْتَغْنَىٰ عَنْ قَوْلك: مُتَمَيِّزًا مِنْ غَيرِهِ؛ لِمَا فِي لَفْظِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ الدّلَالَة علىٰ ذَلِك»، انظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: 1/ 80.

* وقال الجرجاني: «المعرفة: ما وُضِعَ لِيدُلَّ علَىٰ شَيْءٍ بعينِهِ، وهِيَ المُضْمراتِ، والأَعْلَامِ، والمُبْهَماتِ، والمعرفة أيضًا: إدراكُ الشَّيْءِ علَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وهِيَ مَسْبُوقَةٌ بِجَهْلٍ، بِخِلافِ العِلْمِ، ولِذَلكَ يُسَمَّىٰ الحَقُّ تَعَالَىٰ بالعَالِمِ دُونَ العَارِفِ»، انظر: التعريفات، للجرجاني: 1/ 221.

«والعلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، وقيل: العلم هو إدراك الشيء علىٰ ما هو به، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه، وقيل: هو

مستغنٍ عن التعريف، وقيل: العلم، وصول النفس إلىٰ معنىٰ الشيء، وقيل: عبارة عن إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول»، انظر: التعريفات، للجرجاني: 1/ 155.

* قال ابن قيم الجوزية: «الْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لَفْظًا وَمَعْنًىٰ: الأول: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ لَفْظًا، أَنَّ فِعْلَ الْمَعْرِفَةِ يَقَعُ عَلَىٰ مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، تَقُولُ: عَرَفْتُ الدَّارَ، وَعَرَفْتُ زَيْدًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: 58]، وَقَالَ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 146].

وَفِعْلُ الْعِلْمِ يَقْتَضِي مَفْعُولَيْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: 10] وَإِنْ وَقَعَ عَلَىٰ مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، كَانَ بِمَعْنَىٰ الْمَعْرِفَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]. الثاني: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْمَعْنَوِيُّ فَيأتي علىٰ وُجُوهٍ:

* أَحَدُهَا: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ تَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الشَّيْءِ، وَالْعِلْمَ يَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِهِ، فَتَقُولُ: عَرَفْتُ أَبَاكَ، وَعَلِمْتُهُ صَالِحًا عَالِمًا، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْأَمْرُ فِي الْقُرْآنِ بِالْعِلْمِ دُونَ الْمَعْرِفَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19]، وَقَوْلِهِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 98]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 14]. فَالْمَعْرِفَةُ: حُضُورُ صُورَةِ الشَّيْءِ وَمِثَالِهِ الْعِلْمِيِّ فِي النَّفْسِ، وَالْعِلْمُ: حُضُورُ أَحْوَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنِسْبَتِهَا إِلَيْهِ، فَالْمَعْرِفَةُ: تُشْبِهُ التَّصَوُّرَ، وَالْعِلْمُ: يُشْبِهُ التَّصْدِيقَ.

* الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ فِي الْغَالِبِ تَكُونُ لِمَا غَابَ عَنِ الْقَلْبِ بَعْدَ إِدْرَاكِهِ، فَإِذَا أَدْرَكَهُ قِيلَ: عَرَفَهُ، أَوْ تَكُونُ لِمَا وُصِفَ لَهُ بِصِفَاتٍ قَامَتْ فِي نَفْسِهِ، فَإِذَا رَآهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْمَوْصُوفُ بِهَا، قِيلَ: عَرَفَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 45]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: 58]، لَمَّا كَانَتْ صِفَاتُهُ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ، فَرَأَوْهُ: عَرَفُوهُ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، فَالْمَعْرِفَةُ: تُشْبِهُ الذِّكْرَ لِلشَّيْءِ، وَهُوَ حُضُورُ مَا كَانَ غَائِبًا عَنِ الذِّكْرِ، وَلِهَذَا كَانَ ضِدَّ الْمَعْرِفَةِ الْإِنْكَارُ، وَضِدَّ الْعِلْمِ الْجَهْلُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83]، وَيُقَالُ: عَرَفَ الْحَقَّ فَأَقَرَّ بِهِ، وَعَرَفَهُ فَأَنْكَرَهُ.

فِي الأُوْلَىٰ: نَحْنُ نَتعامَلُ مَعَ أَلْفاظٍ ومَعانٍ مُجَرَّدَةٍ.. أَوْ مَعَ تَجارِبَ ونَتائِجَ جُزْئِيَّةٍ..، وفِي الثَّانِيَةِ: نَحْنُ نَتَعامَلُ مَعَ اسْتِجاباتٍ حَيَّةٍ، ومُدْرَكاتٍ كُلِّيَّةٍ.

فِي الأُوْلَىٰ: تَرِدُ إِلَيْنَا المَعْلوماتُ مِنْ خارِجِ ذَوَاتِنَا، ثُمَّ تَبْقَىٰ فِي عُقُولِنَا مُتَحيِّزَةً مُتَمَيِّزَةً. وفِي الثَّانِيَةِ: تَنْبَثِقُ الحَقَائِقُ مِنْ أَعْمَاقِنَا. يَجْرِي فِيهَا الدَّمُ الذِي يَجْرِي فِي عُرُوقِنَا وَأَوْشَاجِنَا[1]، وَيَتَّسِقُ[2] إِشْعَاعُهَا مَعَ نَبْضِنَا الذَّاتِيِّ!..

---

* الثالث: وهو الفرق عند علماء السلوك: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ عِنْدَهم: أَنَّ الْمَعْرِفَةَ عِنْدَهُمْ هِيَ الْعِلْمُ الَّذِي يَقُومُ الْعَالِمُ بِمُوجِبِهِ وَمُقْتَضَاهُ، فَلَا يُطْلِقُونَ الْمَعْرِفَةَ عَلَىٰ مَدْلُولِ الْعِلْمِ وَحْدَهُ، بَلْ لَا يَصِفُونَ بِالْمَعْرِفَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ عَالِمًا بِاللهِ، وَبِالطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَىٰ اللهِ، وَبِآفَاتِهَا وَقَوَاطِعِهَا، وَلَهُ حَالٌ مَعَ اللهِ تَشْهَدُ لَهُ بِالْمَعْرِفَةِ، فَالْعَارِفُ عِنْدَهُمْ مَنْ عَرَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ اللهَ فِي مُعَامَلَتِهِ، ثُمَّ أَخْلَصَ لَهُ فِي قُصُودِهِ وَنِيَّاتِهِ، ثُمَّ انْسَلَخَ مِنْ أَخْلَاقِهِ الرَّدِيئَةِ وَآفَاتِهِ، ثُمَّ تَطَهَّرَ مِنْ أَوْسَاخِهِ وَأَدْرَانِهِ وَمُخَالَفَاتِهِ، ثُمَّ صَبَرَ عَلَىٰ أَحْكَامِ اللهِ فِي نِعَمِهِ وَبَلِيَّاتِهِ، ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ بِدِينِهِ وَآيَاتِهِ، ثُمَّ جَرَّدَ الدَّعْوَةَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ، وَلَمْ يَشُبْهَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَأَذْوَاقِهِمْ وَمَوَاجِيدِهِمْ وَمَقَايِيسِهِمْ وَمَعْقُولَاتِهِمْ، وَلَمْ يَزِنْ بِهَا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ صَلَوَاتِهِ، فَهَذَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْعَارِفِ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، إِذَا سُمِّيَ بِهِ غَيْرُهُ عَلَىٰ الدَّعْوَىٰ وَالِاسْتِعَارَةِ»، انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 314.

(1) الوشيجة: عرق الشجرة، وجمعها وشائج، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 399، وأراد سيد بالوشائج: توكيد معنىٰ العروق السابق، وسيد رحمه الله فريد في سوق المترادفات المتتالية.

(2) يَتَّسِقُ: من وَسَق، أي: وَمَا جَمَع وضَمّ، ومنه قَوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 18]، واتِّسَاقُه: امتلاؤُه واجتماعُه واستواؤُه، ليلةَ ثلاثَ عشرَة وَأَرْبع عشرَة، انظر: تهذيب اللغة للأزهري، للأزهري: 9/ 185، ويصبح المعنىٰ: تنضم الحقائق إلىٰ نبضنا، وتجتمع وإياها.

فِي الأُوْلَىٰ: تُوْجَدُ «الخَانَاتُ» والعَنَاوِينُ: خَانَةُ العِلْمِ، وتَحْتَهَا عَنْوانَاتُهُ، وهِيَ شَتَّىٰ: خَانَةُ الدِّينِ، وتَحْتُها عَنْوانَاتُ فُصُولِهِ وأَبْوابِه.. وخَانَةُ الفَنِّ، وتَحْتَهَا عَنْوانَاتُ مَنَاهِجِهِ واتِّجاهَاتِهِ!..، وَفِي الثَّانِيَةِ: تُوْجَدُ الطَّاقَةُ الوَاحِدَةُ، المُتَّصِلَةُ بِالطَّاقَةِ الكَوْنِيَّةِ الكُبْرَىٰ.. يُوجَدُ الجَدْوَلُ السَّارِبُ[1]، الوَاصِلُ إِلَىٰ النَّبْعِ الأَصِيلِ!».

* يَدْعُو سيِّدٌ فِي هذِهِ الفِقْرَةِ إِلَىٰ تَجَاوُزِ العِلْمِ بالأفكارِ، والوقوفِ عِنْدَ معانِيها وتَعْرِيفاتِها؛ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الأَفْكارِ والوقوفِ علىٰ مَاهِيَّتِها، واعْتِناقِهَا عَنْ قَنَاعَةٍ إِلَىٰ أَبْعَدِ حَدٍّ. وهوَ يَعْقِدُ مُقارَنَةً لَطِيفَةً بينَ العِلْمِ بالأشياءِ، وبينَ مَعْرِفَتِها؛ بينَ فَهْمِ الحقَائِقِ، وبينَ إِدْراكِ كُنْهِهَا والنُّفوذِ إِلَىٰ أُصُولِها.

وهوَ بهذَا يَدْعُو إِلَىٰ أنْ يتجاوزَ أصحابُ الأفكارِ النَّبيلَةِ أَلْفاظَ أفكارِهِمْ، ومَعَانيَها المُجَرَّدَةَ، ونَتَائِجَ تجاربِهِمُ الجُزْئِيَّةَ.. ويدعُوهُمْ إِلَىٰ تَحْوِيلِ تلكَ المَعانِي والنَّتَائِجِ إِلَىٰ تَعَامُلٍ حَيٍّ مَلْموسٍ؛ يُجَسِّدُ تلكَ المَعانِيَ والتجارِبَ فِي واقِعِ العَمَلِ اليَوْمِيِّ، والمُمَارَسَةِ الفِعْلِيَّةِ البَنَّاءَةِ، مَعَ نَفْسِهِ، ومَعَ المَدْعُوِّينَ.

* كَمَا يَدْعُو إِلَىٰ أَلَّا تَبْقَىٰ المعلوماتُ مُسْتَقِرَّةً فِي عُقُولِنَا، قَابِعَةً فِي دَخِيلَةِ ذَوَاتِنَا؛ وأَنْ تَخْرُجَ هَذِهِ المَعْلومَاتُ عَنِ حَيِّزِ الذَّاتِ، وتَظْهَرَ فِي صورَةِ كائِنٍ حَيٍّ مُدْرَكٍ تَدُبُّ فيهِ الحياةُ، ويَجْرِي فيهِ الدَّمُ فِي العروقِ، وذلِكَ حينَ تَتَحَوَّلُ الأفكارُ إِلَىٰ أَعْمالٍ، وتُتَرْجَمُ إِلَىٰ تَطْبِيقَاتٍ عَمَلِيَّةٍ مَحْسوسَةٍ مَلْمُوسَةٍ.

---

(1) السارب: الجاري بيسر وهدوء، ومنه سَرَبَ الماء: جرىٰ علىٰ وجه الأرض، وسَرَبَ فِي الأرض سروبًا: مَضَىٰ فِيها، انظر: أساس البلاغة، للزمخشري: 1/ 447.

* كَمَا يَدْعُو إِلَىٰ أَلَّا تَكُونَ عُقُولُ أصحابِ الأَفْكارِ والدَّعواتِ رُفُوفًا مُتَعَدِّدَةً تُصَفُّ فيهَا الكُتُبُ والمَعْلوماتُ، دُوْنَ أَنْ تُفْتَحَ، ويُنْتَفَعَ بِهَا، ودونَ أَنْ يُرْجَعَ إِلَىٰ الأَصْلِ الذِي استُفِيدَتْ مِنْهُ؛ فَتَبْقَىٰ الأَفْكارُ والمَعْلومَاتُ مُتَشَتِّتَةً مُتَفَرِّقَةً، مَطْوِيَّةً بينَ دُفُوفِ الكُتُبِ، مَحْبُوسَةً فِي العُقُولِ.

* وهوَ يدعُو إِلَىٰ أنْ يرجِعَ الدُّعاةُ بأفكارِهِمْ إِلَىٰ نَبْعِهَا الأَوَّلِ، ومَوْرِدِها الصَّافِي الأَصِيلِ.. إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ، وإِلَىٰ مَنْهَجِهِ وتَشْرِيعِهِ، الذِي مِنْه تَفَرَّعَتِ الجَداوِلُ، واخْتَلَفَتِ الفُهُومُ، وتَعَدَّدَتِ الآراءُ؛ فإذا رُجِعَ إِلَىٰ النَّبْعِ والأَصْلِ؛ فُهِمَتِ الأُمُورُ علَىٰ مَا هِيَ عليْهِ، كَما أَرادها اللهُ تَعالَىٰ، غيرَ مَشُوبَةٍ بِحُظوظِ البَشَرِ وأَهْوائِهِمُ الخَفِيَّةِ. وأَلَّا يَكْتَفُوا بِمَا يَتَلَقَّوْنَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الدُّعاةِ وأصحابِ الأفكارِ؛ فَلعلَّهُمْ يجدونَ -حينَ يرجعونَ إِلىٰ المَنْبعِ الأصيلِ.. حينَ يُفَكِّرونَ هُمْ.. وحينَ يَسْتنبطُونَ هُمْ- مِنَ المَعَارِفِ مَا لَمْ يَجِدْ مَنْ سَبَقَهُمْ، وقَدْ يفتحُ اللهُ تعالَىٰ علَىٰ اللاحِقِ بِمَا لَمْ يَفْتَحْ علَىٰ السَّابِقِ؛ فَكثيرٌ مَا سَبَقَ اللَّاحِقُ السَّابِقَ، وتَفَوَّقَ الآخِرُ علَىٰ الأَوَّلِ؛ وذلكَ فضلُ اللهِ تَعالَىٰ يَخْتَصُّ بِهِ مَنْ يشاءُ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العظيمِ.

* ولَعَلَّهُ يقصِدُ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- أَلَّا يَبْقَىٰ صاحِبُ الفِكْرَةِ أسيرَ تَفْكيرِ غَيْرِهِ، لَا يَأْخُذُ إِلَّا عنْهُ، ولَا يَصْدُرُ إِلَّا عنْ مَوْرِدِهِ، قَانِعًا بِهِ، فَيُفَكِّرُ بِعَقْلِ غيرِهِ لَا بعقْلِهِ هُوَ؛ وإِنَّما عليهِ أَنْ يُفَكِّرَ بعقلِهِ هُوَ، وأنْ يرجِعَ إِلَىٰ حيثُ أَخَذَ مَنْ سَبَقَهُ، إِلَىٰ حيثُ أصلُ الأَفْكارِ ومَنْبَعُهَا العَالِي الأصيلُ، لَا إِلَىٰ الرِّجالِ الذينَ نَقَلُوها، فَإِذا رَجَع إِلَىٰ النَّبْعِ العالِي الأصيلِ؛ فَسَيَأْخُذُها صَافِيَةً، لَمْ يُكَدِّرْها[1] آراءُ الرِّجالِ وأَهْوِيَتُهُمْ، تَمامًا كَمَنْ يصعَدُ إِلَىٰ أصلِ النَّبْعِ، ويأخُذُ

(1) يُكَدِّرُ: يُعَكِّرُ، والكَدَر: ضد الصّفو، وكَدِرَ الماءُ: إذا تعكر، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 2/ 637.

الماءَ عَذْبًا زُلالًا؛ ولَا يَكْتَفِي بأَخْذِ المَاءِ مِنَ الجَدَاوِلِ والفُروعِ والدِّلاءِ، التِي لابُدَّ أَنْ تُكَدِّرَها مَجارِي المِياهِ، فَيَعْلَقُ بِهَا مِنَ الشَّوائِبِ والأَقْذاءِ القَليلُ والكثيرُ.

* وهَاهُنَا تَفْصيلٌ، وهُوَ أَنَّ حَمَلَةَ الأَفْكارِ مِنْهُمُ الوافِدُ الجديدُ، ومنهُمُ الراسِخُ القَديمُ: فأمَّا الوافِدُ الجَديدُ؛ فَيَحْسُنُ أَنْ يَتَلَقَّىٰ الأفكارَ فِي مبادِئِ أُمورِهِ عَنْ غيرِهِ مِنَ الدُّعاةِ والعُلماءِ الصادقينَ الأُمَناءِ مِنْ أصحابِ الأفكارِ المُسْتَقيمَةِ، والعقيدَةِ الصَّافِيَةِ، تَمَامًا كَما يأْخُذُ الصِّغارُ الماءَ مِنَ الدِّلاءِ، أَوْ مِنْ جَدْوَلِ المَاءِ المُنسابِ مِنَ العينِ العالِيَةِ، وَليسَ لَهُمْ أنْ يَتكَلَّفُوا شُقَّةَ الصُّعودِ إِلَىٰ أَصْلِ النَّبْعِ؛ لِضَعْفِ قُواهُمْ علَىٰ ذلكَ؛ فَلَرُبَّما أَفْضَىٰ صعودُهُمُ المُبَكِّرُ إِلَىٰ وُقُوعِهِمْ وهَلَكَتِهِمْ.

* وأَمَّا الأَقْوياءُ الرَّاسِخُونَ، فهم أيضًا صنفانِ: صِنْفٌ، لَيْسَ عندَهُمْ مِنَ العِلْمِ وأَدَواتِهِ مَا يُؤَهِّلُهُمْ للاسْتِقصاءِ والاجْتِهادِ، وهؤلاءِ ليسَ لَهُمْ أنْ يُبْحِرُوا فِي الفِكْرِ، ويَطْلُبُوا مِنْهُ فَوْقَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ طاقاتٍ؛ وإلا فهوَ مُخاطَرَةٌ ومُغامَرَةٌ. أَمَّا الصِّنْفُ الثَّانِي، فَهُمُ الذينَ أَخَذُوا مَا عِنْدَ غيرِهِمْ مِنْ أفكارٍ وعُلُومٍ، وصَارَ عِنْدَهُمْ مِنْ أُصولِ العُلُومِ وأدواتِ الاجتهادِ ما يُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يُفكِرُوا، ويَسْتَنْبِطُوا بأنفسِهِمْ؛ فهؤلاءِ يَحْسُنُ بِهِمْ أَنْ يَرْتَقُوا بِأَفْكارِهِمْ وعُقُولِهِمْ، وأنْ يَجْتَهِدُوا فِي تحصيلِ العُلُومِ والأَفْكارِ مِنْ أُصُولِهَا الصَّحيحَةِ الصَّافِيَةِ، دُونَمَا وَساطَةٍ مِنْ أَحَدٍ، وسَاعَتَها سَيَجِدُونَ مِنَ العُذُوبَةِ والسَّعادَةِ بِمَا وَجَدُوهُ هُمْ، واسْتَنْبَطُوهُ هُمْ؛ مَا لَمْ يَحْصُلْ لهمْ مِنْ قَبْلُ؛ كَما يَرْتَقِي الكبارُ إِلَىٰ أصلِ النَّبْعِ، ويَتكلَّفُونَ شُقَّةَ الصُّعودِ، وعناءَ المُرْتفعاتِ؛ ليَجِدوا المَاءَ هُناكَ عَذْبًا زُلَالًا بَارِدًا؛ فيحمَدُوا ساعَتَها المَشَقَّةَ وعَناءَ الصُّعُودِ.

* ولكِنْ قَبْلَ أَنْ يَتْرُكُوا الشَّاطِئَ ويُبْحِرُوا فِي الخِضَمِّ[1] الزَّاخِرِ؛ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَأَكَّدُوا مِن اكْتِمالِ أَدَواتِ الاجْتِهادِ والإِبْحارِ، ويَلْزَمُهُم كذلكَ أَنْ يَتعاهَدُوا مَعَ القُدَماءِ الأَثْباتِ المخلصينَ الناصحينَ مِنَ العُلماءِ والمُفَكِّرينَ، علَىٰ أنْ يأْخُذُوا بِأَيْديهِمْ، وأَنْ يَظَلُّوا بجوارِهِمْ، وتَحْتَ أَعْيُنِهِمْ، وأَنْ يَعْرِضُوا عليهِمُ الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَةِ[2] مَا وَصَلُوا إليهِ مِنْ أفكارٍ واسْتِنْباطَاتٍ؛ فَما أَجَازُوهُ لَهُمْ مَضَوُا فيهِ، ومَا أَوْقَفُوهُمْ عليهِ: فَإِمَّا أَنْ يُصَوِّبُوهُ، وإِمَّا أَنْ يَتْرُكُوهُ. ولَا يَغْتَرُّوا بأَنْفُسِهِمْ، ويُبْحِرُوا وَحْدَهُمْ فِي اللُّجَّةِ[3]؛ فَإِنَّ البَحْرَ إِذَا هَاجَ، يُكْفِئُ المَرَاكِبَ الكِبارَ، ويُغْرِقُ السَّبَّاحَ النِّحْريرَ[4]؛ ولَقَدِ اغْتَرَّ دُعاةٌ ومُفَكِّرُونَ وعلماءُ كِبارٌ بِمَا عِنْدَهُمْ، وانْفَرَدُوا وَحْدَهُمْ، وظَنُّوا أَنَّهُمْ بِمَأْمَنٍ، وأَنَّهُ لَا حاجَةَ لَهُمْ إِلَىٰ غيرِهِمْ؛ فاستدرَجَهُمْ سكونُ البَحْرِ وهدوؤُه ساعةً؛ فأبْحَرُوا وَحْدَهُمْ؛ فَمَا عَرَفُوا الطريقَ إِلَىٰ السَّاحِلِ؛ فَتَرَكُوا الجَمَاعَةَ، وشَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ، وغَرِقُوا فِي اللُّجَّةِ، وكانَ ثَمَّ الهلاكُ؛ والمعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعالَىٰ.

(1) الخِضَمُّ: الْجَمْعُ الْكثيرُ، وبحر خضم: كثير المَاء، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 1/ 608.

(2) الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَةِ، أي: الساعة بعد الساعة، والحين بعد الحين، انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري: 3/ 150.

(3) لُجَّةُ البحر: ظلمته، وبعده، وسعته، وعظمته، واختلاطه، حيثُ لا تُري أرضٌ ولا جَبَلٌ. ولَجَّجَ القومُ: دخلوا في لُجَّةٍ. وبحرٌ لُجِّيٌّ أي واسع اللُّجَّةِ. والتجَّ الظَّلامُ: أختلط، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 19.

(4) النِّحْريرُ: الحاذِقُ من الرِّجَال، الماهِرُ، المُجَرِّبُ، العاقِلُ، انظر: المخصص، لابن سيده: 1/ 255.

القاعدةُ الثَّامِنَةُ

تَكَامُلُ الطَّاقَاتِ طَرِيقَةُ الحُكَمَاءِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «نَحْنُ فِي حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ إِلَىٰ المُتَخَصِّصِينَ، فِي كُلِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ المَعَارِفِ الإِنْسانِيَّةِ، أُولئِكَ الذينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ مَعَامِلِهِمْ ومَكَاتِبِهِمْ صَوامِعَ وأَدْيِرَةً[1]!.. ويَهَبُونَ حَياتَهُمْ لِلْفَرْعِ الذِي تَخَصَّصُوا فِيهِ، لا بِشُعُورِ التَّضْحِيَةِ فَحَسْبُ، بَلْ بِشُعُورِ اللَّذَّةِ كَذلِكَ!.. شُعُورِ العَابِدِ الذِي يَهَبُ رُوحَهُ لِإِلهِهِ وهُوَ فَرْحَانُ!».

* يَتَجَلَّىٰ فِقْهُ سَيِّدِ قُطْبٍ الدَّعَوِيُّ والفِكْرِيُّ؛ فَيَظْهَرُ بِصُورَةِ مَنْ يَحْمِلُ لواءَ التَّجْدِيدِ، ويُؤَصِّلُ لِفِقْهِ التَّغْيِيرِ، ويُؤَسِّسُ لِمَرْحَلَةِ رِيادَةِ الفِكْرِ الإِسْلامِيِّ وقِيادَتِهِ الأُمَّةَ.. فَلَا يَبْقَىٰ الفِكْرُ الإِسْلامِيُّ نَظَرِيَّاتٍ مَدْفُونَةً فِي طَيِّ الكُتُبِ؛ إِنَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ تَكَامُلِ العَمَلِ الإِسلامِيِّ بِجَمِيعِ جُزْئِياتِهِ وتَفَاصِيلِهِ؛ وأَلَّا يبقَىٰ العملُ الإِسلامِيُّ مَقْصورًا علَىٰ أصحابِ الفِكْرِ والعِلْمِ والعبادَةِ، فَمَنْ يريدُ أَنْ يَتَأَهَّلَ لِقيادَةِ الأُمَّةِ؛ لابُدَّ لَهُ أَنْ يُعِدَّ الطاقاتِ اللَّازِمَةَ لمرحلَةِ القيادَةِ حينَ يَتَسَلَّمُها، لَا أَنْ تَفْجَأَهُمْ يومَ يَتَسَلَّمُها، وتَؤُولَ إِلَيْهِم؛ فَلا يجِدُونَ مَنْ يُحْسِنُ قيادَةَ الناسِ وخِدْمَتَهُمْ فِي مجالاتِ الحياةِ المختلفةِ؛ فيُضْطَرونَ إِلَىٰ الدَّفْعِ بغيرِ المُخْتَصِّينَ إِلَىٰ غيرِ مجالاتِهِمْ، أو الاستعانةِ بغيرِ الأُمَناءِ مِمَّنِ اعتادُوا استغلالَ المواقعِ لمصالِحِهِمُ

---

(1) كان الأَوْلَىٰ بسيد -رحمه الله تعالىٰ- أن يذكر المساجد بدلًا من قوله: (صَوامِعَ وأَدْيِرَةً)؛ حتىٰ تبقىٰ الصبغة الإسلامية أصيلة في هذه الرسالة، ولكن لعله خصَّ الصَوامِعَ والأَدْيِرَة؛ لأنها رمز للانقطاع عن الحياة والتَّخَلِّي الكامل للعبادة.

الخاصَّةِ؛ فيكونُ ثَمَّ الإِخْفاقُ؛ وتَضْييعُ مصالِحِ الناسِ، وتَتَبَدَّدُ أحلامُهِمْ بوجودِ القَادِرِينَ علَىٰ تَغْيِيرِ الوَاقِعِ البَئِيسِ، ويندَمُ الناسُ حينَها أَنْ وَلِيَهُمْ هؤلاءِ المُتَدَيِّنونَ، ويَتَمَنَّوْنَ عودَةَ مَنْ سَبَقَ علَىٰ مَا هُمْ عليهِ مِنِ انْحرافٍ وضلالٍ.

فَعَلَىٰ المفكِّرينَ والحُكَماءِ والقادَةِ أنْ يَسْتَعِدُّوا لِذلِكَ؛ فالأُمَّةُ مُهَيَّأَةٌ للتَّغْيِيرِ فِي كُلِّ يومٍ، وكلُّ دولَةٍ مُرَشَّحَةٌ للتَّغْيِيرِ المُفاجِئِ السَّرِيعِ، ولابُدَ إِذَنْ مِنَ الاسْتِعْدادِ؛ وتَجْهِيزِ الكَفاءاتِ والطَّاقاتِ المُتكامِلَةِ فِي سائِرِ التَّخَصُّصاتِ والفُرُوعِ، وأَنْ يُرَبَّىٰ ذَوُو الكَفاءَاتِ وأصحابُ التَّخَصُّصاتِ علَىٰ إِتْقانِ تَخَصُصاتِهِمْ وحَذْقِها إِلَىٰ حَدِّ التَّمَرُّسِ والإِبْداعِ؛ وأَنْ يَتَفَرَّغُوا لِمَا أُوْكِلَ إليهِمْ مِنْ تَخَصُّصٍ ومجالٍ، وأَنْ يَتَعَبَّدَ أحدُهُمَ اللهَ تعالَىٰ بِتَفَرُّغِهِ لِهذا التَّخَصُّصِ، وَوَقْفِ حياتِهِ عليهِ؛ فَيَسْتَشْعِرُ وهوُ عاكِفٌ علَىٰ تَخَصُّصِهِ فِي مَعْمَلِهِ أَوْ مَكْتَبِه كأَنَّه عابِدٌ فِي مِحْرَابِ الصَّلاةِ؛ فهوَ فِي الحَقيقَةِ عابِدٌ، ولَعَلَّهُ أَنْ يَفُوقَ مَنِ اعْتكفُوا فِي محارِيبِهِمْ ومساجِدِهِمْ؛ فإنَّ بَرَكَةَ العمَلِ بِتَعَدِّي نَفْعِهِ وعُمُومِ فائِدَتِهِ؛ ولَمَّا أَوْقَفَ هؤلاءِ أَوْقاتَهُمْ وتَفَرَّغُوا لِمَنْفَعَةِ النَّاسِ؛ فَلَهُمْ مِنْ بَرَكَةِ الأَجْرِ بِقَدْرِ مَنْ ينتفِعُ بأعمالِهِمْ.. فإذا عاشَ المُخْتَصُّونَ هذِهِ المعانِيَ، وأَخْلَصُوا للهِ تعالَىٰ فيها؛ سيعيشونَ ساعَتَها جَوًّا مِنَ العِبادَةِ الحَقِيقِيَّةِ والرَّوْحانِيَّةِ الصادِقَةِ، التِي تَفُوقُ مَا يَجِدُهُ العابِدُ فِي مُعْتَكَفِهِ، وفِي مِحْرابِ صلاتِهِ، وسَيَسْتَشْعِرُونَ الفَرَحَ بِأَعْمالِهِمْ، وسَيَسْتَمْتِعُونَ ويَلْتَذُّونَ بأوقاتِهِمْ أكثرَ مِن الْتِذاذِ صاحِبِ الطَّرَبِ بِطَرَبِهِ؛ وسيكونُ ثَمَّ الإِبْداعُ اللَّامَسْبوقُ.

احْتِراسٌ[1] نَبِيهٌ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «ولَكِنَّنا مَعَ هَذَا، يَجِبُ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ هَؤُلاءِ[2] لَيْسُوا هُمُ الذِينَ يُوَجِّهُونَ الحَياةَ، أَوْ يَخْتارُونَ للبَشَرِيَّةِ الطَّرِيقَ.. إنَّ الرُّوادَ كَانُوا دَائِمًا -وسَيَكُونُونَ- هُمْ أَصْحابَ الطَّاقَاتِ الرُّوحِيَّةِ الفَائِقَةِ، هَؤُلاءِ هُمُ الذينَ يَحْمِلُونَ الشُّعْلَةَ المُقَدَّسَةَ، التِي تَنْصَهِرُ فِي حَرَارَتِها كُلُّ ذَرَّاتِ المَعَارِفِ، وتَنْكَشِفُ فِي ضَوئِهَا طَرِيقُ الرِّحْلَةِ، مُزَوَّدَةً بِكُلِّ هَذِهِ الجُزْئِيَّاتِ، قَوِيَّةً بِهَذَا الزَّادِ، وَهِيَ تَغُذُّ السَّيْرَ[3] نَحْوَ الهَدَفِ السَّامِي البَعِيدِ!».

* يَحْتَرِسُ سيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- مِنْ أَنْ يُفْهَمَ تَوجِيهُهُ هَذا خطأً؛ فيغْلُو[4] المُفَكِّرونَ فِي هَذَا الأَمْرِ، ويغلِبُ علَىٰ قيادَةِ الدَّعْوَةِ هؤلاءِ المُخْتَصُّونَ الحَاذِقُونَ فِي مَجَالاتِهِمْ.. إنَّ الإبدَاعَ والتَّفَوُّقَ فِي تَخَصُّصٍ مِنَ التَّخَصُّصاتِ لَا يُؤَهِّلُ صَاحِبَهُ لقيادَةِ الدَّعْوَةِ وتَقَدُّمِ رَكْبِها، وإِنَّمَا يعنِي خِدْمَةَ الدَّعْوَةِ والأُمَّةِ بِما عِنْدَهُمْ مِنْ خيرٍ، ويُؤَهِّلُهُ لقيادَةِ مَا تَخَصَّصَ فيهِ مِنْ فَنٍّ أَوْ عِلْمٍ أو صِناعَةٍ.. ويُخْشَىٰ إِنْ غَلَبَ هؤلاءِ علَىٰ قيادَةِ الدَّعْوَةِ أَنْ تَغْلِبَ علَىٰ الدَّعْوَةِ الحساباتُ المادِيَّةُ المُجَرَّدَةُ عَنِ حساباتِ الأَفْكارِ الكَبيرَةِ الرشيدةِ المَوْزُونَةِ؛ فَتَنْحَرِفُ

---

(1) الاحْتِراسُ: الحَذَرُ والتَّوَقِّي والتَّحَفُّظُ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 6/ 48.

(2) قوله: (هَؤُلاءِ) إشارة إلىٰ المتخصصين المبدعين في فروع العلوم وفنونها، الوارِدِ ذِكْرُهُمْ فِي الفِقْرَةِ السابِقَةِ.

(3) تَغُذُّ السَّيْرَ: تسرع في السير، والإغْذاذُ: الإسراعُ في السيرِ، انظر: معجم العين للخليل: 4/ 344.

(4) الغلوُّ: مجاوزة الحدّ، والارتفاع في الشيء، وَمِنْه اشتقاق الشَّيْء الغالي؛ لِأَنَّهُ قد ارْتَفع عَن حُدُود الثّمن، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 2/ 961.

الدَّعْوةُ قَليلًا، فَقَليلًا؛ بِتَأْويلاتٍ وَاسِعَةٍ؛ حتَّىٰ تَجِدَ الدَّعوةُ نَفْسَها مَعَ الزَّمَنِ قَدِ ابْتَعَدَتْ كَثيرًا عَنْ مبادِئِهَا وقِيَمِهَا وأَفْكارِهَا التِي طَالَمَا دَعَتْ إِلَيْها، وجاهَدَتْ فِي سبيلِها.. لَا، وإِنَّما يَنْبَغِي أَنْ تَبْقَىٰ السِّيادَةُ والرِّيادَةُ فِي أَيْدِي أصحابِ الفِكْرِ الرَّشيدِ المَوْزونِ؛ فَهُمُ الذينَ يَمْتَلِكُونَ الرُّؤَىٰ الكَاشِفَةَ، والاطِّلاعَ الوَاسِعَ، الذِي يُؤَهِّلُهُمْ إِلَىٰ إِعادَةِ النَّظَرِ، والمُراجَعَةِ المُسْتَمِرَّةِ، والتَّجْديدِ المُتَّزِنِ فِي الرُّؤَىٰ والاسْتِرَاتيجِيَّاتِ؛ وفْقَ مُتَغَيِّراتِ العَصْرِ ومُسْتَجِدَّاتِ الواقِعِ، وهُمْ بِحاجَةٍ حِينَئِذٍ إِلَىٰ الاسْتعانَةِ بالمُخْتَصينَ فِي كُلِّ مَجَالٍ، فَاسْتِشارَاتُ أَصْحابِ التَّخَصُّصاتِ عِنْدَ الحَاجَةِ إِليهِمْ -كُلٌّ فِي مَجالِه- مُهِمَّةٌ جِدًّا؛ حتَّىٰ تَبْقَىٰ الدَّعْوَةُ بِمَأْمَنٍ، وتَبْقَىٰ الفِكْرةُ ناصعَةً آمِنَةً مِنَ الانْحِرافِ مهما طالَ الزَّمانُ.. ويَبْقَىٰ المُبْدعُونَ مِنْ أصحابِ التَّخَصُّصاتِ والعُلومِ والصِّناعَاتِ مَحْكُومينَ لِلْفِكْرَةِ والمُفَكِّرينَ، وتَبْقَىٰ الفِكْرَةُ والمُفَكِّرونَ هُمُ الحَكَمَ علَىٰ غَيْرِهِمْ؛ لَا أَنْ تَكونَ الفِكْرَةُ والمُفَكِّرونَ مَحْكومينَ لِلْمُبْدِعينَ مِنْ أصحابِ العُلُومِ البَحْتَةِ والصِّناعَاتِ والتَّخَصُّصاتِ.

التَّكَامُلُ والشُّمُولُ؛ سبيلُ تَجْديدِ أَمْرِ الدِّينِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «هَؤُلاءِ الرُّوَادُ هُمُ الذينَ يُدْرِكُونَ بِبَصِيرَتِهِمْ تِلْكَ الوَحْدَةَ الشَّامِلَةَ، المُتَعَدِّدَةَ المَظَاهِرِ فِي: العِلْمِ، والفَنِّ، والعَقِيدَةِ، والعَمَلِ، فَلا يَحْقِرُونَ وَاحِدًا مِنْهَا، وَلَا يَرْفَعُونَهُ فَوْقَ مُسْتَواهُ!».

* لا يدركُ شُمولَ العَمَلِ الإسلامِيِّ كُلُّ مَنِ ادَّعَىٰ الفِكْرَ والقيادَةَ؛ فَكَثيرٌ مِنَ المُفَكِّرينَ والدُّعاةِ يَمِيلونَ إِلَىٰ جَانِبٍ علَىٰ حِسابِ آخَرَ، وبَعْضُهُمْ يَنْتَصِرُ لِمَا يميلُ إليهِ، ويَعُدُّهُ الصَّوَابَ الذِي لا صَوابَ سِواهُ، والنَّجاةَ التِي لا نَجاةَ للنَّاسِ بِدُونِها، ويَرْجُم غيرَهُ مِمَّنْ لَهُ

اهتمامٌ بِجوانِبَ أُخْرَىٰ مِنْ جوانِبِ العَمَلِ الإِسْلامِيِّ، ويَعُدُّه انْحِرافًا وابْتِدَاعًا؛ وهذا إِنَّما هُوَ مَسْلَكُ الذينَ قَصُرَتْ رُؤَاهُمْ عَنْ إِدْراكِ الرُؤَىٰ الكُلِّيَّةِ لِمُتَطَلَّباتِ العملِ الإِسْلامِيِّ الكبيرِ، الذِي يُراد لَهُ أَنْ يَحْكُمَ الأُمَّةَ، ويَسْتَوْعِبَ تَفاصِيلَ حَياتِها.

* ولَقَدْ تَنَبَّهَ الأَئِمَّةُ قَدِيمًا إِلَىٰ هذَا الفقه؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[1]. فقدْ ذهبَ العُلماءُ فِي تأويلِ معنَىٰ: (مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) مَذاهِبَ كثيرةً؛ فَقالَ المُحَدِّثُونَ: هُمْ أهلُ الحَديثِ، وقالَ الفُقَهاءُ: هُمْ أَهْلُ الفِقْهِ، وقالَ المُفَسِّرُونَ: هُمُ المُفَسِّرُونَ، وقالَ الوُعَّاظُ: هُمْ أهلُ الوَعْظِ، وقَالَ أهلُ اللُّغَةِ: هُمْ أَهْلُ اللُّغَةِ..؛ وقَدْ أَخَذَ كُلُّ فريقٍ يَنْتَصِرُ لِمَا ذَهبَ إِلَيْهِ، ويستَدِلُّ علَىٰ صِدْقِ قَوْلِهِ بِكُلِّ دَلِيلٍ، وجَعَلَ كُلُّ أصحابِ فَنٍّ يُسَمُّونَ أَئِمَّتَهُمْ المُجَدِّدينَ..؛ أَمَّا المُنْصِفُونَ مِنَ العلماءِ فَقَدْ ذَهَبُوا فِي مَعْنَىٰ التَّجْديدِ مَذْهَبًا جَامِعًا وَاسِعًا، مُسْتَنِدًا علَىٰ نَظَرِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ لِمَعْنَىٰ التَّجْديدِ، ورُؤْيَةٍ شَامِلَةٍ لِمُتَطَلَّبَاتِهِ:

– قَالَ ابْنُ كثيرٍ: «وَقَدِ ادَّعَىٰ كُلُّ قَوْمٍ فِي إِمَامهمْ أَنَّهُ المُرَادُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعُمُّ جُمْلَةً مِنَ العُلماءِ مِنْ كُلِّ طَائِفةٍ وَكُلِّ صِنْفٍ مِنْ مُفَسِّرٍ ومُحَدِّثٍ وفَقِيهٍ ونَحْوِيٍ ولُغَوِيٍ وغَيْرِهِمْ»[2]. يَنْظُمُهُمْ جَميعًا الإمامُ القَائِدُ المُفَكِّرُ الرَّشيدُ، الذِي يُحْسِنُ اسْتِغْلالَ إِمْكاناتِهِمْ وطاقَاتِهِمْ جَمِيعِها، ويُكَامِلُ بَيْنَها، ويُعْطِي كُلَّ جانبٍ وَزْنَهُ الذِي يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الاهْتِمامِ والأَوْلَوِيَّةِ؛ فلا يَطْغَىٰ جانِبٌ علَىٰ آخَرَ.

---

(1) رواه أبو داود في سننه، بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي قَرْنِ الْمِائَةِ: 4/ 109، وَصَحَّحَهُ الألباني.

(2) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمُنَاوِيِّ: 2/ 281.

- وقالَ ابْنُ حَجَرٍ: «لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ واحِدٌ فَقَطْ؛ فَإِنَّ اجْتِماعَ الصِّفاتِ المُحْتاجِ إِلَىٰ تَجْدِيدِها لا يَنْحَصِرُ فِي نَوْعٍ مِنْ أنواعِ الخَيْرِ، ولا يَلْزَمُ أَنَّ جميعَ خِصالِ الخَيْرِ كُلِّها فِي شَخْصٍ واحِدٍ، إِلَّا أنْ يُدْعَىٰ ذَلِكَ فِي عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ؛ فإنَّهُ كانَ القائِمَ بالأَمْرِ علَىٰ رَأْسِ المِائَةِ الأُوْلَىٰ؛ باتِّصافِهِ بِجَمِيعِ صِفاتِ الخَيْرِ وتَقَدُّمِهِ فِيهَا»[1].

ولَقَدْ كانَ عُمَرُ بْنُ عبدِ العزيزِ ﷺ كذلِكَ؛ لأَنَّهُ أَحْسَنَ اسْتِغْلالَ الأُمَّةِ أَتَمَّ اسْتِغْلالٍ، وَوَجَّهَهَا أَعْظَمَ تَوْجِيهٍ، وكانَ أَمِينًا علَىٰ مُقَدَّراتِهَا؛ ولَمَّا رآهُ اللهُ تعالَىٰ كذلِكَ؛ فَتَحَ لَهُ بَرَكَاتٍ مِنَ السماءِ والأَرْضِ؛ حتَّىٰ فَاضَ المالُ فِي بَيْتِ مالِ المُسْلمينَ؛ فَلَمْ يَدَعْ ﷺ فقيرًا إلا أَغْناهُ، وَلَا أَعْزَبَ إِلَّا زَوَّجَهُ، ولَا كَسِيرًا إِلَّا جَبَرَهُ، كُلُّ ذَلِكَ فِي زَمَنٍ قَصيرٍ مِنْ خِلَافَتِهِ لا يَتَّسِعُ لِكُلِّ هَذِهِ التَّغْيِيرَاتِ عادَةً؛ وهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ تَعالَىٰ فِي أَوْلِيائِهِ الصادقينَ؛ فَمَنْ رَآهُ مُسْتَحِقًّا للتَّوْفِيقِ؛ قَائِمًا بِأَسْبابِهِ؛ وفَّقَهُ اللهُ تعالَىٰ، وأَرَاهُ مِنْ حُسْنِ صَنِيعِهِ بِهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُ علَىٰ بَالٍ؛ فَأَمْرُ البِلادِ والعِبادِ بِيَدِ اللهِ تعالَىٰ، ونَصْرُهُمْ عَلَيهِ هَيِّنٌ، وغِنَاهُمْ عَلَيْهِ هَيِّنٌ، وعِزُّهُمْ عليهِ هَيِّنٌ كذلكَ؛ فَما عَلَيْهِمْ إِلَّا أنْ يَقُومُوا بالأسبابِ؛ ثُمَّ لِيَنْتَظِرُوا مُوعودَ اللهِ تعالَىٰ.

وقَالَ أبو السعاداتِ، مَجْدُ الدِّينِ ابْنُ الأَثِيرِ: «قدْ تَكَلَّمَ العُلَماءُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الحديثِ، كُلُّ واحِدٍ فِي زمانِهِ، وأشارُوا إِلَىٰ القَائِمِ الذِي يُجَدِّدُ للناسِ دِينَهُمْ علَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ، وكَأَنَّ كُلَّ قائِلٍ قَدْ مالَ إِلَىٰ مَذْهَبِهِ، وحَمَلَ تأويلَ الحديثِ عليهِ؛ والأَوْلَىٰ أَنْ يُحْمَلَ الحديثُ علَىٰ العُمومِ، فإنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»؛ ولا يلزمُ مِنْهُ أَنْ يكونَ المَبْعوثُ علَىٰ رَأْسِ المِائَةِ رَجُلًا وَاحِدًا، وإِنَّما قَدْ يكونُ واحِدًا، وقَدْ يكونُ أَكْثَرَ مِنْهُ، فَإِنَّ لَفْظَةَ (مَنْ) تَقَعُ علَىٰ الواحِدِ والجَمْعِ، وكذلِكَ لا

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 13/ 295.

يلزَمُ منهُ أنْ يكونَ أرادَ بالمَبْعوثِ: الفُقهاءَ خاصَّةً، كَما ذهبَ إليهِ بعضُ العُلَماءِ، فإنَّ انْتِفاعَ الأُمَّةِ بالفُقَهاءِ، وإنْ كانَ نَفْعًا عامًّا فِي أمُورِ الدِّينِ، فإنَّ انْتِفاعَهُمْ بغيرِهِمْ أيضًا كثيرٌ، مِثْلِ: أُولِي الأَمْرِ، وأصحابِ الحديثِ، والقُرَّاءِ، والوُعَّاظِ، وأصحابِ الطَّبَقَاتِ مِنَ الزُّهَّادِ، فإنَّ كُلَّ قَوْمٍ يَنْفَعونَ بِفَنٍّ لَا ينفعُ بِهِ الآخَرُ، إذِ الأَصْلُ فِي حِفْظِ الدِّينِ حِفْظُ قَانُونِ السِّياسَةِ، وبَثُّ العَدْلِ والتَّنَاصُفِ الذِي بِهِ تُحْقَنُ الدِّماءُ، ويُتَمَكَّنُ مِنْ إقامَةِ قَوانينِ الشَّرْعِ، وهَذَا وظيفةُ أُولِي الأَمْرِ، وكذلِكَ أَصْحابُ الحديثِ: يَنْفَعُونَ بِضَبْطِ الأحاديثِ التِي هِيَ أَدِلَّةُ الشَّرْعِ، والقُرَّاءُ ينفعونَ بِحِفْظِ القِراءَاتِ وضَبْطِ الرِّواياتِ، والزُّهادُ ينفعونَ بالمَواعِظِ والحَثِّ علَىٰ لُزُومِ التَّقْوَىٰ والزُّهْدِ فِي الدُّنْيا؛ فَكُلُّ واحِدٍ يَنْفَعُ بغيرِ مَا يَنْفَعُ بِهِ الآخَرُ، لكنَّ الذِي ينبَغِي أَنْ يكونَ المبعوثَ علَىٰ رَأْسِ المِائَةِ رَجُلًا مَشْهُورًا مَعْروفًا، مُشَارًا إِلَيْهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ هَذِهِ الفُنُونِ، فَإِذا حُمِلَ تأويلُ الحديثِ علَىٰ هَذَا الوَجْهِ كانَ أَوْلَىٰ، وأَبْعَدَ مِنَ التُّهْمَةِ، وأَشْبَهَ بالحِكْمَةِ، فإنَّ اخْتِلافَ الأَئِمَّةِ رَحْمَةٌ، وتَقْريرَ أَقْوالِ المُجْتَهدينَ مُتَعَيِّنٌ، فإذا ذَهَبْنَا إِلَىٰ تَخْصيصِ القولِ علَىٰ أَحَدِ المَذَاهِبِ، وَأَوَّلْنَا الحديثَ عَلَيْهِ، بَقِيَتِ المذاهبُ الأُخْرَىٰ خَارِجَةً عَنِ احْتِمالِ الحديثِ لَهَا، وكَانَ ذلِكَ طَعْنًا فِيها. فالأَحْسَنُ والأَجْدَرُ أَنْ يكونَ ذلِكَ إشارةً إِلَىٰ حُدُوثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الأَكَابِرِ المَشْهورينَ علَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ يُجَدِّدُونَ للنَّاسِ دِينَهُمْ، ويحَفْظُونَ مَذاهِبَهُمْ التِي قَلَّدُوا فِيها مُجْتَهِديهِمْ وأَئِمَّتَهُمْ»[1].

وَقَدْ أشارَ العلماءُ -رحمَهُمُ اللهُ تعالَىٰ- فِي معنَىٰ التجديدِ إلىٰ ما يلزَمُ عصورَهُمْ التِي عاشُوها، أَمَّا فِي عَصْرِنَا فإنَّ مُتَطَلَّباتِ التَّجْديدِ أَضْحَتْ أوسعَ وأكثرَ، فَهِي بحاجَةٍ بالإضافَةِ إِلَىٰ جميعِ مَا ذُكِرَ إِلَىٰ مُتَطَلَّباتِ العَصْرِ التِي لَا غِنَىٰ للناسِ عَنْها مِنْ علوم: الرِّياضياتِ،

(1) جامع الأصول في أحاديث الرسول، لأبي السعادات، مجد الدين ابن الأثير: 11/ 319.

والفيزياءِ، والأحياءِ، والكيمياءِ، والطِّبِّ، والهندَسَةِ، والتكْنُولُوجْيَا العَصْرِيَّةِ، وعلومِ الاقتصادِ والمالِ، والعُلُومِ الاجْتِماعِيَّةِ والإنسانِيَّةِ والفَنِّيَّةِ، والصناعاتِ: الغِذَائِيَةِ والمَدَنِيَّةِ والحَرْبِيَّةِ..

وهذَا المَعْنَىٰ مِنْ تَكَامُلِ العَمَلِ، وعَدَمِ احْتِقارِ شَيْءٍ مِنْها يَصْدُقُ علَىٰ تفاصيلِ جميعِ الأعمالِ والصِّناعاتِ؛ فَخُذْ مَثَلًا صَانِعَ الكُرْسِيِّ، يَتوفَّرُ لَديهِ كُلُّ مُسْتلزماتِ العَمَلِ مِنْ خَشَبٍ وآلاتٍ، ولكِنْ لَوْ قلَّ عددُ المَسامِيرِ الصغيرَةِ التِي تُرْبَطُ بها قوائمُ الكُرْسِيِّ، وتُثَبَّتُ أَرْكانَهُ؛ لَضَعُفَ الكُرْسِيُّ، ولَظَهَرَ فِي صورَةِ كُرْسِيٍّ، لكِنَّهُ لَا يَحْمِلُ شَيْئًا؛ فإذَا وُضِعَ عليهِ مَا يُثْقِلُهُ؛ تَفَكَّكَ وسَقَطَ ومَنْ عَليهِ؛ أَمَّا إِذَا فُقِدَتِ المَسامِيرُ بالكُلِّيَّةِ، ولَمْ يُوجَدْ مَا يُرْبَطُ بِهِ الكُرْسِيُّ، فلا يَقُومُ الكرسِيُّ أَصْلًا، وسَيَبْقَى قِطَعًا مُتَفَرِّقَةً؛ ولمْ يُنْتَفَعْ بِهِ إِلّا حَطَبًا للنارِ؛ وهَذا المثالُ يَنْسَحِبُ علَىٰ كُلِّ عَمَلٍ وكُلِّ صِناعَةٍ؛ كَمَا ينسحِبُ علَىٰ صِناعَةِ الأُمَّةِ القَوِيَّةِ الرَّائِدَةِ بِأَكْمَلِها.

* ولا يدركُ حقيقةَ شمولِ العَمَلِ الإسلامِيِّ، وضرورَةَ اسْتيعابِهِ لكلِّ جُزْئِيَّاتِ العَمَلِ الشَّرْعِيِّ، والعِلْمِيِّ، والمِهَنِيِّ، والفَنِّيِّ، ويُوازِنُ بينَ كُلِّ مجالٍ بِما يَتَطَلَّبُهُ العَصْرُ، وتَحْتاجُهُ الأُمَّةُ؛ فَلا يَرْفعُ جانِبًا علَىٰ حسابِ آخَرَ، ولَا يَتَخَصَّصُ فِي جانِبٍ، ويَحْتَقِرُ غيرَهُ؛ لَا يُدْرِكُ ذلِكَ كُلَّهُ إِلَّا الرُّوَّادُ القادةُ المُجَدِّدُون، المُرَشَّحونَ لقيادَةِ الأُمَّةِ وريادَتِها.

لا تَعَارُضَ بينَ القُوَى المُتَنَوِّعَةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «الصِّغَارُ وَحْدَهُمْ هُمُ الذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هُنَاكَ تَعَارُضًا بَيْنَ هَذِهِ القُوَىٰ المُتَنَوِّعَةِ المَظَاهِرُ؛ فَيُحارِبُونَ العِلْمَ بِاسْمِ الدِّيْنِ، أَوِ الدِّيْنَ بِاسْمِ

العِلْمِ.. ويَحْتَقِرُونَ الفَنَّ بِاسْمِ العَمَلِ، أَوِ الحَيَوِيَّةَ الدَّافِعَةَ بِاسْمِ العَقِيدَةِ المُتَصَوِّفَةِ[1]!.. ذَلِكَ أَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ كُلَّ قُوَّةٍ مِنْ هَذِهِ القُوَىٰ، مُنْعَزِلَةً عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ القُوَىٰ الأُخْرَىٰ الصَّادِرَةِ كُلِّهَا مِنَ النَّبْعِ الوَاحِدِ، مِنْ تِلْكَ القُوَّةِ الكُبْرَىٰ المُسَيْطِرَةِ عَلَىٰ هَذَا الوُجُودِ[2]!.. ولَكِنَّ الرُّوادَ الكِبَارَ يُدْرِكُونَ تِلْكَ الوَحْدَةَ؛ لِأَنَّهُمْ مُتَّصِلُونَ بِذَلِكَ النَّبْعِ الأَصِيلِ، ومِنْهُ يَسْتَمِدُّونَ!..».

---

(1) المُتَصَوِّفَةُ: اسم للمنتسبين للصوفية، والتصوف اسمٌ لِتَرْكِ الدنيا تمامًا، والتصوف خلاف الزهد، فبينما التصوف دعوة لترك الدنيا تمامًا، فإن الزهد عبارة عن ترجيح الآخرة علىٰ الدنيا. فإن التصوف أَمْرٌ زائد وطارئ علىٰ الزهد. وقد اختلف في نسبة التسمية، فقيل: كان في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك، فقيل: صوفي. وقيل: إنما سميت الصوفية صوفية؛ لصفاء أسرارها. وقيل: الصوفي من صفت لله معاملته. إنما سموا صوفية؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ﷻ بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسائرهم بين يديه. وقال قوم: إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة. وقيل: إنما سموا صوفية للبسهم الصوف، وتركهم للباس الناعم. وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا، فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد. وللتصوف كيانه وهيئته، ونظامه وأصوله، وقواعده وأسسه، وكتبه ومؤلفاته ورسائله ومصنفاته، كما أن له رجالًا وسدنة وزعماء وأعيانًا، انظر: التَّصَوُّفُ.. المنشَأ وَالمَصَادر، لإحسان إلهي ظهير: 1/ 20، والصوفية فرق ومشارب، فمنهم اللازم للحق، مع سلوك منهج الصوفية في تربية النفس، والارتقاء بالروح، ومنهم المُخَلِّطُ، ومنهم البعيد عن الحق، السالك طريق الهَلَكَةِ في باب الاعتقاد، ولا يحكم عليهم جميعًا بحكم واحد.

(2) كان الأَوْلَىٰ والأسلم بسيد -رحمه الله تعالىٰ- عند الحديث عن أسماء الله تعالىٰ وصفاته وأفعاله أن يلزم الحقيقة مما سمىٰ الله تعالىٰ به نفسه، أو وصف به ذاته العَلِيَّةَ، وأن يعدل عن الكناية والمَجاز في هذا الباب الدقيق؛ خشية الوقوع في الزلل؛ فإن الراعي حول الحِمَىٰ؛ يوشك أن يرتع فيه؛ فيقول مثلًا: (من قوة الله تعالىٰ، أو من قوة القوي المالك للأكوان) وما أشبه ذلك؛ بدلًا من قوله: (مِنْ تِلْكَ القُوَّةِ الكُبْرَىٰ

* يُشَبِّهُ سيِّدٌ الذينَ لا يُدْركونَ ضرورةَ تكامُلِ أدوارِ أبناءِ الأُمَّةِ، ويميلُونَ إِلَىٰ جانبٍ علَىٰ حسابِ الآخَرِ، ويحتَقِرُونَ شيئًا ويُعْلونَ مِنْ آخَرَ؛ يُشَبِّهُهُمْ بالصِّغارِ الذينَ لا يُدْركونَ الأمورَ علَىٰ وَجْهِها الصحيحِ؛ فيرَىٰ كُلُّ طِفْلٍ صِناعَةَ أبيهِ هِيَ الصِّناعَةَ الأَفْضَلَ، ويَرَىٰ أباهُ هُوَ الصانِعَ الأَكْمَلَ، فلا يرَىٰ مِنَ الدُّنْيا إِلَّا أباهُ، وذلِكَ لِعَدَمِ كَمالِ إِدْرَاكِهِمْ، ونَقْصِ عُقُلِهِمْ.

* وهكَذَا هؤلاءِ الذينَ يَرَوْنَ الحَقَّ والصلاحَ فِي جانِبٍ واحدٍ ويحتقرونَ ما سِواهُ، فيرَوْنَ تَعارُضًا بينَ علومِ الدِّيْنِ والعلومِ البَحْتَةِ، فيرونَ إنفاقَ الوَقْتِ فِي دراسَةِ العلومِ البَحْتَةِ مَضْيَعَةً للوقْتِ، وإنفاقًا للأموالِ فِي غيرِ مَحِلِّها؛ كَمَا يرونَ تَعارُضًا بينَ العَمَلِ والفَنِّ والرِّياضةِ، فينظرونَ إِلَىٰ الفَنِّ والرِّياضَةِ نَظْرَةً مُحْتَقَرَةً، وأَنَّهُ لا فائِدَةَ فِيها، وأَنَّهَا هَدْرٌ للأوقاتِ التِي هِيَ أغْلَىٰ ما يملكُ الإنسانُ؛ كَما يرونَ تَعارُضًا بينَ العبادَةِ الخاشِعَةِ، والسَّعْيِ الحثيثِ[1] لِجَمْعِ المالِ، وكَسْبِ الرِّزْقِ؛ فيعتقدونَ أَنَّ السَّعْيَ لِطلَبِ الرِّزْقِ وكَسْبِ القوتِ مُنافٍ للتَّوَكُّلِ، وحِرْصٌ علىٰ الدُّنْيا التِي ذمَّها اللهُ تعالَىٰ، ومَشْغَلَةٌ للعَبْدِ عَنْ

المُسَيْطِرَةِ عَلَىٰ هَذَا الوُجُودِ). ويبدو أن فكرة التصوير الفني مسيطرة علىٰ كتابات سيد؛ فإنه بنىٰ كتاباته رحمه الله تعالىٰ علىٰ نظريتين:

الأولىٰ: نظرية في الشكل: وهي نظرية التصوير الفني؛ فتكاد ترىٰ كلمات سيد وعباراته حية متحركة ناطقة، له صورة وصوت وحركة؛ من روعة تصويره الفني، ورشاقة عباراته البديعة. وقد أتىٰ رحمه الله تعالىٰ في هذا الباب بما لم يُسْبَقْ لمثله.

والثانية: نظرية في الجوهر المضمون: وهي نظرية الإصلاح المجتمعي، والعودة بالأمة إلىٰ الصدارة، وما يلزم ذلك من وسائل ومناهج وأفكار. ولا تكاد تقرأ شيئًا لسيد إلا وتجده يلح علىٰ هاتين النظريتين.

(1) الحثيث: السريع، ورجل حثيث ومحثوث: جاد سريع في أمره كأن نفسه تحثه، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 2/ 130.

رَبِّهِ؛ وما عَلِمَ هؤلاءِ أنَّ العَبْدَ كُلَّ العَبْدِ هوَ الذي يَتَعَبَّدُ ربَّهُ بالعلومِ البَحْتَةِ، كَما يَتَعَبَّدُهُ بالعلومِ الشَّرْعِيَّةِ، ويتعبَّدُهُ بالرِّياضَةِ والفَنِّ كما يتعبَّدُهُ بالعملِ الدَّعَوِيِّ الدَّؤوبِ، ويتعبَّدُهُ بالسَّعْيِ فِي طلَبِ الرِّزْقِ كَما يتعبَّدُهُ فِي محرابِ الصَّلاةِ؛ فَكُلٌّ فِي مَكانِهِ عابِدٌ إذا أَحْسنَ اسْتِغْلالَ مَوْقِعِهِ في مَرْضاةِ اللهِ تعالَىٰ، وأَحْسَنَ تَوْجيهَ قُدُراتِهِ، وأَخْلَصَ للهِ تعالَىٰ فِي ذلكَ؛ فَإِنَّ خَاصَّةَ المُخْلِصينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مُبَاحٌ مُسْتَوِي الطَّرَفَيْنِ؛ فَهُمْ يَقْلِبُونَ المُباحَاتِ قُرُباتٍ وعِبَادَاتٍ بالنِّيَّةِ.

* وإنَّمَا وقعَ هؤلاءِ فِي النَّقْصِ والخَلَلِ؛ لأنَّهم أَدْرَكُوا الأمورَ علَىٰ غيرِ حَقِيقَتِها؛ فَنَظَرُوا إِلَىٰ المعارِفِ والعُلومِ والصناعاتِ والتَّخَصُّصاتِ نَظْرَةً جُزْئِيَّةً؛ فَرَأَوْا كُلَّ شَيْءٍ مِنْ زاويَةٍ واحِدَةٍ، مُنْعَزِلَةٍ عَنْ مَجْمُوعِ المعارفِ والعلومِ والصِّناعاتِ والتَّخَصُّصاتِ الصَّادِرَةِ كُلِّهَا عنِ اللهِ تَعالَىٰ، وكَامَلَ بينَهَا، وأَخْدَمَ الإِنْسانَ بِهَا مُجْتَمِعَةً، وطَلَبَ مِنْهُ أنْ يكونَ خليفَةً عليهَا كُلِّها. ولَوْ أَنَّهُمْ نظرُوا إِلَىٰ هذهِ الأشياءِ نظرةً كُلِّيَّةً، مُحيطَةً بِهَا مِنْ جميعِ جَوانِبِهَا، ورَأَوْا ارْتِباطَهَا بِغَيْرِهَا، ورَأَوْا ارْتِباطَ غَيْرِهَا بِهَا؛ وهَكَذَا حتَّىٰ تَكْتَمِلَ الدَّائِرَةُ؛ لَمَا وَقَعُوا فِي الشَّطَطِ[1] والنَّقْصِ والخَلَلِ.

(1) الشطط: الجور والظلم والبعد عن الحق، الشَّطَطُ: مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 7/ 334، ومختار الصحاح، للرازي: 1/ 165.

قِلَّةُ الرُّوَادِ صِحَّةٌ وكِفَايَةٌ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّهُمْ قَليلُون.. قَلِيلُونَ فِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ.. بَلْ نَادِرُونَ! ولَكِنْ مِنْهُمُ الكِفَايَةُ.. فَالقُوَّةُ المُشْرِفَةُ عَلَىٰ هَذَا الكَوْنِ هِيَ التِي تَصُوغُهُمْ[1]، وتَبْعَثُ بِهِمْ فِي الوَقْتِ المُقَدَّرِ المَطْلُوبِ!».

* وهَذَا الصِّنْفُ مِنْ رُوَّادِ الفِكْرِ وأَئِمَّةُ الدِّيْنِ المُتَوازِنُونَ الراشدونَ قليلونَ نَادِرُونَ؛ كَقِلَّةِ الرَّاحِلَةِ بينَ الإِبلِ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمِائَةِ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً[2]»[3].

* وهُمْ قليلونَ؛ لأَنَّ التَّجَرُّدَ عنْ حَظوظِ النَّفْسِ صَعْبٌ شَاقٌّ عَسيرٌ، لَا يستطيعُهُ كُلُّ أَحَدٍ، ولِأَنَّ الرِّيادَةَ والقِيادَةَ والنَّجابَةَ لا يَصْلُحُ لَهَا إلا القليلُ، وإِنَّما يُحْسِنُها مَنْ كَمُلَ فيهِ العِلْمُ الواسِعُ والفِكْرُ المُسْتَنيرُ، والتوازُنُ الرَّشيدُ، والعَمَلُ المُتواصِلُ الدَّؤُوبُ، والأَمَانَةُ العالِيَةُ، وقَلَّ أَنْ تَجْتَمِعَ هذِهِ كُلُّهَا فِي واحِدٍ؛ ولكِنْ هذِهِ القِلَّةُ لَا تَضُرُّ، بَلْ هِيَ مَصْلَحَةٌ؛ فإِنَّ

---

(1) الأسلم أن يُقال هنا مثلًا: (اللهُ تعالىٰ، المُدَبِّرُ أمر الأكوان، هو الذي يخلقهم، ويهيِّئُهم) وما أشبه ذلك؛ بدلًا من قوله: (فَالقُوَّةُ المُشْرِفَةُ عَلَىٰ هَذَا الكَوْنِ، هِيَ التِي تَصُوغُهُمْ)، سلوكًا لطريق السلامة في باب الأسماء والصفات.

(2) الرَّاحِلَةُ: الجمل النجيب الذي يصلح لسير الأسفار ولحمل الأثقال. ومعنىٰ الحديث: يأتي زمان يكون الناس فيه كثيرين، ولكنَّ المَرْضِيَّ مِنْهُمْ، والذي يلتزم شرع الله ﷻ قليل؛ شأن الإبل الكثيرة التي تبلغ المائة، ولا تكاد توجد منها واحدة تصلح للركوب والانتفاع بها. أو المراد أن الناس دائما شأنهم هكذا الصالح فيهم قليل، انظر: شرح مصطفىٰ البُغَا علىٰ صحيح البخاري: 8/ 104.

(3) رواه البخاري في صحيحه، بَاب رَفْعِ الْأَمَانَةِ: 8/ 104.

الواحِدَ مِنْهُمْ بِأُمَّةٍ؛ فَلَقَدْ صَلُحَتِ الأُمَّةُ بالرِّجالِ: كأمثالِ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ ﷺ؛ رجلٌ واحِدٌ أصلَحَ اللهُ تعالَىٰ بِهِ رُكَامَ قُرنٍ مِنَ الزَّمَنِ، وكَصَلاحِ الدِّينِ أصلَحَ اللهُ تعالَىٰ بِهِ الأُمَّةَ بعدَ أَنْ تَمَزَّقَتْ كُلَّ مُمَزَّقٍ.

* ولَوْ كَثُرَتْ هذِهِ المَعَادِنُ فِي النَّاسِ؛ لَوَقَعَ الخَلَلُ، ولَتَنازَعُوا الإِمَامَةَ، ورَأَىٰ كُلُّ واحِدٍ أَنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، ولَمَا سلَّمَ أَحَدُهُمْ للآخَرِ، ولَمَا تَفَرَّدَ فِي النَّاسِ هؤلاءِ الرُّوادُ وتَمَيَّزُوا؛ أَكْبَرَهُمُ الناسُ وأَجَلُّوهُمْ وقَدَّمُوهُمْ ودَانُوا لَهُمْ طَائعينَ؛ وهذَا حالُ المُتَمَيِّزينَ فِي كُلِّ مجالٍ.

* واللهُ تعالَىٰ الرَّحيمُ بعبادِهِ، العليمُ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، يُعِدُّ هؤلاءِ الأَئِمَّةَ الرُّوَّادَ، ويُرَبِّيهِمْ بِحِكْمَتِهِ، ويَصْنَعُهُم علَىٰ عَيْنِهِ، ويُؤَهِّلُهُمْ للدَّوْرِ المَنُوطِ بِهِمْ فِي الخَفَاءِ؛ ويُخْرِجُهُمْ للنَّاسِ فِي أَمَسِّ حَاجَتِهِمْ، وأَشَدِّ اضْطِرَارِهِمْ إِلَيْهِمْ؛ بِعِلْمٍ وحِكْمَةٍ وخِبْرَةٍ وَرَحْمَةٍ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(1) البقرة: 143.

القاعدةُ التَّاسعةُ

التَّوَازُنُ الرَّشيدُ بينَ الغَيْبِ المَجْهُولِ، والعَمَلِ الدَّؤُوبِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**الاسْتِسْلامُ المُطْلَقُ لِلاعْتِقَادِ فِي الخَوارِقِ[1] والقُوَىٰ المَجْهُولَةِ خَطَرٌ؛ لِأَنَّهُ يَقُودُ إِلَىٰ الخُرَافَةِ[2].. ويُحَوِّلُ الحَياةَ إِلَىٰ وَهْمٍ[3] كَبيرٍ!**».

* يُشيرُ سيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- هُنَا إِلَىٰ مَنْهَجٍ رشيدٍ مِنْ مناهِجِ أصحابِ الفِكْرِ والعقيدةِ المُسْتقيمَةِ، إِنَّهُ التَّوازُنُ الحكيمُ بينَ الواقِعِيَّةِ والعَقْلَانِيَّةِ التِي تَقُودُ إِلَىٰ الإعدادِ المُسْتَمِرِّ، ومُواكَبَةِ كُلِّ جديدٍ، وتَحَدِّي المَخَاطِرِ، ومُواجَهَتِهَا بِكُلِّ مَا وَهَبَ اللهُ تعالَىٰ الإنسانَ مِنْ قُوَّةٍ، والأَخْذِ بكَامِلِ أَسْبابِ النَّجاحِ والتَّحَدِّي والمُواجَهَةِ والرِّزْقِ والصِّحَّةِ..، وبينَ الإيمانِ بالغَيْبِ، وبأَنَّ وراءَ مَا نُبْصِرُ مَا لَا نُبْصِرُ، وَوَراءَ مَا نسمَعُ مَا لا نسمَعُ، ووراءَ

---

(1) الخرق، أي: ما انخرق من الشيء وبان منه، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 10/ 73. والمقصود بالخوارق: خوارق العادات، وهو ما جاء من الأمور علىٰ غير العادة.

(2) الخُرافة: الحَدِيث المستملح من الْكَذِب، وقالوا: حديث خرافة، والخرف: فَسَاد الْعقل من الْكبر، والمقصود هنا الخيالات الكاذبة، غير الحقيقية، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 9/ 65، وجمهرة اللغة، لابن دريد: 1/ 588.

(3) الوَهْمُ: التَّخَيُّلُ، والوهم: من خَطَرَاتُ القلب، وتَوَهَّمَ الشيء: تَخَيَّلَهُ وتَمَثَّلَهُ، كانَ في الوجودِ أَوْ لم يكنْ. وَتَوَهَّمْتُ الشيءَ، وتَفَرَّسْتُهُ، وتَوَسَّمْتُهُ، وتَبَيَّنْتُهُ؛ بمعنىٰ واحد، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 643.

ما نعلمُ مَا لا نَعْلَمُ، وفَوْقَ إرادَةِ البَشَرِ وقُوَّتِهِمْ وتدبيرِهِمْ إرادَةَ اللهِ تعالَىٰ وقُوَّتَهُ وتَدْبيرَهُ، وأنَّ إرادَةَ البَشَرِ وقُوَّتَهُمْ وتدبيرَهُمْ محكومةٌ مَرْبُوبَةٌ مُدَبَّرَةٌ.

* وعَلَىٰ العاملينَ أَنْ يُوازِنُوا بينَ هَذِه وتلكَ، فَلا يَسْتَسْلِمُوا اسْتِسْلامًا مُطْلقًا للغيبِ المَجْهولِ، الذِي يَقُودُهُمْ إِلَىٰ تَوَهُّمِ مَا لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فِي سُنَنِ اللهِ تَعالِىٰ الجاريةِ علَىٰ البَشَرِ والدَّعَواتِ، وإِلَىٰ خَيالَاتٍ بعيدَةٍ يَسْتَغْرقونَ فيها إِلَىٰ حَدِّ الإِخْلَادِ[1] والاسْتِسْلامِ إِلَيْها؛ فهذَا الوهمُ وهذِهِ التَّخَيُّلاتُ تَقُودُ العاملينَ إِلَىٰ القُعُودِ عَنِ العملِ والإعدادِ، وانْتِظارِ الغيبِ المَجْهولِ الذِي يأتيهِمْ بالخَوارِقِ والعجائِبِ: مِنْ رِزْقٍ وعِلْمٍ وقُوَّةٍ ونَصْرٍ..

* هذِهِ الأوهامُ والتَّخَيُّلاتُ عذْبَةٌ مُمْتِعَةٌ حينَ يستغرِقُ فيها العاملونَ، فِرارًا مِنَ الواقِعِ الصَّعْبِ المُعَقَّدِ الذِي يعيشونَ، ولا يُدْرِكُونَ للخلاصِ منْهُ سبيلًا.. هوَ عَذْبٌ إِلَىٰ حَدِّ أَنَّ مَنْ يُدْمِنُ هذِهِ الخَيالاتِ والأوهامَ؛ يَسْتَلِذُّ بِها أكثرَ مِمَّا يُسْتَلَذُ بِشَهِيِّ الطعامِ والشرابِ والأذواقِ، ولا يُحِبُّ أنْ يخرُجَ مِنْها إِلَىٰ الحَقيقَةِ والواقِعِ، وكُلَّما اصْطَدَمَ بالواقِعِ الذِي يعيشُ فَرَّ مِنْه إِلَىٰ تلكَ الخيالاتِ والأوهامِ؛ واجدًا فيها الحَلَّ النَّفْسِيَّ السريعَ لِكُلِّ الهُمومِ والمشاكِلِ والتَّعْقيداتِ؛ ولكِنَّهُ خَطَرٌ شديدٌ؛ لأنَّها تُسْلِمُهُ فِي النِّهايَةِ إِلَىٰ الفَشَلِ والقعودِ والاسْتِسْلامِ؛ حينَ يَصْطَدِمُ بالواقِعِ المريرِ بعدَ فواتِ الأَوَانِ؛ وحين يُدْرِكُ عَجْزَهُ عَنِ التَّحَدِّي والمُواجَهَةِ.

(1) الإِخْلَادُ: الركون، واللزوم والبقاء، وخلد يخلد خلدًا وخُلودًا: بقي وأقام، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 3/ 164.

التَّنَكُّرُ للغَيْبِ خَطَرٌ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «وَلَكِنَّ التَّنَكُّرَ المُطْلَقَ لِهَذَا الاعْتِقَادِ لَيْسَ أَقَلَّ خَطَرًا؛ لِأَنَّهُ يُغْلِقُ مَنَافِذَ المَجْهُولِ كُلِّهِ، ويُنْكِرُ كُلَّ قُوَّةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ؛ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ إِدْرَاكِنَا البَشَرِيِّ، فِي فَتْرَةٍ مِنْ فَتَرَاتِ حَيَاتِنَا! وبِذَلِكَ يُصَغِّرُ مِنْ هَذَا الوُجُودِ: مَسَاحَةً، وطَاقَةً، وقِيمَةً كَذَلِكَ، ويُحِدُّهُ بِحُدُودِ المَعْلُومِ، وهُوَ -إِلَىٰ هَذِهِ اللَّحْظَةِ حِينَ يُقَاسُ إِلَىٰ عَظَمَةِ الكَوْنِ- ضَئِيلٌ.. جِدُّ ضَئِيلٍ!».

* وكَمَا أَنَّ الاسْتِسْلامَ للغَيْبِ اسْتِسْلامًا مُطْلقًا، وانْتِظارَ الخَوارِقِ والقُوَىٰ المَجْهُولَةِ خَطَرٌ ومُغامَرَةٌ؛ فكذلكَ التَّنَكُّرُ المُطْلَقُ للغيبِ المَجْهولِ لا يَقِلُّ خَطرًا ومُغامَرَةً، بَلْ لَعلَّهُ أَشَدُّ خَطرًا، وأَكْبَرُ مَغَامَرَةً؛ فإنَّ الغيبَ غيرَ المُدْرَكِ للإنسانِ لَهُ أَكْبَرُ الأَثَرِ فِي توجيهِ حياةِ الإنسانِ الفَرْدِ، وحياةِ الجماعاتِ والأُمَمِ، فإنَّ حَدَثًا مَا يَفْجَأُ النَّاسَ مِمَّا كانَ مَسْتُورًا قبلَ لَحَظاتٍ كَفيلٌ بِتَحْوُّلِ مَجْرَىٰ الحياةِ كلِّها مِنْ حيثُ لا يحتسِبُ الحاسبُونَ، وهذا مَا يَشْهَدُ لَهُ تَاريخُ حياةِ البَشَرِيَّةِ؛ فَخُذْ مَثَلًا غزوةَ الأحزابِ: بَيْنَما كانَ المُسْلمونَ أَيَّامَ الخَنْدَقِ مُحاصَرينَ مِنْ كُلِّ جانبٍ؛ قَدْ أَطْبَقَتْ عليهِمُ الدُّنْيا مِنْ كُلِّ اتِّجاه، ليسَ لهُمْ مَخْلَصٌ ولا ناصِرٌ مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ؛ جاءَهُمُ الفَرَجُ أسرعَ مِنْ طَرْفِ العَيْنِ مِنْ قِبَلِ السَّماءِ، قال الغزالي: «فلما انسابَتِ الأحزابُ حَوْلَ المَدِينةِ، وضَيَّقُوا عليها الخِنَاقَ لَمْ تَرَ نُفُوسُ المسلمينَ

شُعاعًا، بَلْ جَابَهُوا الحاضِرَ المُرَّ وَهُمْ مُوَطَّدُو[1] الأَمَلِ فِي غَدٍ كَرِيمٍ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[2].

أما الوَاهِنُون والمُرْتابُونَ ومَرْضَىٰ القلوبِ، فَقَدْ تَنَدَّرُوا[3] بأحاديثِ الفَتْحِ، وظَنُّوهَا أَمَانِيَّ المَغْرُورِينَ، وقَالُوا عن رسولِ اللهِ ﷺ: يُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ يُبْصِرُ مِنْ يَثْرِبَ قُصُورَ الحِيْرَةِ[4] ومَدَائِنَ[5] كِسْرَىٰ، وأَنْتُمْ تَحْفِرُونَ الخَنْدَقَ، لَا تَسْتَطِيعونَ أَنْ تَبْرُزُوا. وفِيهِمْ قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[6].

---

(1) مُوَطَّدٌ: ثابِتٌ، انظر: تاج العروس للزبيدي: 9/ 303.

(2) الأحزاب: 22.

(3) تَنَدَّرُوا: عَدُّوهُ من الكلام النادر، غير القابل للتحقق، وذلك علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 5/ 199.

(4) الحيرة: مدينة كانت علىٰ ثلاثة أميال من الكوفة، علىٰ موضع يقال له النّجف، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية، قيل: سمّيت الحيرة؛ لأن تُبَّعًا الأكبر لما قصد خراسان خلَّف ضعفة جنده بذلك الموضع وقال لهم حَيِّروا به أي أقيموا به، انظر: معجم البلدان، للحموي: 2/ 328.

(5) المدائن: الموضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الفُرْس الساسانية وغيرهم، فكان كلّ واحد منهم إذا مَلَكَ؛ بنىٰ لنفسه مدينة إلىٰ جنب التي قبلها، وسماها باسمٍ، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر، ثم طيسفون، ثم اسفانبر، ثم مدينة يقال لها رومية؛ فسميت المدائن بذلك، والله أعلم، وكان فتح المدائن كلها علىٰ يد سعد بن أبي وقّاص، في صفر سنة 16 في أيام عمر بن الخطاب ﷺ، انظر: معجم البلدان، للحموي: 5/ 74.

(6) الأحزاب: 12.

* وأحاطَ المشركونَ بالمسلمينَ، وحاصَرُوهُمْ قريبًا مِنْ عشرينَ ليلةً، وأخذُوا بِكُلِّ ناحيَةٍ حتَّىٰ لا يُدْرَىٰ هل احْتَلُّوا البلَدَ أَمْ لَا؟ وَوَجَّهُوا نَحْوَ مكانِ رسولِ اللهِ ﷺ كتيبَةً غليظَةً، فقاتَلَها المسلمونَ يومًا إِلَىٰ اللَّيْلِ، فلمَّا حانَتْ صلاةُ العصرِ دَنَتِ الكتيبةُ مِنَ المكانِ؛ فَلَمْ يَقْدِرِ النبيُّ ﷺ ولا أَحَدٌ مِنْ أصحابِهِ أَنْ يُصَلُّوا الصلاةَ علَىٰ نَحْوِ مَا أَرادُوا. وَوَقَعَ ثِقَلُ المُقاوَمَةِ علَىٰ أَصْحابِ الإيمانِ الرَّاسِخِ والنِّجْدَةِ الرَّائِعَةِ.. كانَ عَلَيْهِمْ أنْ يَكْبِتُوا مَظَاهِرَ القَلَقِ التِي انْبَعَثَتْ وتَكَاثَرَتْ فِي النفوسِ الخَوَّارَةِ الهَلُوعِ[1]، وأنْ يُشيعُوا مَوْجَةً مِنَ الإِقْدامِ والشجاعةِ تَغْلِبُ أَوْ تُوْقِفُ نَزَعاتِ الجُبْنِ والتَّرَدُّدِ التِي بَدَتْ هُنَا وهُنالِكَ.

وجاءَ المسلمونَ إِلَىٰ رسولِ اللهِ ﷺ يسألونَهُ: هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ؟ فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قَالَ: «نَعَمْ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا»[2]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِىٰ أَوْفَىٰ، قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الأَحْزَابِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ، وَزَلْزِلْهُمْ»[3].

* واللهُ تبارَكَ وتعالَىٰ لا يقبَلُ الدُّعاءَ مِنْ مُتَواكِلٍ كسولٍ، وما يَسْتَمِعُ لِشَيْءٍ اسْتِماعَهُ لهتافِ مُجْتَهِدٍ أنْ يبارِكَ لَهُ سَعْيَهُ، أَوْ دُعاءِ صابِرٍ أنْ يُجَمِّلَ لَهُ العَاقِبَةَ.

---

(1) يقصد نفوس المنافقين، الذين خرجوا نفاقًا، لا إيمانًا وتسليمًا.

(2) قال الألباني في تحقيقه علىٰ فقه السيرة للغزالي: «حديث حسن»، رواه أحمد، مُسْنَدُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: 3/ 3، وابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي سعيد الخدري.

(3) رواه البخاري في صحيحه، بَاب الدُّعَاءِ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ بِالْهَزِيمَةِ وَالزَّلْزَلَةِ: 4/ 44، ومسلم: باب اسْتِحْبَابِ الدُّعَاءِ بِالنَّصْرِ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ: 3/ 1363.

وقد أَفْرَغَ المسلمون جُهْدَهُمْ في الدفاعِ عَنْ رسالَتِهِمْ ومَدِينَتِهِمْ، حتَّىٰ لَمْ يبقَ فِي طَوْقِ البَشَرِ مُدَّخَرٌ، فَبَقِي أَنْ تَتَدَخَّلَ العِنَايَةُ العُلْيا؛ لِتَقْمَعَ صَعَرَ[1] الظَّالِمِ وتُقِيمَ جانِبَ المظلومِ؛ ومِنْ ثَمَّ أَخَذَ سَيْرُ المَعْرَكَةِ يتطَوَّرُ علَىٰ نَحْوٍ لا يُدْرِكُ الناسُ كُنْهَهُ[2]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[3]. قالَ حذيفةُ بنُ اليَمانِ: «رأيتُنَا ليلَةَ الأحزابِ ونَحْنُ صافُّونَ قُعودٌ، وأبو سُفيانَ ومَنْ مَعَهُ فَوْقَنَا، وبَنُو قُرَيْظَةَ أسفَلَ مِنَّا، نَخَافُهُمْ علَىٰ ذَرَارِينَا[4]، ومَا أَتَتْ عَلَيْنَا ليلةٌ قَطُّ أَشَدُّ ظُلْمةً، وَلَا أَشَدُّ ريحًا مِنْهَا، تَطِنُّ[5] فِي رِياحِها أصواتٌ أمثالُ الصواعِقِ، وما يستطيعُ أحدُنا أنْ يَرَىٰ إِصْبَعَهُ مِنْ قَتَامِهَا[6] السَّائِدِ، ولَمْ يكُنْ عليَّ جُنَّةٌ[7] مِنَ العَدُوِّ ولا

---

(1) الصَّعَرُ: ميل الوجه، والصَّعَرُ التَّكبُّرُ، والصعَّارُ: المُتكبِّرُ؛ لأنَّه يَمِيل بخدِّه، ويُعرِض عَن النّاس بوَجْهه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: 18]، أي: لا تُمِلْ وجهك عنهم تكبرًا، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 4/ 456، وتاج العروس، للزبيدي: 12/ 319.

(2) الكُنْه: نِهايةُ الشّيء وحقيقتُه، تهذيب اللغة، للأزهري: 6/ 18.

(3) المدثر: 31.

(4) الذُّرِّيَّةُ: النَّسْلُ، وَقَدْ أُطْلِقَتْ الذُّرِّيَّةُ عَلَىٰ الْآبَاءِ أَيْضًا مَجَازًا، والذُّرِّيَّة: مِنْ الذَّرِّ وَهُمْ الصِّغَارُ، وقيل: الذُّرِّيَّةَ مِنْ ذَرَأَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْقَ، أي خَلَقَهُمْ، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للحموي: 1/ 207.

(5) تَطِنُّ: تُصَوِّتُ، وأصله من الطَّنينِ وهُوَ صوتُ الشَّيءِ الصُّلْبِ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 4/ 140.

(6) القتام: الغبار الأسود. والقَتَمُ: ريح ذات غبار، كريهة، انظر: معجم العين، للخليل: 5/ 132، ومجمل اللغة، لابن فارس: 1/ 743.

(7) الْجُنَّةُ مَا اسْتَتَرْتَ بِهِ مِنْ سِلَاحٍ، وَالْجُنَّةُ: السُّتْرَةُ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 62.

مِنَ البَرْدِ إلا مِرْطٌ[1] لامْرَأَتِي، لا يُجاوِزُ رُكْبَتِي، فأتانِي الرسولُ ﷺ وأنا جاثٍ علىٰ الأَرْضِ فقالَ: «مَنْ هذا؟» فقلْتُ: حذيفَةُ، فقالَ: «حذيفةُ؟» فَتَقاصَرْتُ فِي مَوْضِعِي، وأَنَا أقولُ: بلَىٰ يا رسولَ اللهِ؛ كَرِاهِيَةَ أنْ أقومَ؛ فَنَدَبَنِي[2] لِمَا يُرِيدُ، وقالَ: «إنّه كائنٌ في القَوْمِ خبرٌ فَأْتِنِي بِهِ»، فخرجْتُ، وأنا أَشَدُّ الناسِ فَزَعًا، وأَشَدُّهُمْ قَرًّا[3]، فَدَعا لِي بخيرٍ، فمضيْتُ لِشَأْنِي كأنّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ[4].. إنّها حرارةُ الإيمانِ، وحماسَةُ الطَّاعةِ جعلتِ الرَّجُلَ يغلبُ بِعَاطفتِهِ المُتَّقِدَةِ قَسْوَةَ الجَوِّ. قالَ حذيفةُ: وأَوْصانِي الرسولُ ﷺ حينَ وَلَّيتُ ألَّا أُحْدِثَ فِي القَوْمِ حَدَثًا حَتَّىٰ آتِيَهُ، فلمَّا دَنَوْتُ مِنْ مُعَسكَرِ القومِ، نظرتُ ضوءَ نارٍ تُوْقَدُ، وإذا رجلٌ أَدْهَمُ[5] ضخمٌ، يَمُدُّ يدَيْهِ إلىٰ النَّارِ مُسْتَدْفئًا، ويمسحُ خاصِرَتَهُ، ويقولُ: الرحيلَ، الرحيلَ، ولمْ أكنْ أعرفُ أبا سفيانَ قبلَ ذلِكَ، فوضَعْتُ سهمًا في كَبِدِ قوسِي، وأردتُ أنْ أرميَهُ ثُمَّ ذَكَرْتُ وَصَاةَ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فأمسكتُ، ولو رميتُهُ؛ لأصبْتُهُ.

---

(1) المِرْط: كساء من خَزٍّ أو كتان أو صوف أو شعر، انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحِمْيَرِيِّ: 9/ 6263.

(2) الندب: أن يندب إنسان قومًا إلىٰ أمر، أو حرب، أو معونة أي يدعوهم إليه، فينتدبون له أي يجيبون ويسارعون. وندب القوم إلىٰ الأمر يندبهم ندبًا: دعاهم وحثَّهم. وانتدبوا إليه: أسرعوا؛ وانتدب القوم من ذوات أنفسهم أيضا، دون أن يندبوا له، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 754.

(3) القَرُّ: الْبَرْدُ، ويَوْم قر، وَلَيْلَة قُرَّة، وغداة قُرَّة، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 1/ 125.

(4) الحمام: الحار، شديد الحرارة، والْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ، والْحَمَّةِ: الْعَيْنُ الْحَارَّةُ الْمَاءِ، وَاسْتَحَمَّ: دَخَلَ الْحَمَّامَ، انظر: المغرب في ترتيب المعرب، لأبي المكارم المُطَرِّزِيّ: 1/ 130.

(5) الأَدْهَمُ: الأَسودُ، وبه دُهْمةٌ شَديدةٌ، وادْهامَّ الزَّرْعُ، إذا علاهُ السَّوادُ رِيًّا، انظر: معجم العين، للخليل: 4/ 31.

وأَحْسَسْتُ عَصْفَ الريحِ فِي جَنَبَاتِ المُعَسْكَرِ، لا تُقِرُّ قِدْرًا ولا نارًا ولا بِنَاءً، ثُمَّ قالَ أَبُو سفيانَ: يا معشَرَ قُرَيْشٍ، إنّكُمْ واللهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقامٍ، قَدْ هَلَكَ الكُرَاعُ[1] والخُفُّ[2]، وأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وبلغَنَا عَنْهُمُ الذِي نَكْرَهُ، ولَقِينا مِنْ شِدَّةِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ؛ فمَا تَطْمَئِنُّ لَنا قِدْرٌ، ولا تَقُومُ لَنَا نارٌ، ولَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فارْتَحِلُوا؛ فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثمَّ قامَ إِلَىٰ جَمَلِهِ وهُوَ مَعْقُولٌ[3]، فَجَلَسَ عليهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ؛ فَوَثَبَ بِهِ علَىٰ ثلَاثٍ، فواللهِ مَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إلَّا وهُوَ قائِمٌ..[4].

---

(1) الكُرَاع من الْإِنْسَان: مَا دون الرّكْبَة، وَمن الدَّوَابّ مَا دون الكعب، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 5/ 171.

(2) الخُفُّ: واحد أَخْفافِ البعير، والخُفُّ: واحد الخِفافِ التي تُلْبَسُ، والخُفُّ في الأرض: أغلظُ من النعل، انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للحموي: 4/ 1353.

(3) مَعْقُولٌ: مربوط، والعقال: الحبل الذي يشد به ذراع البعير، انظر: القاموس الفقهي، لسعدي أبي حبيب: 1/ 259.

(4) قال الألباني: هذه القصة صحيحة، وسياقها -هنا- مركب من ثلاث روايات:

الأولىٰ: عند الحاكم والبيهقي في الدلائل، من طريق عبد العزيز ابن أخي حذيفة عن حذيفة. وقد ذكر لفظه ابن كثير في التاريخ: 4/ 114-115.

الثانية: عند ابن هشام في (السيرة): 2/ 194، عن محمد بن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظي عن حذيفة، وكذلك رواه أحمد: 5/ 392-393، من مسند حذيفة عن ابن إسحق، وظاهر إسناده الاتصال، فهو صحيح.

والرواية الثالثة: رواها مسلم: 5/ 177-178، من طريق إبراهيم التيمي عن أبيه عن حذيفة.

وَرَجَعَ حُذيفةُ إِلَىٰ النَّبيِّ ﷺ يَقُصُّ عليهِ مَا رَأَىٰ.. وطَلَعَ النهارُ؛ فإِذَا ظاهِرُ المَدِينةِ خَلاءٌ.. ارْتَحَلَتِ الأحزابُ، وانْفَكَّ الحِصارُ، وعادَ الأَمْنُ، ونجحَ الإيمانُ فِي المِحْنَةِ!.

وَهَتَفَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ؛ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ»[1]»[2].

* فالناظِرُ إِلىٰ أحداثِ غزوةِ الأحزابِ؛ يَجِدُ التَّوَازُنَ الرَّشيدُ بينَ العَمَلِ الدَّؤُوبِ، والأخذِ بكامِلِ الأسبابِ المادِّيَّةِ، والتعلُّقَ بالغَيْبِ المكنونِ؛ الذِي يُؤْمِنُونَ به إِلىٰ حَدِّ اليقينِ؛ فَلَوْ أَنَّهُمُ استَسْلَمُوا للغيبِ المَسْتُورِ، ولَمْ يَفْعَلُوا شيئًا؛ لَعَاجَلَهُمُ الأعداءُ بالإِبادَةِ، بَعْد أَنْ وَكَّلَهُمُ اللهُ تعالَىٰ إِليهِمْ؛ إِذْ إِنَّ اللهَ تعالَىٰ لا يَرْضَىٰ لعبادِهِ التَّوَاكُلَ والقُعُودَ والاسْتِسْلامَ؛ ولَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَحْسِبُوا حِسَابًا للغَيْبِ الذِي يُخَبِّئُهُ اللهُ تعالَىٰ لأوليائِهِ الصالحينَ العاملينَ لدينِهِ؛ وحَسبُوا موازينَ المعركَةِ بالحساباتِ المادِيَّةِ المُجَرَّدَةِ؛ لأَسْلَمَتْهُمْ حساباتُهُمْ إِلَىٰ اليأسِ والقُنُوطِ والقُعُودِ والاسْتِسْلامِ؛ فَقُوَّةُ الكُفْرِ وتَحَالُفاتُهِ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا، ولا تقومُ لَهَا قُوَّةٌ صغيرةٌ كقوَّةِ المسلمينَ آنَذَاكَ، ولا تُدْرِكُ العقولُ لِمُواجَهَتِها سَبِيلًا؛ وحينَ

ولها طريق رابعة: رواها الحاكم في (المستدرك): 3/ 31، من طريق بلال العبسي عن حذيفة. وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي؛ ورواه البزار أيضًا كما في (المجمع): 6/ 136، وقال: ورجاله ثقات، انظر: فقه السيرة للغزالي: 1/ 310.

(1) رواه البخاري في صحيحه، بَاب غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ: 5/ 111، ومسلم، باب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يَعْمَلْ: 4/ 2089.

(2) فقه السيرة، للغزالي: 1/ 298-310.

يتعَلَّقُ العبادُ بقوةِ اللهِ تعالَىٰ المَغِيبةِ المَسْتُورَةِ؛ يستمدونَ مِنْ قُوَّتِهِ مَا يَقْتاتُونَ بِهِ من ثباتٍ وقُوَّةٍ؛ ما يدفَعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَدِّي العَنِيدِ والمواجِهِ.

* والتوازُنُ بينَ الأخذِ بالأسبابِ، والتَّعَلُّقِ بما تَحْجُبُهُ أستارُ غَيْبِ اللهِ تعالَىٰ طريقَةُ الربانيينَ العُقَلاءِ الحُكَماءِ الفُقَهاءِ في كلِّ أمورِهِمْ: فِي طلبِ الرِّزْقِ، وطَلَبِ التَّداوِي، وطَلَبِ العِلْمِ، وطلَبِ النَّصْرِ؛ فَهُمْ يَدْفعونَ بِمَا يستطيعونَ مِنْ قُوَّةٍ مُمْكِنَةٍ، ويَرَوْنَ أنَّ فَوْقَ قُوَّتِهِمْ قُوَّةَ اللهِ تعالَىٰ المَغِيبَةَ، وهُوَ وحدَهُ لَهُ الخَلْقُ ولهُ الأَمْرُ؛ يُدَبِّرُ أمْرَ العالَمِ العُلْوِيِّ، والعالَمِ السُّفْلِيِّ بِعِلْمٍ وحِكْمَةٍ وقُوَّةٍ وقُدْرَةٍ ورَحْمَةٍ؛ وهُوَ سبحانَهُ يُحِبُّ مِنْ عبادِهِ العَمَلَ والاجْتِهادَ وعَدَمَ اليَأْسِ والاسْتِسْلامِ، فإنْ هُمْ كانُوا كذلكَ؛ أَيَّدَهُمْ مِنْ لَدُنْهُ[1] بِمَا لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لَهُمْ علَىٰ بالٍ؛ وحالُهُمْ حينَهَا كحالِ الطِّفْلِ الصغيرِ، الذِي يدفَعُ العَجَلَةَ الكبيرَةَ الثَّقِيلَةَ، التِي لا سبيلَ لَهُ بِدَفْعِها، فَإِذا رَآهُ أبوهُ أَخَذَ بِدَفْعِهَا مِنْ فَوْقِهِ بِقُوَّةِ الرِّجالِ؛ فَتَتَحَرَّكُ العجلَةُ إلىٰ حيثُ شاءَ الطِّفْلُ، بِمَشِيئَةِ أَبِيهِ وقُوَّتِهِ وتَأْيِيدِهِ؛ ولعلَّ الطِفْلَ يَظُنُّ أَنَّهُ هوَ الدَّافِعُ؛ فَيَأْخُذُهُ الفَخْرُ والفَرَحُ بِقُوَّتِهِ، وأَبُوهُ يَضْحَكُ مِنْ غَفْلَتِهِ، وعَدَمِ إِدْراكِهِ.

* والذِي يجعلُ العبدَ يَتَنَكَّرُ للغيبِ أحْيانًا؛ أَنَّ الأمورَ قَدْ تَكُونُ أَكْبَرَ مِنْ إِدْرَاكِ عقْلِهِ البَشَرِيِّ؛ وحينَ يَقِيسُ الإنسانُ الأمورَ بعقْلِهِ المحدودِ، وبعلْمِهِ الضَّيِّقِ؛ فإنَّهُ يقلِّلُ مِنْ قِيمَةِ الغيبِ، الذِي لا يُدْرِكُهُ بعقلِهِ الصغيرِ؛ وتَتَضاءَلُ قُدْرَتُهُ فِي مقابَلَةِ مَا لا طَاقَةَ لَهُ بِهِ بِحِسابَاتِهِ البَشَرِيَّةِ المحدودةِ، ولَوْ قاسَ العبدُ مَا يعْلَمُ، فِي مُقابِلِ ما لَا يَعْلَمُ مِنْ عَظَمَةِ الكونِ الغائِبَةِ

---

(1) مِنْ لَدُنْهُ: من عنده، لَدُنْ وَلَدَىٰ: ظَرْفَا مَكَان بِمَعْنَىٰ عِنْدَ، إِلَّا أَنَّهُمَا لَا يُسْتَعْمَلَانِ إِلَّا فِي الْحَاضِرِ، يُقَالُ: لَدُنْهُ مَالٌ إِذَا كَانَ حَاضِرًا، وَلَدَيْهِ مَالٌ كَذَلِكَ، وَجَاءَهُ مِنْ لَدُنَّا رَسُولٌ أَيْ مِنْ عِنْدِنَا، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للحموي: 2/ 553.

عَنْ حِسِّهِ وإِدْراكِهِ، والتِي يُدْرِكُ مِنْهَا الشَّيْءَ بعدَ الشَّيْءِ فِي مَرَاحِلِ الحياةِ المُخْتَلِفَةِ؛ يَجِدُ أَنَّ مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ وإدراكٍ، ضِئيلٌ جَدٌّ ضَئيلٍ، بَلْ هُوَ كَمَا يَأْخُذُ الطائِرُ بِمِنْقارِهِ مِنَ البَحْرِ العميقِ، أَوْ كَمَا يَعْلَقُ مِنَ المَاءِ بالأُصْبَعِ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ وأُخْرِجَ!

كُلَّ يومٍ رَبُّنَا فِي شَأْنٍ

* وإِنَّ أَمْرَ الخَلْقِ والخَليقَةِ: مِا كانَ مِنْهُ، ومَا هُوَ كائِنٌ، وما سيكونُ مِمَّا لَمْ يَكُنْ؛ هوَ بِيَدِ اللهِ تعالَىٰ وَحْدَهُ؛ فإليهِ مَفْزَعُ الخَلْقِ: بَرِّهِمْ وفَاجِرِهِمْ عِنْدَ شدائِدِهِمْ ومصائِبِهِمْ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ قَادِرٌ علَىٰ تَغْيِيرِ مَا هُمْ فيهِ: مِنْ كَشْفِ كُرَبِهِمْ، وإِطْعامِ جَوْعَتِهِمْ، وأمانِ خَوْفِهِمْ، وقضاءِ حَوائِجِهِمْ؛ ولَقَدْ أَخْبَرَ سُبحانَهُ عَنْ نَفْسِهِ بقولِهِ: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1].

* قال ابن جرير: «وَقَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: إِلَيْهِ يَفْزَعُ بِمَسْأَلَةِ الْحَاجَاتِ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِنْ مَلَكٍ وَإِنْسٍ وَجِنٍّ وَغَيْرِهِمْ، لَا غِنَىٰ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ عَنْهُ؛ فعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ «لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَلَا أَهْلُ الْأَرْضِ، يُحْيِي حَيًّا، وَيُمِيتُ مَيِّتًا، وَيُرَبِّي صَغِيرًا، وَيُذِلُّ كَبِيرًا، وَهُوَ مَسْأَلُ حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ، وَمُنْتَهَىٰ شَكْوَاهُمْ، وَصَرِيخُ الْأَخْيَارِ». وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: هو كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنِ خَلْقِهِ؛ فَيُفَرِّجُ كُرَبَ ذِي كَرْبٍ، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شُئُونِ خَلْقِهِ؛ فعَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ

(1) الرحمن: 29.

عُمَيْرٍ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قَالَ: «يُجِيبُ دَاعِيًا، وَيُعْطِي سَائِلًا، أَوْ يَفُكَّ عَانِيًا[1]، أَوْ يَشْفِي سَقِيمًا»[2].

* قالَ ابنُ قيِّمِ الجوزية: «يُدَبِّرُ ربُّنا أَمْرَ مَمْلَكَتِهِ، وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ خَلْقِهِ، وَيَرَىٰ أَفْعَالَهُمْ وَحَرَكَاتِهِمْ، وَيُشَاهِدُ بَوَاطِنَهُمْ، كَمَا يُشَاهِدُ ظَوَاهِرَهُمْ، يَأْمُرُ وَيَنْهَىٰ، وَيَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ، وَيُحِبُّ وَيَسْخَطُ، وَيَضْحَكُ مِنْ قُنُوطِهِمْ وَقُرْبِ غَيْرِهِ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ مُضْطَرِّهِمْ، وَيُغِيثُ مَلْهُوفَهُمْ، وَيُعِينُ مُحْتَاجَهُمْ، وَيَجْبُرُ كَسِيرَهُمْ، وَيُغْنِي فَقِيرَهُمْ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي، وَيَمْنَعُ وَيُعْطِي، يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، مَالِكُ الْمُلْكِ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، يَغْفِرُ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجُ كَرْبًا، وَيَفُكُّ عَانِيًا، وَيَنْصُرُ مَظْلُومًا، وَيَقْصِمُ ظَالِمًا، وَيَرْحَمُ مِسْكِينًا، وَيُغِيثُ مَلْهُوفًا، وَيَسُوقُ الْأَقْدَارَ إِلَىٰ مَوَاقِيتِهَا، وَيُجْرِيهَا عَلَىٰ نِظَامِهَا، وَيُقَدِّمُ مَا يَشَاءُ تَقْدِيمَهُ، وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ تَأْخِيرَهُ، فَأَزِمَّةُ الْأُمُورِ كُلِّهَا بِيَدِهِ، وَمَدَارُ تَدْبِيرِ الْمَمَالِكِ كُلِّهَا عَلَيْهِ، وَهَذَا مَقْصُودُ الدَّعْوَةِ، وَزُبْدَةُ الرِّسَالَةِ»[3].

* فَمِنْ شَأْنِ رَبِّنَا سبحانَهُ أَنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ تَوَكَّلَ عليهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ فِي رَغْبَتِهِ ورَهْبَتِهِ، وأَخَذَ بأسبابِ النَّجاحِ والفَلاحِ، والنَّجَاةِ والظَّفَرِ؛ ورَأَىٰ اللهُ تعالَىٰ مِنْهُ إِقْبالًا عليهِ، ولُجُوءًا إليهِ،

---

(1) العاني: الأسير، والعاني: الخاضع المُتَذَلِّل، والعاني مأخوذ من العنوة، أي: الذلة. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]، أي: خضعت وذلَّت؛ وسمي الأسير عانيًا؛ لأجل خضوعه، واستسلامه وذلته، انظر: معجم العين، للخليل: 2/ 252.

(2) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري: 22/ 211.

(3) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 3/ 325.

وفِرَارًا إليهِ، وافْتِقَارًا إِلَيهِ، وثِقَةً بِهِ؛ إِلَّا جَعَل لَهُ فِيمَا يَرْجُو فَلَاحًا وتَوْفِيقًا، وأعطاهُ فوقَ ما يرجُو؛ وإِلَّا جَعَلَ لَهُ مِمَّا يحذَرُ نَجَاةً وأَمْنًا مِنْ حيثُ مَظَنَّةُ المَخَاوِفِ.

❋ فمثالُ العبدِ الضعيفِ ورَبِّهِ تَعالَىٰ مِثَالُ طِفْلٍ خَرَجَ فِي سَفَرٍ ورِحْلَةٍ، فأَحاطَ بِهِ أعداءُ أَبيهِ، وأرادُوهُ بسوءٍ، ولَهُ أَبٌ ذُوْ مُلْكٍ وسُلْطانٍ، رحيمٌ قَوِيٌّ غَنِيٌّ، صَاحِبُ نِجْدَةٍ، وقَدْ رَأَىٰ الطفْلُ أَبَاهُ، وهُوَ فِي جُنْدِهِ وسُلْطانِهِ؛ فَفَرَّ إليهِ، والْتَجَأَ إِلَىٰ جنابِهِ، واستَغَاثَ بِهِ، باكيًا شاكِيًا؛ يَسْأَلُهُ النَّصْرَ علىٰ أعدائِهِ، وأَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ؛ فَمَا يَكونُ مِنَ الأَبِ إِلَّا أَنْ يُسَيِّرَ لَهُ الجُنْدَ، ويُخَلِّصَهُ مِنْ أَعْدائِهِ، ويُقَرِّبَهُ مِنْ جنابِهِ، ويَضُمَّهُ إِلَيْهِ، ويُغْنِيَهُ مِنْ أَمْوالِهِ.. فَإِذَا كانَ هَذَا صنيعَ الأَبِ القَوِيِّ بابْنِهِ المَكْروبِ الملهوفِ المُستغيثِ؛ فَما الظَّنُّ بالرَّبِّ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، القَوِيِّ العزِيزِ، ذِي السُّلْطانِ المَنيعِ، والبَطْشِ الشَّدِيدِ؛ حينَ يستغيثُ بِهِ أَوْلياؤُهُ وأَحْبابُهُ، ويَسْتَنْصرُونَهُ علَىٰ أعدائِهِ وأعدائِهِمْ؛ واللهُ تعالَىٰ أَرْحَمُ بعبدِهِ مِنَ الوالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا، ومِنَ الأَبِ الحَنُونِ بابْنِهِ..

❋ فَرَبٌّ هَذا شأنُهُ فِي خَلْقِهِ، ومَلِكٌ هَذَا سُلْطانُهُ، وهَذا تَدْبيرُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ؛ جديرٌ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِهِ قلوبُ العبادِ فِي شَدَائِدِهِمْ.. جَديرٌ أَنْ يَلْجَأَ إليهِ الخَلْقُ فِي حوائِجِهِمْ.. جَديرٌ أَنْ يَفْزَعَ إِلَيْه النَّاسُ في بَأْسائِهِمْ.. خليقٌ سبحانَهُ أنْ يَثِقَ بِهِ الخَلْقُ والخليقةُ فِي قَضاءِ حوائِجِهِمْ، وكَشْفِ كُرُباتِهِمْ؛ فإنَّ قضاءَ حوائِجِهِمْ، وكَشْفَ كُرُباتِهِمْ عليه هَيِّنٌ.

مَا لا يَعْلَمُ الإنسانُ أكثرُ مِمَّا يَعْلَمُ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّ حَياةَ الإنْسانِ علَىٰ هَذِهِ الأَرْضِ سِلْسَلَةٌ مِنَ العَجْزِ عَنْ إدْراكِ القُوَىٰ الكَوْنِيَّةِ، أَوْ سِلْسِلَةٌ مِنَ القُدْرَةِ عَلَىٰ إدْرَاكِ هَذِهِ القُوَىٰ، كُلَّما شَبَّ عَنِ الطَّوْقِ[1]، وخَطَا خُطْوَةً إلَىٰ الأَمَامِ فِي طَرِيقِهِ الطَّوِيلِ!».

* المُتَأَمِّلُ تاريخَ تَطَوُّرِ العِلْمِ البَشَرِيِّ فِي أَزْمِنَتِهِ المُتَطَاوِلَةِ؛ يجدُ أنَّ جَهْلَ الإنسانِ أكثرُ مِنْ عِلْمِهِ، وأَنَّهُ كُلَّمَا ازدادَ عِلْمًا، وتَقَدَّمَ فِي مجالاتِ العِلْمِ المُخْتَلِفَةِ؛ ازدادَ عِلْمًا بِجَهْلِهِ، وعَلِمَ أنَّ مَا غابَ عَنْهُ يبدُو أَكْثَرَ بكثيرٍ مِمَّا كانَ يَظُنُّ؛ فَلا يَجِدُ إلَّا أنْ يَسْتَسْلِمَ لِحَقيقَةِ أَنَّ وَراءَ مَا يعلَمُ مَا لَا يَعْلَمُ، وأنَّ مَا لَا يعلمُ أعظَمُ مِمَّا يَعْلَمُ؛ وآمَنَ بِقولِ اللهِ تعالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

* قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي تفسيرِ الآيةِ: «﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، بهذِهِ الفَخَامَةِ وبهذِهِ الضَّخامَةِ، وبهذَا التَّهْويلِ بالغَيْبِ المَكْنُونِ، إلَىٰ جانِبِ الحاضِرِ المشهودِ.. والوُجُودُ أَضْخَمُ بكثيرٍ مِمَّا يَرَىٰ البَشَرُ، بَلْ مِمَّا يُدْرِكُونَ.. ومَا يُبْصِرُ البَشَرُ مِنَ الكَوْنِ وما يُدْرِكُونَ إلَّا أَطْرافًا قليلةً مَحْصورةً، تُلَبِّي حاجتَهُمْ إلىٰ عمارَةِ هذِهِ الأرضِ والخِلافَةِ فِيها -

---

(1) قول: (شَبَّ عَنِ الطَّوْقِ) يُضرب مثلا للرجل يعْمل شَيْئا وَهُوَ لَا يَحْسُن بِهِ أَن يعْمل مثله، كالشيخ يتصابىٰ، والعجوز تتشبّه بالشّوابّ، وفي المثل السائر: «شبَّ عمروٌ عن الطوق» وهو عمرو بن عَدِيِّ بن نصر، جدّ آل المنذر ملوك الحيرة، وكان أتىٰ إلىٰ خاله جُذَيْمَةَ الأَبْرَشِ المَلِكِ، وقد ألبسته أمُّه طوقًا، فقال خاله جُذيمة: «شبَّ عمرو عن الطوق»، أي: كبر، فصارت مثلًا، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 2/ 925، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحِمْيَرِيِّ: 12/ 643.

(2) الحاقة: 38-39.

كما شَاءَ اللهُ تعالَىٰ لَهُمْ- والأرضُ كُلُّها لَيْسَتْ سِوَىٰ هَبَاءَةٍ[1]. لَا تَكَادُ تُرَىٰ أَوْ تُحَسُّ فِي ذلكَ الكونِ الكبيرِ.. والبَشَرُ لا يَمْلكونَ أنْ يَتَجاوَزُوا مَا هُوَ مأذُونٌ لَهُمْ بِرُؤْيَتِهِ وبِإِدْراكِهِ مِنْ هذا المُلْكِ العريضِ، ومِنْ شُؤُونِهِ وأسرارِهِ ونَوامِيسِهِ[2] التِي أَوْدَعها إياهُ خالِقُ الوُجودِ سبحانَهُ.. ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.. ومِثْلُ هذِهِ الإشارَةِ تَفْتَحُ القَلْبَ، وتُنَبِّهُ الوَعْيَ إِلَىٰ أَنَّ هُناكَ وَرَاءَ مَدِّ البَصَرِ، وَوَرَاءَ حُدُودِ الإِدْراكِ جوانبَ وعَوالِمَ وأَسْرارًا أُخْرَىٰ لا يُبْصِرُها ولا يُدْرِكُها.. وتُوسِّعُ بذلكَ آفاقَ التَّصَوُّرِ الإنسانِيِّ للكَوْنِ والحقيقَةِ؛ فَلَا يعيشُ الإنسانُ سجينَ ما تَرَاهُ عيناهُ، ولا أَسِيرَ ما يُدْرِكُهُ وَعْيُهُ المَحْدودُ.. فالكونُ أَرْحَبُ[3]، والحقيقةُ أكبرُ مِنْ ذلكَ الجهازِ الإنسانِيِّ المزَوَّدِ بِقَدْرٍ محدودٍ مِنَ الطاقَةِ، يُناسِبُ وظيفَتَهُ فِي هذا الكَوْنِ، ووظيفَتُهُ في الحياةِ الدُّنْيا هِيَ الخِلَافَةُ فِي هذهِ الأرضِ.. ولكنَّه يَمْلِكُ أنْ يَكْبُرَ ويَرْتَفِعَ إِلَىٰ آمادٍ وآفاقٍ أكبرَ وأرفعَ حينَ يَسْتيقِنُ أنَّ عينَهُ ومَداركَهُ محدودَةٌ، وأنَّ هناكَ وراءَ ما تُدْرِكُهُ عينُهُ وَوَعْيُهُ عوالِمَ وحقائِقَ أكبرَ-بِمَا لا يُقَاسُ- مِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ.. عندئِذٍ يَتَسامَىٰ عَلَىٰ ذاتِهِ، ويَرْتَفِعُ علىٰ نَفْسِهِ، ويَتَّصِلُ بينابيعِ المعرفَةِ الكُلِّيَّةِ التي تَفيضُ علَىٰ قلبِهِ بالعِلْمِ والنُّورِ والاتِّصالِ المُباشِرِ بما وراءَ السُّتُورِ! إنَّ الذينَ يَحْصُرُون أنفسَهُمْ في حدودِ مَا

---

(1) الهباءة: الْقطعَة من الهباء، والهباء: التُّرَاب الَّذِي تطيره الرّيح، وَيلْزق بالأشياء أَو ينبث فِي الْهَوَاء، فَلَا يَبْدُو إِلَّا فِي ضوء الشَّمْس، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: 5،6]، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 971.

(2) النواميس: هي السنن التي تضعها الحكماء للعامة لوجه من المصلحة واحدها: ناموس، وهي هنا بمعنىٰ: السنن والقوانين الربانية، انظر: مفاتيح العلوم، للخوارزمي: 1/ 161.

(3) أرحب: أوسع، والرحب الواسع، وأرض رحبة: واسعة، انظر: معجم العين، للخليل: 3/ 215.

تَرَىٰ العينُ، ويُدْرِكُ الوَعْيُ، بِأَدَواتِهِ المُيَسَّرَةِ لَهُ.. مَساكِينُ! سُجَناءُ حِسِّهِمْ وإِدْراكِهِمُ المَحْدُودِ.. مَحْصُورونَ فِي عالَمٍ ضَيِّقٍ علَىٰ سَعَتِهِ، صغيرٍ حيَن يُقاسُ إِلَىٰ ذلكَ المُلْكِ الكَبيرِ.. وفِي فَتَراتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ تارِيخِ هذِهِ البَشَرِيَّةِ كانَ كثيرونَ أَوْ قليلونَ يَسْجُنُونَ أنفُسَهُم بِأَيْديهِمْ فِي سِجْنِ الحِسِّ المَحْدُودِ، والحَاضِرِ المَشْهودِ، ويُغْلقونَ علَىٰ أنفسِهِمْ نوافِذَ المَعْرِفَةِ والنُّورِ، والاتِّصالِ بالحَقِّ الكَبِيرِ، عَنْ طَرِيقِ الإيمانِ والشُّعُورِ.. ويُحاوِلُونَ أنْ يُغْلِقُوا هذهِ النَّوافِذَ علَىٰ الناسِ بعدَمَا أغلقُوهَا علَىٰ أنفسِهِمْ بِأَيْديهِمْ.. تارةً باسْمِ الجَاهِلِيَّةِ، وتارَةً باسْمِ العَلْمانِيَّةِ[1]! وهذِهِ كَتِلْكَ سِجْنٌ كبيرٌ، وبُؤْسٌ مَريرٌ، وانْقِطَاعٌ عَنْ ينابيعِ المَعْرِفَةِ والنُّورِ!»[2].

(1) العَلْمانيَّةُ: يُعدُّ تيار ما يسمَّىٰ بالعقلانية، جاءت به النهضة العلمية الغربية المعاصرة، حيث ساد المذهب الحسي التجريبي، وكشفت التجارب التطبيقية كثيرًا من الأغاليط التي كانت في المرحلة السابقة من ثمرات المذهب العقلي؛ فكانت العلمانية هي دعوة إلىٰ إقامة الحياة علىٰ العلم الوضعي والعقل، ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين، ولفظ العَلْمانية ترجمة خاطئة لكلمة Secularism في الإنجليزية، وهي كلمة لا صِلَةَ لها بلفظ العلم ومشتقاته علىٰ الإطلاق، والترجمة الصحيحة للكلمة هي اللادينية، أو الدنيوية، وهو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد. ويبين معجم أكسفورد معنىٰ كلمة «Secularism» فيقول: «Secularism» الاعتقاد بأن القوانين، والتعليم، وغيرها من الأنظمة، يجب أن تُبْنَىٰ علىٰ الحقائق والعلم بدلًا عن الدين، انظر: الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، لآمال بنت عبد العزيز العمرو: 1/ 340.

(2) في ظلال القرآن، لسيد قطب: 6/ 3684.

عِلْمُ الإنسانِ شَاهِدٌ علَى قِلَّةِ علْمِه

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّ قُدْرَةَ الإنسانِ فِي وقْتٍ بعد وَقْتٍ عَلَىٰ إِدْراكِ إِحْدَىٰ قُوَىٰ الكَوْنِ التِي كَانَتْ مَجْهولَةً لَهُ مُنْذُ لَحْظَةٍ، وكانَتْ فَوْقَ إِدْرَاكِهِ فِي وَقْتٍ مَا.. لَكَفِيلَةٌ بِأَنْ تَفْتَحَ بَصِيرَتَهُ[1] عَلَىٰ أَنَّ هُناكَ قُوَىٰ أُخْرَىٰ لَمْ يُدْرِكْهَا بَعْدُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي دَوْرِ التَّجْرِيبِ!».

* إنَّ الإيمانَ بالغيبِ المَحْجُوبِ، وأنَّ وراءَ مَا يَعْلَمُ الإنسانُ مَا لا يعلمُ، وأَنَّ ما يعلمُ قليلٌ.. قَليلٌ.. إذا قيسَ بِمَا لا يعلَمُ، وأَنَّ اللهَ تعالَىٰ أَذِنَ لِهذَا المَخْلوقِ بالبَحْثِ والتَّقَصِّي فيمَا يَنْفَعُهُ؛ كُلُّ هذا يَدْفَعُ الإِنْسانَ إِلَىٰ البَّحْثِ عمَّا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ فِي عالَمِ الغَيْبِ المَجْهولِ، مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَظيفَتِهِ علَىٰ الأَرْضِ، أَوْ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي عالَمِ الإيمانِ، مِمَّا يُقَرِّبُهُ مِنْ رَبِّهِ تعالَىٰ، ويَرْفَعُهُ ويُرَقِّيهِ. وفِي كُلِّ يومٍ يُسَجِّلُ العِلْمُ اكْتِشافًا جَديدًا، وعِلْمًا جديدًا، لمْ يَكُنْ يعلَمُهُ، وكانَ أَمْسِ غَيْبًا مَسْتُورًا، وكُلَّما فَتَّحَ عَيْنَيْهِ عَلَىٰ اكْتِشافٍ جَديدٍ؛ انْفَتَحَتْ شَهِيَّتُهُ أَكْثَرَ، وطَمِعَ فِي مَعْرِفَةِ المَزيدِ، فَلَا هُوَ يَقْنَعُ، ولا نِهايَةُ الغَيْبِ المَسْتُورِ تُدْرَكُ، وهكَذا يَجِدُ الإِنْسانُ نَفْسَهُ دَائِمًا بَاحِثًا مُجَرِّبًا، فِي مُخْتَبَرِهِ، أَوْ مَعْمَلِهِ، أَوْ فَضَائِهِ..

---

(1) الْبَصِيرَةُ: الْعَقْلُ الَّذِي تَظْهَرُ بِهِ الْمَعَانِي وَالْحَقَائِقُ، كَمَا أَنَّ الْبَصَرَ إِدْرَاكُ الْعَيْنِ الَّذِي تَتَجَلَّىٰ بِهِ الْأَجْسَامُ، والبصيرة للقلب، كالبصر للعين. والبصيرة: قوّة القلب المُدْرِكَةُ، انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: 7/ 418، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي: 2/ 222.

احْتِرامُ العَقْلِ يَدْفَعُ للإيمانِ بالغَيْبِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّ احْتِرامَ العَقْلِ البَشَرِيِّ ذَاتِهُ لَخَلِيقٌ[1] بِأَنْ نَحْسِبَ لِلْمَجْهُولِ حِسَابَهُ فِي حَياتِنَا، لَا لِنَكِلَ[2] إِلَيْهِ أُمُورَنَا، كَمَا يَصْنَعُ المُتَعَلِّقُونَ بِالوَهْمِ والخُرَافَةِ؛ ولَكِنْ لِكَيْ نُحِسَّ عَظَمَةَ هَذَا الكَوْنِ علَىٰ حَقِيقَتِهَا، ولِكَيْ نَعْرِفَ لِأَنْفُسِنَا قَدْرَها فِي كيانِ هَذا الكَوْنِ العَرِيضِ.. وإِنَّ هَذَا لَخَلِيقٌ بِأَنْ يَفْتَحَ لِلرُّوحِ الإِنْسانِيَّةِ قُوًى كَثِيرَةً لِلْمَعْرِفَةِ، ولِلشُّعُورِ بِالوَشَائِجِ[3] التِي تَرْبِطُنَا بِالكَوْنِ مِنْ دَاخِلِنَا، وهِيَ بِلَا شَكٍّ أَكْبَرُ وَأَعْمَقُ مِنْ كُلِّ مَا أَدْرَكْنَاهُ بِعُقُولِنَا حَتَّىٰ اليومِ، بِدَلِيلِ أَنَّنَا مَا نَزَالُ نَكْشِفُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَنْ مَجْهُولٍ جَدِيدٍ، وأَنَّنَا لَا نَزَالُ بَعْدُ نَعِيشُ!».

* لَاجَرَمَ[4] أنَّ الإيمانَ بالغيبِ المَحْجوبِ فِي عالَمِي الغَيْبِ والشَّهادَةِ يرفَعُ مِنْ شَأْنِ الإِنْسانِ وقَدْرِهِ، ويُذْكِي مِنْ عَقْلِهِ وفِكْرِهِ وَوُجْدَانِهِ، ويَجْعَلُهُ يَرْتَبِطُ بِهذَا الكَوْنِ العَرِيضِ

---

(1) خليقٌ بالشيء: جدير به، وأَهْلٌ له، انظر: معجم العين، للخليل: 4/ 151.

(2) نكل: نعتمد، قال ابن فارس: (وَكَلَ) الواو والكاف واللام: أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ علىٰ الاعتماد علىٰ غيرك في أمرك، والوكل: الرجل الضعيف. والتوكل منه، وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد علىٰ غيرك، وواكل فلانٌ، إذا ضيع أمره مُتَّكِلًا علىٰ غيره، وسمي الوكيل؛ لأنه يُوكَلُ إليه الأمر، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 6/ 136.

(3) الوشائج: الروابط والتشابك والقرابة، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 1023.

(4) لَاجَرَمَ: بمعنىٰ حقًا، مِنْ قولهم: لا جرم لأفعلن كذا أي: حقًا، قال الفراء: لا جرم كلمة كانت في الأصل بمنزلة لابُدَّ ولامحالة، فَجَرَتْ علَىٰ ذلِكَ، وكَثُرَتْ حتَّىٰ تحوَّلَتْ إلىٰ معنَىٰ القَسَمِ وصارت بمنزلة حقًا، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 12/ 94.

المعلومِ مِنْهُ والمَجْهولِ، ويَجْعَلُهُ يحترِمُ عَقْلَهُ، ويُقَدِّرُهُ قَدْرَهُ الذِي يَسْتَحِقُّ؛ فَيَرَىٰ نَفْسَهُ حَلْقَةً مُرْتَبِطَةً بِسِلْسِلَةِ الخَلْقِ المَنْظُومَةِ، مُذْ بَرَأَهُ[1] اللهُ تعالَىٰ، إِلَىٰ مَا شَاءَ اللهُ سُبْحانَهُ... فَهُو مُتَّصِلٌ بغيرِهِ، وغيرُهُ مُتَّصِلٌ بِهِ؛ فَلا يُمْكِنُ لهذا المخلوقِ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ، وأَنْ يَنْفَرِدَ وَحيدًا فِي هَذا الكَوْنِ المَفْتوحِ... وأَنَّ هذا الارْتِباطَ ارْتِباطٌ وَثيقٌ لا يَنْفَكُّ، وَلا يَنْفَصِلُ؛ إِلَّا حينَ يَنْفَرِطُ عِقْدُ نِظَامِ الكَوْنِ بأَمْرِ اللهِ تَعالَىٰ؛ لِيُؤْذِنَ بحياةٍ جَدِيدَةٍ؛ وفْقَ قَوانينَ وأَحْكَامٍ جَديدَةٍ في عالَمِ الآخِرَةِ... مِمَّا لا يمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْلَمَهُ، أَوْ يَتَنَبَّأَ بِهِ؛ إِلَّا مَا كَشَفَ اللهُ تَعالَىٰ لَنَا عَنْ بَعْضِهِ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا لَمْ يَأْذَنِ اللهُ تعالَىٰ بِعِلْمِهِ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ، ولأنَّ عُقولَنَا غيرُ مُزَوَّدَةٍ بِمَا يُمَكِّنُهَا مِنْ تِلْكَ المَعَارِفِ الكُبْرَىٰ، ولأنَّها غيرُ مُهَيَّأَةٍ لاحْتِمالِ تِلْكَ الحَقائِقِ العُظْمَىٰ... والعَقْلُ البَشَرِيُّ إِذْ يُسْلِمُ نَفْسَهُ للإيمانِ بِهذَا الغَيْبِ المَغيبِ؛ لَا يُسْلِمُ نَفْسَهُ للوَهْمِ ولا للخُرافَةِ، التِي تَجْعَلُهُ يَخْلدُ إِلَىٰ الاسْتِسْلامِ المُطْلَقِ للخَوارِقِ والمُعجزَاتِ... لَا، وإِنَّما هُوِ إِيْمانٌ يدفَعُ إِلَىٰ العَمَلِ الجَادِّ الدَّؤُوبِ لِلتَّعَرُّفِ علَىٰ ما يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الغَيبِ المفتوحِ، والانْتِفاعُ بِهِ إِلَىٰ أَبْعَدِ مَا يُمْكِنُ مِمَّا أَذِنَ اللهُ الكبيرُ سُبْحانَهُ وتَعالَىٰ.

(1) برأ: خلق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم برءًا، أي: يخلقهم. والبارئ الله جل ثناؤه. قال الله تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54]، انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: 1/ 236.

الإيمانُ بالغيبِ عَقِيدَةُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ

* والإيمانُ بالغيبِ عَقِيدَةُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ مِنَ المؤمنينَ، قَرَّرَها اللهُ تَعالَىٰ فِي جميعِ الشَّرائِعِ المُنَزَّلَةِ مِنْ لَدُنْهُ، وليسَ فِي الإسلامِ فَحَسْبُ، ولكنْ مَا حَفَلَ بِهِ القرآنُ مِنَ الاعْتناءِ بالغَيْبِ لعلَّهُ لَمْ تَحفَلْ بِهِ شريعَةٌ سِواهُ؛ والمُتَدَبِّرُ القرآنَ الكريمَ يَجِدْ القرآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ يُقَرِّرُ هَذَا الأَصْلَ مِنْ أُصُولِ العقيدَةِ، ويُلِحُّ عليهِ فِي كُلِّ سُوْرَةٍ مِنْ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ فَفِي الفَاتِحَةِ أَوَّلِ سُوَرِ القرآنِ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1]، وهُوَ يومُ القِيامَةِ، يَوْمَ يدينُ النَّاسُ فيهِ لِرَبِّ العالَمينَ، وهُوَ مِنْ عالَمِ الغيبِ؛ وفِي سُوْرَةِ النَّاسِ، آخِرِ سُوَرِ القرآنِ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾[2]، والجِنَّةِ: خَلْقُ الجِنِّ: والجنُّ مِنْ عالَمِ الغيبِ الذِي لا يَرَاهُ النَّاسُ، ولا يعلمُونَ عَنْهُ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ تعالَىٰ لَهُمْ. وفيمَا بينَهُمَا مِنْ سورِ القُرآنِ حافِلٌ بالآياتِ التِي تُقَرِّرُ هَذا الأَصْلَ الأصيلَ.

* والمُتَأَمِّلُ كذلِكَ أخبارَ الأُمَمِ كُلِّها مِنْ لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إِلَىٰ أُمَّةِ الإِسْلامِ؛ يَجِدُ الأنبياءَ جميعًا قَرَّرُوا هَذا الأَصْلَ، وعَمِلُوا بِهِ؛ فآدَمُ عليه السلام، يَهْبِطُ إِلَىٰ الأَرْضِ، وهُوَ مُنْتَظِرٌ العودَةَ إِلَىٰ الجَنَّةِ وفقَ الغيبِ الذِي يَخْتارُهُ اللهُ تعالَىٰ.. ونوحٌ عليه السلام يواجِهُ أَهْلَ الأَرْضِ كُلَّهُمْ، ويَسْتِجيبُ لأَمْرِ رَبِّهِ، ويَصْنَعُ السفينَةَ، مُتَعَلِّقًا بالغيبِ، ولا يعلَمُ مَا سيكونُ مَا بعدَ صُنْعِ السَّفينَةِ.. وهُودُ عليه السلام رجلٌ وَاحِدٌ يواجِهُ أُمَّةً عِطَاشًا إِلَىٰ إِرَاقَةِ دَمِهِ، فَهُمْ يَرْمُونَهُ عَنْ قَوْسٍ واحِدَةٍ، وذلِكَ لِثِقَتِهِ بِرَبِّهِ، وعِصْمَتِهِ لَهُ مِنْهُمْ؛ فيقولُ لَهُمْ: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ

---

(1) الفاتحة: 4.

(2) الناس: 6.

مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1]؛ فَلا تَنْشَبُ فيهِ مَخَالِبُهُمْ، ولَا يَبْلُغُهُ مِنْهُمْ سُوءٌ، ولَمْ يَكُنْ عليه السلام يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ الرِّيحِ شَيْئًا.. وصالِحٌ عليه السلام يُمْهِلُ قَوْمَهُ بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ ثلاثَةَ أَيَّامٍ، ولَمْ يَكُنْ يعلَمُ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تعالَىٰ لِقَوْمِهِ مِنَ النَّكَالِ[2] بَعْدَ المُهْلَةِ[3].. وإبراهيمُ عليه السلام يُلْقَىٰ فِي النَّارِ المُسْتَعِرَةِ؛ فَلَمْ يَجِدْ إِلَّا (حسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ)، وَهُوَ يعلَمُ أَنَّ اللهَ تعالَىٰ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ سَيُنْجِيهِ، ولَمْ يَكُنْ يعلَمُ مِنْ أَمْرِ اللهِ تعالَىٰ للنَّارِ شَيْئًا.. ولوطُ عليه السلام يَتَسَوَّرُ عليهِ الفُجَّارُ بيتَهُ؛ يُرِيدُونَ ضَيْفَهُ بِسوءٍ؛ فَلَمْ يَجِدْ حِيلَةً لِدَفْعِهِمْ؛ ويَبْلُغُ بِهِ الكَرْبُ مُنْتهاهُ؛ والشِّدَّةُ غايَتَها؛ فَيقولُ: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[4] فتَتَدَخَّلُ رُسُلُ رَبِّهِ، وتَضْرِبُهُمْ علَىٰ وُجُوهِهِمْ، فَتَنْطَمِسُ عيونُهُمْ، وتَأْمُرُهُ بالخروجِ مِنْ قَرْيَةِ السُّوءِ، وتُخْبِرُهُ بأَنَّ مَوْعِدَ هلاكِهِمُ الصُّبْحُ: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[5]، ولَمْ يَكُنْ يعلَمُ مَاذا سَيَكُونُ بعدَ الصُّبْحِ.. ومُوسَىٰ عليه السلام تُلْقِيهِ أُمُّهُ فِي اليَمِّ؛ إيمانًا بَوْعِدِ رَبِّها: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ

---

(1) هود: 54-56.

(2) النكال: العذاب، والعقوبة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 1/ 585.

(3) المهلة: هي المدة التي أمهلها نبي الله صالح عليه السلام قومه بعد عقر الناقة، وهي ثلاثة أيام، قبل أن يأتيهم العذاب.

(4) هود: 80.

(5) هود: 81.

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، «ولَكَمْ ذبحَ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِ مُوسَىٰ مِنْ وَلَدٍ، وَلِسانُ الْقَدَرِ يَقُولُ: لَا نُرَبِّيهِ إِلَّا فِي حِجْرِكَ»[2].. ويخرجُ مُوسَىٰ عليه السلام وقومُهُ مِنْ مِصْرَ فارًّا مِنْ فِرْعونَ وبَطْشِهِ، ويدركُهُ فرعونُ وجُنْدُهُ.. وَيَتَضَاعَفُ المَوْقِفُ بِسُرْعَةٍ، وتَشْتَدُّ الأَزْمَةُ.. البَحْرُ مِنْ أَمَامِهِمْ، والعَدُوُّ مِنْ خَلفِهِمْ، وتَبْلُغُ قُلُوبُ قَوْمِهِ حَنَاجِرَهُمْ، ويَقُولُونَ لَهُ ما أخبرَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[3]، وهوَ يَزجُرُهُمْ عنْ هذا الحُسْبانِ باللهِ، ويقولُ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ

(1) القصص: 7.

(2) الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 44.

(3) الشعراء: 61.

رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[1]، ولَمْ يَكُنْ يعلَمُ مِنْ شَأْنِ البَحْرِ شَيْئًا.. ورُوحُ اللهِ[2] وابْنُ أَمَتِهِ[3] وكَلِمَتُهُ[4] عيسَىٰ عليه السلام؛ تُؤُومِرَ علىٰ قَتْلِهِ، وأُحيطَ بِهِ، فألْقَىٰ اللهُ تَعالَىٰ شَبَهَهُ علَىٰ غيرِهِ، ورَفَعَهُ إليهِ،

---

(1) الشعراء: 62.

(2) مَعْنَىٰ: روح الله، في قوله تعالىٰ: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾؛ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ رُوحٍ مَخْلُوقَةٍ، وَأُضِيفَتِ الرُّوحُ إِلَىٰ اللهِ تعالىٰ عَلَىٰ وَجْهِ التَّشْرِيفِ، كَمَا أُضِيفَتِ النَّاقَةُ وَالْبَيْتُ إِلَىٰ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: 73]. وقد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ حَتَّىٰ وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ، فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ»، انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 5/ 161. (والدرع الثوب تلبسه المرأة، وجيب الدرع: فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس من أعلىٰ الثوب)، وهَذِهِ الرُّوحُ منْ جِنْسِ الرُّوحِ التِي نُفِخَتْ فِي جَسَدِ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ أنْ خَلَقَهُ اللهُ تعالَىٰ مِنْ تُرابٍ، وذلكَ قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59]. هذا ويحمل بعض الضالين الذين يقولون بألوهية عيسىٰ عليه السلام معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ علىٰ معتقدهم الفاسد في عيسىٰ عليه السلام؛ فيقولون: إن روح الله تعالىٰ حلت في عيسىٰ عليه السلام؛ فاكتسب الألوهية بها؛ تعالىٰ الله عن ذلك القول علوًا كبيرًا؛ فهذا كفر فاحش، وضلال مبين، نعوذ بالله من الضلال وسبيل الضالين.

(3) ومعنىٰ أَمَتُهُ: هي مريم ابنة عمران عليها السلام، والأمة العبدة.

(4) مَعْنَىٰ قولِهِ تَعالَىٰ: ﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾؛ فعَنْ قَتَادَةَ: «سَمَّاهُ اللهُ جل جلاله كَلِمَتَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَنْ كَلِمَتِهِ، كَمَا يُقَالُ لِمَا قَدَّرَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ: هَذَا قَدَرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ، يَعْنِي بِهِ: هَذَا عَنْ قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ حَدَثَ». «فَالْكَلِمَةُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ حِينَ قَالَ: لَهُ: (كُنْ)؛ فَكَانَ عِيسَىٰ بِـ (كُنْ)، وَلَيْسَ عِيسَىٰ عليه السلام هُوَ (الْكُنْ)، وَلَكِنْ بِالْكُنْ كَانَ، (فَالْكُنْ) مِنَ اللهِ قَوْلُهُ، وَلَيْسَ (الْكُنْ) مَخْلُوقًا»، انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية: 2/ 17.

وأَنْجاهُ الله تعالىٰ، وقُتِلَ الشَّبيهُ وصُلِبَ؛ فَهُمْ يقولونَ: قَتَلْنَا عيسَىٰ عليه السلام وصَلَبْناهُ؛ واللهُ تعالَىٰ يقولُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [1]، وسَيُهْبِطُهُ اللهُ تعالَىٰ فِي آخِرِ الزَّمانِ بينَ يدَيِ الساعَةِ؛ فيكسرُ الصليبَ، ويقتُلُ الخِنْزِيرَ، ويحكُمُ بالإسلامِ؛ فَشَأْنُ عيسَىٰ عليه السلام كُلُّهُ غَيْبٌ: ميلادُه غيبٌ، ورَفْعُهُ غيبٌ، ونُزُولُهُ غيبٌ، ومَوْتُهُ غَيْبٌ. ولَنَحْنُ أَوْثَقُ بِإيمانِنَا بنجاةِ عيسَىٰ عليه السلام وَرَفْعِهِ إِلَىٰ السَّماءِ بالغَيْبِ مِنْ إيمانِ أهلِ الكِتَابِ بِصَلْبِهِ وقَتْلِهِ مِمَّا رَأَوْهُ بأَعْيُنِهِمْ مِنْ صَلْبِ شِبْهِهِ، فبالإيمانِ بهذَا الغيبِ نَجَتْ أُمَّةُ الإسلامِ، وبالاتِّكَالِ علىٰ ما رَأَتِ العينُ، مع تكذيبِهِمْ بالغيبِ؛ هَلَكَ أَهْلُ الكِتَابِ..

ومُحَمَّدٌ ﷺ يخرُجُ فارًّا بِدِينِهِ منْ بلدِهِ، يسيرُ فِي الحَرِّ، فِي الهَجيرِ، مَعَهُ صاحبُهُ، الصادِقُ الصَّدُوقُ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه.. ويلِجُ الغَارَ، الذِي اسْتَوْحَشَتْهُ حَيَّاتُ البَرَارِي ووحُوشُ الغَابِ.. وجُفاةُ الأَعْرابِ وقُطَّاعُ الدُّرُوبِ، يُطارِدُونَ مَركبَه الطَّاهرَ الطَّهورَ، لقاءَ جائزةٍ موعودةٍ، دراهمَ معدودةٍ.. وهُوَ يعلَمُ أَنَّهُ سينجو، وأنه سيعودُ إلىٰ بَلَدِهِ؛ إيمانًا بقولِه تعالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [2]، ولَمْ يكُنْ يعلَمُ متَىٰ، ولا كَيْفَ.. ويُحْدِقُ الكُفَّارُ بالغَارِ الذِي يُخْفيهِ، ولا أَمَلَ فِي النَّجَاةِ إِلَّا باللهِ تعالَىٰ؛ وصاحبُهُ يقولُ لَهُ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ

(1) النساء: 157-158.

(2) القصص: 85.

مَوْضِعَ قَدَمِهِ لَأَبْصَرَنَا»، وهو يقولُ: «ما ظَنُّكَ باثْنينِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[1]، واللهُ تَعالَىٰ يخبرُ عنهُما ويقولُ: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[2].

* وهذا حالُ الأنبياءِ وأَتْباعِهِمْ جميعًا، فَلَمْ يَكُنْ إيمانُهُمْ بالغيبِ يُقْعِدُهُمْ عَنِ العَمَلِ، بَلْ كانُوا يَعْمَلُونَ ويَدْأَبُونَ حتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ تَعالَىٰ بالغيبِ.

* وهذَا الغيبُ الذِي كانَ اللهُ تعالَىٰ يَتَوَلَّىٰ بِهِ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ حِينَ العُسْرَةِ والشِّدَّةِ والحَاجَةِ، مِمَّا يُسَمَّىٰ بالمُعْجِزاتِ؛ يُجْرِي اللهُ تَعالَىٰ لأوليائِهِ الصالحينَ شِبْهَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَىٰ قيامِ السَّاعَةِ، وهَذَا ما يُعْرَفُ بالكراماتِ. والإيمانُ بِكَرامَاتِ الأَوْلياءِ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ عَقِيدَةِ المسلمينَ، قالَ الإمامُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ[3]، كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ

---

(1) رواه البزار في مسنده، مسند: أنس بن مالك: 1/ 96، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، وقال المحققون: صحيح الإسناد.

(2) التوبة: 40.

(3) قوله: (أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات)؛ أي أن كرامات الأولياء تنقسم إلىٰ قسمين: الأول: علم وكشف. والثاني: قدرة وتأثير. أما الأول: فكأن يُعلمه الله ويُطلعه ويكشف له ما لا يكشف لغيره يقظة أو منامًا، كما حدث لعمر بن الخطاب ﷺ في قصة: يا سارية الجبل. وأما الثاني: فكأن تكون له قدرة وتأثير علىٰ الأشياء ليست لغيره، كما وقع لمريم عليها السلام وما حدث لأصحاب الكهف، انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية: 11/ 314-318، وشرح العقيدة الواسطية، للهراس: 1/ 252.

صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

* والإيمانُ بالغيبِ المكنونِ، وأنَّ هناكَ قُوَّةً فوقَ قُوَّةِ البَشَرِ، وإرادَةً فوقَ إِرَادَتِهِمْ؛ يَعْصِمُ المؤمنينَ مِنَ الوقوعِ فِي اليأسِ والقُنُوطِ؛ فَبِهِ يَقْتاتُونَ أَيَّامَ الشِّدَّةِ والمِحْنَةِ؛ فإنَّ واقِعَ الأُمَّةِ الأَليمَ فِي بعضِ مراحِلِهَا؛ لا تُدْرَكُ لَهُ نِهايَةٌ، ولا يُدْرَكُ للخلاصِ منهُ سبيلٌ، ولا تُدْرَكُ للغَلَبَةِ علَىٰ الأعداءِ، واسْتِعادَةِ الأُمَّةِ عافِيَتَها طَاقَةٌ؛ حتَّىٰ لَوْ عَمِلَ المسلمونَ بِكُلِّ إمكاناتِهِمْ وطاقَاتِهِمْ، فإنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الأُمَمِ تَعْمَلُ بأضعافِ أضعافِ ما عِنْدَهُمْ.

فإذا آمَنَ المسلمونَ بالغيبِ، وبِأَنَّ اللهَ تعالَىٰ قادِرٌ علَىٰ تَغْيِيرِ أحوالِهِمْ بقولِهِ تعالَىٰ: ﴿كُنْ﴾، وأنَّ كلَّ شيءٍ عليهِ سُبحانَهُ هَيِّنٌ، وأنَّ الكونَ كلَّهُ بيدِ اللهِ تعالَىٰ، وأنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بيدِ المَلِكِ القديرِ، وأنَّ يَدَ اللهِ تعالَىٰ فوقَ أَيْديهِمْ، وأنَّهُ سبحانَهُ ينتظِرُ مِنْ عبادِهِ أَنْ يَبْدَأُوا بِتغيِيرِ أَنْفُسِهِمْ؛ حتَّىٰ يُغَيِّرَ لَهُمُ الكونَ كُلَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2]، فإنْ هُمْ آمَنُوا بذلكَ إِلَىٰ حَدِّ اليقينِ؛ أَخْرَجَهُمْ هذا مِنَ اليأسِ والقُنُوطِ، وفتَحَ لَهُمْ أبوابًا مِنَ الأملِ والرَّجاءِ الصَّادِقِ، وكانَ مِنْهُمْ مِنَ الجُهْدِ ما لَمْ يكُنْ مِنْ قبلُ، وكانَ لَهُمْ مِنَ التَّوْفيقِ بِعْدَ ذلكَ مَا لَمْ يكُنْ لَهُمْ بِحُسْبانٍ.

(1) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية: 3/ 156.

(2) الرعد: 11.

القاعدةُ العاشِرةُ

عَظَمَةُ المَخْلُوقِ بِتَعْظيمِ الخَالِقِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ مَنْ يَرَىٰ فِي الاعْتِرافِ بِعَظَمَةِ اللهِ المُطْلَقَةِ غَضًّا[1] مِنْ قِيمَةِ الإنسانِ، وإِصْغارًا لِشَأْنِهِ فِي الوُجُودِ، كَأَنَّمَا اللهُ تعالىٰ والإِنْسانُ نِدَّانِ، يَتَنَافَسَانِ عَلَىٰ العَظَمَةِ والقُوَّةِ فِي هَذَا الوُجُودِ.. أَنَا أُحِسُّ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَدْنَا شُعُورًا بِعَظَمَةِ اللهِ المُطْلَقَةِ؛ زِدْنَا نَحْنُ أَنْفُسُنَا عَظَمَةً؛ لِأَنَّنَا مِنْ صُنْعِ إِلهٍ عَظِيمٍ!».

* يُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أنَّ الإنسانَ حينَ يَأْوِي إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ؛ اعْتِمادًا علَىٰ عَظَمَتِهِ -التِي تَعْنِي: عِلْمَهُ الكامِلَ، وقُدْرَتَهُ الكَامِلَةَ، وحِكْمَتَهُ الكَامِلَةَ، وغِنَاهُ الكَامِلَ، وإِحَاطَتَهُ الكَامِلَةَ، وعِزَّهُ الكَامِلَ.. وكَمَالَهُ سُبْحانَهُ مِنْ كُلِّ الوُجوهِ- أَنَّهُ حينئذٍ يُقَلِّلُ مِنْ قِيمَةِ نَفْسِهِ، وأنَّ عَلَيْهِ أنْ يَعْمَلَ، ولا يَنْتَظِرَ قُوَّةً وَلَا عَظَمَةً غيرَ قُوَّتِهِ وعَظَمَتِهِ. بَلْ هَذَا فِي الحقيقَةِ تَنْقِيصٌ مِنْ قِيمَةِ الإنسانِ، تَنْقِيصٌ للإنسانِ نَفْسِهِ حينَ يَظُنُّ هَذا الظَّنَّ؛ فإنَّ الإنسانَ القَاصِرَ العِلْمُ والفِكْرُ والحِكْمَةُ؛ يَجِدُ هذا الشُّعورَ حينَ يرَىٰ فِي الناسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وأَقْدَرُ مِنْهُ. أَمَّا الكَامِلُ العَقْلُ؛ فَلَا يَرَىٰ بذلِكَ بَأْسًا، وإِنَّما يَسْتَمِدُّ مِمَّنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْه ما نَقَصَ عَنْهُ وغابَ؛ وإِنَّ الطِّفْلَ الصغيرَ يَسْتَمِدُّ عظَمَتَهُ مِنْ أبيهِ، والجُنْدِيُّ فِي الدَّوْلَةِ يستمِدُّ عَظَمَتَهُ مِنْ دَوْلَتِهِ؛ فإذَا كانَ هَذَا هُوَ الحالُ مَعَ البَشَرِ؛ فكيفَ بالحَالِ مَعَ اللهِ تعالَىٰ؛ الذِي بِعَظَمَتِهِ خُلِقَ الإنسانُ وكانَ، ومِنْ عَظَمَتِهِ اسْتَمَدَّ الإنسانُ العَظَمَةَ، ومِنْ قُوَّتِهِ اسْتَمَدَّ القُوَّةَ، ومِنْ عِلْمِهِ استمدَّ

---

(1) الغض: التنقيص والتقليل، ورجلٌ غضيضٌ، أي؛ ذَليلٌ بَيِّنُ الغَضَاضَةِ، انظر: تهذيب اللغة، للأزهري: 8/ 6.

العِلْمَ، ومِنْ غِناهُ استَمَدَّ الغِنَىٰ، إذِ العَظَمَةُ والقُوَّةُ والعِلْمُ والغِنَىٰ والعِزُّ للهِ جميعًا، وليسَ للإنسانِ مِنْها إلَّا مَا رَزَقَهُ اللهُ تعالَىٰ مِنْها، وأَذِنَ لَهُ فيهِ.

* وإذا تُصُوِّرَ أنْ ينازِعَ الإنسانُ إخوانَهُ مِنْ بَنِي الإنسانِ العَظَمَةَ والقُوَّةَ والمُلْكَ والغِنَىٰ؛ فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُنَازِعَ العَبْدُ رَبَّهُ عَظَمَتَهُ وَقُوَّتَهُ ومُلْكَهُ وكِبْرِياءَهُ؟ وهَلْ للإنسانِ طاقَةٌ أَنْ يَكُونَ نِدًّا للهِ تعالىٰ؟! فيكونَ هُوَ فِي جانِبٍ، واللهُ تَعالَىٰ فِي الجانِبِ الآخَرِ.. إنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَجَرَّدُ مِنْ عَظَمَتِهِ، ويَحْكُمُ علَىٰ نَفْسِهِ بالخُذْلانِ والبَوارِ؛ فَإِنَّ مَنْ نازَعَ رَبَّهُ تعالَىٰ الكبرياءَ، وتَعاظَمَ فِي نَفْسِهِ؛ قَصَمَهُ اللهُ تَعالَىٰ وأَرْدَاهُ، وإنَّ قومًا تعاظموا فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1]، فأجابَهُمُ اللهُ تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[2].

* «فَمَنْ تعاظَمَ وتَكَبَّرَ، ودَعا النّاسَ إِلَىٰ إِطْرائِهِ ورَجائِهِ ومَخافَتِهِ؛ فَقَدْ تَشَبَّهَ باللهِ تعالَىٰ، ونَازَعَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وهُوَ حَقيقٌ بأَنْ يُهينَهُ اللهُ تعالَىٰ غايةَ الهوانِ، ويَجْعَلَهُ كالذَّرِّ تَحْتَ أَقْدامِ خَلْقِهِ. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ عز وجل: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[3]»[4]. وعَنْ عَمْرِو بْنِ

---

(1) فصلت: 15.

(2) فصلت: 15-16.

(3) رواه أبو داود، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكِبْرِ: 4/ 59، وابن ماجه، باب البراءة من الكبر والتواضع: 2/ 1397، وصَحَّحَهُ الألباني.

(4) انظر: تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي: 1/ 28.

شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ[1] فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَىٰ سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّىٰ بُولَسَ[2]، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ[3]، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الخَبَالِ[4]»[5].

(1) الذَّرُّ: النَّمْلُ الْأَحْمَرُ الصَّغِيرُ وَاحِدُهَا ذَرَّةٌ، وَقِيلَ: الذَّرَّةُ يُرَادُ بِهَا مَا يُرَىٰ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ الدَّاخِلَ فِي النَّافِذَةِ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 8/ 3192.

(2) بُوْلَسُ: سِجْنٌ جَهَنَّمَ، مِنَ الْإِبْلَاسِ بِمَعْنَىٰ الْيَأْسِ سُمِّيَ بِهِ لِيَأْسِ دَاخِلِهِ مِنَ الْخَلَاصِ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 8/ 3193.

(3) نَارُ الْأَنْيَارِ أَيْ: نَارُ النِّيرَانِ، أَنْيَارٌ جَمْعُ نَارٍ، علىٰ غير القياس، وَإِضَافَةُ النَّارِ إِلَيْهَا لِلْمُبَالَغَةِ كَأَنَّ هَذِهِ النَّارَ لِفَرْطِ إِحْرَاقِهَا وَشِدَّةِ حَرِّهَا تَفْعَلُ بِسَائِرِ النِّيرَانِ مَا تَفْعَلُ النَّارُ بِغَيْرِهَا. أَوْ لِأَنَّهَا أَصْلُ نِيرَانِ الْعَالَمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلىٰ: 12]، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 8/ 3193.

(4) عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، أَيْ: صَدِيدِهِمُ الْمُنْتِنِ الْمُحْمَىٰ غَايَةَ الْحَرَارَةِ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِحَمِيمٍ، و(طِينَةِ الْخَبَالِ): تَفْسِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ، بِمَعْنَىٰ الْفَسَادِ. فَهُوَ اسْمُ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، وَهُوَ مَا يَسِيلُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّدِيدِ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 8/ 3193. وجاءت كلمة: (طِينَةُ الْخَبَالِ)، مفسرة في حديث آخر: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟، قَالَ: عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ قَالَ: عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ»، رواه النسائي، ذِكْرُ مَا أَعَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِشَارِبِ الْمُسْكِرِ، مِنَ الذُّلِّ، وَالْهَوَانِ، وَأَلِيمِ الْعَذَابِ: 8/ 327، وصَحَّحَهُ الألباني.

(5) رواه الترمذي في سننه: 4/ 655، وحسَّنه الألباني.

كُلَّمَا قَوِيَ الإنسانُ؛ ازْدادَتْ عَظَمَةُ اللهِ تعالَى فِي نفْسِهِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّ هؤلاءِ الذينَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ أَنْفُسَهُمْ حينَ يَخْفِضُونَ -فِي وَهْمِهِمْ- إِلَهَهُمْ أَوْ يُنْكِرُونَهُ، إِنَّما هُمُ المَحْدُودُونَ، الذينَ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يَرَوْا إِلَّا الأُفُقَ الوَاطِئَ القَرِيبَ.. إنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الإنسانَ إِنَّما لَجَأَ إِلَىٰ اللهِ إِبَّانَ ضَعْفِهِ وعَجْزِهِ، فَأَمَّا الآنَ فَهُوَ مِنَ القُوَّةِ بِحَيثُ لا يَحْتاجُ إِلَىٰ إِلَهٍ! كَأَنَّمَا الضَّعْفُ يَفْتَحُ البَصِيرَةَ، والقُدْرَةُ تَطْمِسُهَا.. إنَّ الإنسانَ لَجَديرٌ بِأَنْ يَزِيدَ إِحْسَاسًا بِعَظَمَةِ اللهِ المُطْلَقَةِ كُلَّمَا نَمَتْ قُوَّتُهُ؛ لِأَنَّهُ جَديرٌ بِأَنْ يُدْرِكَ مَصْدَرَ هذهِ القُوَّةِ، كُلَّمَا زَادَتْ طَاقَتُهُ عَلَىٰ الإِدْرَاكِ».

* وهؤلاءِ المَخْدوعُونَ بِما وُهِبُوا مِنْ عَظَمَةٍ، الذِينَ يجعلُونَ مِنْ أَنْفسِهِمْ أندادًا للهِ تعالَىٰ، وأَنَّهُمْ حينَ يَنْسِبُونَ الأمورَ إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ يَظُنُّونَ أَنَّهُم يُنْقِصُونَ مِنْ عَظَمَتِهِمْ وقُدْرَتِهِمْ وإِمْكاناتِهِمْ.. إِنَّهُمْ يظُنُّونَ هذا الظَّنَّ الهَابِطَ الرَدِيءَ؛ لأنَّ عُقُولَهُمْ عاجزةٌ، وحِساباتِهِمْ قَاصِرَةٌ؛ لا يَرَوْنَ إِلَّا فِي حُدودِ مَا تَرَىٰ أَبْصارُهُمْ، وتُدْرِكُ مشاعِرُهُمْ، فَعَلَىٰ قَدْرِ هُبُوطِ سَقْفِ أفكارِهِمْ وعلومِهِمْ؛ يَنْقُصُ مِنْ إِدْرَاكِهِمْ لِمَعْنَىٰ العَظَمَةِ وحَقيقَتِها ومَصْدَرِهَا.

* وإِنَّ بَعْضَهُمْ، لا سيَّمَا الأَرْضِيِّينَ مِنْهُمْ، يرونَ العِلْمَ ثَوْرَةً علَىٰ الدِّيْنِ، وأَنَّ العِلْمَ والدِّيْنَ يَصْطَدِمَانِ، وأنَّ البَشَرِيَةَ لَمْ تَرْتَقِ -حينَ ارْتَقَتْ فِي شَتَّىٰ المَجالاتِ- إِلَّا حينَ تَنكَّرَتْ للدِّيْنِ، وتَجَرَّدَتْ مِنْ قيودِهِ، وفَصَلَتِ الدِّينَ عَنِ الدُّنْيا، وهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الإنسانَ الضعيفَ العاجزَ هُوَ الذِي يَلْجَأُ إِلَىٰ التَّعْويلِ علَىٰ عَظَمَةِ اللهِ تعالَىٰ وقُوَّتِهِ؛ وأَنَّهُ حينَ يُصْبِحُ عندَهُ قَدْرٌ كَافٍ مِنَ العَظَمَةِ والقُوَّةِ؛ فَلَا حاجَةَ لَهُ حِيْنَئِذٍ إِلَىٰ مَنْ يستمِدُّ مِنْهُ العَظَمَةَ والقُوَّةَ والعِنَايَةَ والتَّوْفيقَ.. وكَأَنَّ الضَعيفَ العاجزَ هُوَ الذِي يؤمِنُ بِقُوَّةِ اللهِ تعالَىٰ وعَظَمَتِهِ؛ وكأَنَّ

القُوَّةَ والعظمَةَ التِي اكْتَسَبَها مِنَ الله تَعالَىٰ قَدْ أَعْمَتْ بَصِيرَتَهُ؛ فَأَصْبَحَ لا يَرَىٰ إِلَّا نَفْسَهُ، ونَفْسَهُ فَحَسْبُ.

وهذَا هُوَ عَيْنُ الجهلِ والانْحِدارِ والهُبُوطِ والانحطاطِ، وهَذَا هُو الجَاهِلُ؛ ولَوْ بلَغَ مِنَ العِلْمِ مَا بَلَغَ، وإِنَّما هُوَ مُسْتَدْرَجٌ؛ يُوشِكُ أَنْ يُعَاجِلَهُ اللهُ تَعالَىٰ بِعُقُوبَةٍ عامَّةٍ أو خَاصَّةٍ؛ وسُنَّةُ اللهِ تعالَىٰ جَارِيَةٌ فِي الأَفْرادِ والأُمَمِ الذينَ سَلَكُوا هَذا المَسْلَكَ فِي أَنْفُسِهِمْ وأُمَمِهِمْ.. وإِذَا وصلَتِ البَشَرِيَّةُ إِلَىٰ هَذَا المَدَىٰ الهَابِطِ الدَّنِيءِ مِنَ التَّعاظُمِ المُزَيَّفِ المَصْنُوعِ؛ وإِنَّ الأَرْضَ وَشِيكَةٌ يومَها بِهَلاكٍ؛ تَنْتَظِرُ بأسَ اللهِ تعالَىٰ مِنَ الصباحِ أَوِ المَساءِ، وذلِكَ قولُهُ تعالَىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

كمالُ العِزَّةِ فِي الاسْتِنادِ إِلَى عظَمَةِ اللهِ تعالَى

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّ المُؤْمِنِينَ بِعَظَمَةِ اللهِ المُطْلَقَةِ لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ضَعَةً[2] ولا ضَعْفًا، بَلْ علَىٰ العَكْسِ يَجِدُونَ فِي نُفُوسِهِمُ العِزَّةَ والمَنَعَةَ باسْتِنَادِهِمْ إِلَىٰ القُوَّةِ الكُبْرَىٰ المُسَيْطِرَةِ علَىٰ هَذا الوُجُودِ.. إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مَجَالَ عَظَمَتِهِمْ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الأَرْضِ، وبَيْنَ هَؤُلاءِ النَّاسِ، فِهِيَ لا تَصْطَدِمُ بِعَظَمَةِ اللهِ المُطْلَقَةِ فِي هَذا الوُجُودِ. إِنَّ

---

(1) يونس: 24.

(2) الضَّعَةُ: الذُّلُّ والهوانُ والدَّناءَةُ، وقَدْ وُضِعَ ضَعَةً؛ فَهُوَ وَضِيعٌ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 3/ 89.

لَهُمْ رَصيدًا مِنَ العَظَمَةِ والعِزَّةِ فِي إيمانِهِمُ العمِيقِ، لَا يَجِدُهُ أُولئِكَ الذِينَ يَنْفُخُونَ أَنْفُسَهُمْ كـ«البَالُونِ»، حَتَّىٰ لَيُغَطِّي الوَرَمُ المَنْفُوخُ عَنْ عُيُونِهِمْ كُلَّ آفَاقِ الوُجُودِ!».

* يُشيرُ سَيِّدٌ إِلَىٰ اسْمٍ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالَىٰ وهُوَ العظيمُ سُبْحانَهُ، وصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وهِيَ العَظَمَةُ، وهَذَا الاسْمُ هُوَ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تَعَالَىٰ الجَامِعَةِ؛ قال السعدي: «(العظيمُ): الجَامِعُ، فَجَميعُ صفاتِ العَظَمَةِ، والكبرياءِ، والمَجْدِ، والبَهاءِ، الذي تُحِبُّهُ القلوبُ، وتُعَظِّمُهُ الأرواحُ، ويَعْرِفُ العارِفونَ أنَّ عَظَمَةَ كلِّ شيءٍ -وإنْ جَلَّتْ فِي الصِّفَةِ- فإنَّها مُضْمَحِلَّةٌ في جانبِ عَظَمَةِ العَلِيِّ العظيمِ.. واللهُ تعالَىٰ عَظيمٌ، لَهُ كلُّ وَصْفٍ ومعنىً يُوجِبُ التَّعْظيمَ؛ فَلا يَقْدِرُ مخلوقٌ أنْ يُثْنِيَ عليهِ، كما يَنْبَغِي لَهُ، ولا يُحْصِيَ ثناءً عليهِ، بلْ كما أَثْنَىٰ هُوَ علَىٰ نَفْسِهِ، وفوقَ ما يُثْنِي عليه عبادُهُ. واعلمْ أنَّ معانِيَ التَّعْظيمِ الثابتَةِ للهِ وحْدَهُ نوعانِ:

أحدُهُمَا: أنَّهُ موصوفٌ بكلِّ صِفَةِ كمالٍ، ولَهُ مِنْ ذلكَ الكَمَالِ أَكْمَلُهُ، وأَعْظَمُهُ وأوسَعُهُ، فَلَهُ العِلْمُ المُحيطُ، والقُدْرَةُ النافِذَةُ، والكبرياءُ، والعَظَمَةُ، ومِنْ عَظَمَتِهِ أنَّ السماواتِ والأرضَ فِي كَفِّ الرَّحْمنِ أصغرُ مِنَ الخَرْدَلَةِ[1].

النوعُ الثاني: مِنْ معانِي عَظَمَتِهِ تعالَىٰ أنَّهُ لا يستحِقُّ أحدٌ مِنَ الخلْقِ أنْ يُعَظَّمَ كما يُعَظَّمُ اللهُ تعالىٰ؛ فيستحِقُّ جَلَّ جَلالُهُ مِنْ عبادِهِ أنْ يُعَظِّمُوهُ بقلوبِهِمْ، وأَلْسِنَتِهِمْ، وجوارِحِهِمْ؛ وذلكَ بِبَذْلِ الجُهْدِ فِي مَعْرِفَتِهِ، ومَحَبَّتِهِ، والذُّلِّ لَهُ، والانكسارِ لهُ، والخُضوعِ لِكِبْرِيائِهِ، والخوفِ مِنْهُ، وإعمالِ اللِّسانِ بالثَّناءِ عليهِ، وقيامِ الجوارحِ بِشُكْرِهِ وعُبُودِيَّتِهِ، ومِنْ تَعْظيمِهِ

(1) الخَرْدَلَةُ: واحِدَةُ الخَرْدَلِ، وهو نبات له حب صغيرٌ أسودُ، يُسْتَعْمَلُ في التوابِلِ والطِّبِّ، زِنَةُ الخردلة ربع سمسمة، انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 8/ 250، ومعجم لغة الفقهاء، لقلعجي: 1/ 184.

أنْ يُتَّقَىٰ حَقَّ تُقاتِهِ؛ وَيُطاعَ، فَلَا يُعْصَىٰ، ويُذْكَرَ؛ فَلا يُنْسَىٰ، ويُشْكَرَ؛ فلا يُكْفَرَ، ومِنْ تَعْظيمِه تَعْظيمُ مَا حَرَّمَهُ وشَرَعَهُ مِنْ زَمانٍ ومكانٍ وأعمالٍ»[1].

* ويُؤَكِّدُ سَيِّدٌ فِي نهايَةِ الفقْرَةِ مَا ابْتَدَأَهُ فِيها، مِنْ أنَّ المُؤْمِنَ الحَقَّ هوَ الذِي يَعْتَقِدُ أنَّ عظمةَ اللهِ تعالَىٰ مطلقةٌ كاملَةٌ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، وأَنَّهُمْ إنَّمَا يَسْتَمِدُّونَ العَظَمَةَ مِنْ عظَمَتِه ﷻ، وأَنَّهُمْ لا يَجِدُونَ فِي أنفسِهِمْ نَقْصًا بِهَذا الإيمانِ؛ وإنَّما هُمْ مُفْتَخِرُونَ بِهذا، ويَجِدونَ فِي أَنْفُسِهِمُ العِزَّةَ والمَنَعَةَ والفَخْرَ بِرَبِّهِمُ العظيمِ سُبْحانَهُ، الَّذِي بيدِهِ مقالِيدُ السماواتِ والأَرْضِ، ويمتلِكُ نَواصِيَ عبادِهِ فِي العالَمَيْنِ العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ، وحالُهُمْ كَمَا قيلَ:

قَوْمٌ تَخالَجَهُمْ[2] زَهْوٌ[3] بِسَيِّدِهِمْ *** والعَبْدُ يَزْهُو علَىٰ مِقْدارِ مَوْلاهُ[4]

فَإِذا كانَ العَبْدُ المَمْلوكُ يَزْهُو وَيَفْخَرُ إِذَا كانَ سيِّدُهُ غَنيًّا عَظيمًا مَنيعًا رَحيمًا كريمًا؛ فالأَوْلىٰ بالمُؤْمِنِ أنْ يَزْهُوَ ويَفْخَرَ بِعَظَمَةِ سيِّدِهِ ومولاهُ الحَقِّ، العظيمِ الأَعْظَمِ، ذِي الجلالِ، والجَمالِ، والإحسانِ والكَرَمِ ﷻ.

(1) تفسير أسماء الله الحسنىٰ، للسعدي: 1/ 216.

(2) تَخَالَجَهُمْ: انتابهم، وجال بخاطرهم، ومعنىٰ تَخالَجَ. وَمَا حَكَّ فِي الصَدْر، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 27/ 118.

(3) الزهو: التفاخر، والتعاظم، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 3/ 29

(4) أورد هذا البيت الغزالي في الإحياء: 4/ 341.

عِبادَةُ المُقَرَّبِينَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّعْظِيمِ

* كما يَتَعَبَّدُ المؤمنونَ رَبَّهُمْ بِتَعظيمِهِ فِي كُلِّ صلاةٍ، تَنْحنِي لَهُ صدورُهُمْ، وتَنْكَسِرُ لَهُ قلوبُهُمْ، وتَهْتِفُ لَهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وحَناجِرُهُمْ، وجَوَارِحُهُمْ بِـ (سُبْحانَ رَبِّيَ العَظِيْمِ)، بَعْدَمَا تَلَقَّوُا الأَمْرَ العُلْوِيَّ بالإذْعانِ والتَّسْليمِ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[1]؛ فَتُحَلِّقُ أَرْواحُهُمْ حينَها فِي فَضَاءٍ مِنَ العَظَمَةِ المُطْلَقَةِ، لَا يَحُدُّهُ حَدٌّ، ولا يُقَيِّدُهُ قَيْدٌ.

* ثُمَّ هُمْ يُقَدِّرُونَ نفوسَهُمْ وذواتَهُمْ وعَظَمَتَهُمْ قَدْرَها التِي تَسْتَحِقُّ؛ حينَ يُعَظِّمُونَ رَبَّهُمْ، ولا يَنْقُصُ مِنْ عظمَتِهِمْ شَيْءٌ؛ فلا تعارُضَ بينَ ما يسعَوْنَ لتحقيقِهِ مِنْ عظَمَةٍ تليقُ بِمَقامِهِمُ البَشَرِيِّ الصَّغيرِ، وبينَ عَظَمَةِ اللهِ تعالَىٰ التِي هُمْ ومَا يَعْمَلُونَ صادِرُون عَنْها؛ فَمَجَالُ عظمَتِهِمْ هُوَ أُفُقُ هذِهِ الأَرْضِ الضَّيِّقَةِ المحدودةِ، وأَنَّىٰ لِلْمحدودِ أَنْ يُضاهِيَ اللَّامحْدودِ؟!

* وهَذا المَعْنىٰ الصادِقُ لِحقيقَةِ العَظَمَةِ لا يُدْرِكُهُ المُتَكَبِّرُونَ المُتَعاظِمُونَ، الذينَ نَفَخَ الشيطانُ فِي صُدُورِهِمْ؛ فامْتَلَأوا كِبْرًا وعُلُوًّا زَائِفًا غَطَّىٰ علَىٰ بَصائِرِهِم؛ فَلَمْ يعودُوا يُدْرِكُونَ الأُمُورَ علَىٰ حَقِيقَتِها: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

* ومِمَّا يجدُرُ بالدُّعاةِ أَنْ يفْقَهوهُ، أَنَّ تعظيمَ اللهِ تعالَىٰ فِي العَمَلِ أَدَبٌ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ رَفِيعٌ، يَجْدُرُ أَلَّا يَغْفُلَ عَنْهُ الدعاةُ والعُلماءُ والعامِلُونَ سَاعَةَ العَمَلِ، أَوِ الظَّفَرِ والتَّوفيقِ؛ فَيَسْتَخِفَّهُمُ الفَرَحُ بِمَا أصابَهُمْ مِنْ خيرٍ؛ فَيَنْسبُوهُ لِأَنْفُسِهِم، أَوْ أَنْ يُرجِعوا النجاحَ لِمَا قَدَّمُوهُ

---

(1) الواقعة: 74.

(2) الحج: 46.

مِنْ جُهْدٍ وعَمَلٍ، ويَنْسَوا رَبَّهُمْ الذِي وَفَّقَهُمْ لِتِلْكَ النَّجاحَاتِ؛ فَيَكِلَهُمُ اللهُ تعالَىٰ لِأَنْفُسِهِم؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَكَلَه اللهُ تَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ؛ هَلَكَ وَخِسَرَ خَسَارَةً لَا تُجْبَرُ؛ ولَنَا فِي الصَّحَابَةِ -رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِمْ- يَوْمَ حُنَيْنٍ عِبْرَةٌ.. وإنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَعَ عَبْدِهِ يَحُوطُهُ بِالرِّعَايَةِ والتَّوْفِيقِ والسَّدادِ؛ مَا دَامَ يَقُول: (اللهُ)، يَرُدُّ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ تَأْيِيدَ الرَّبِّ تَعَالَىٰ لِعَبْدِهِ عَلَىٰ قَدْرِ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ: إِيمَانٍ باللهِ، وإِخْلَاصٍ لهُ، وتَوَكُّلٍ عليهِ، وَثِقَةٍ بِهِ، وَمَحَبَّةٍ، وتَعْظِيمٍ، وافْتِقَارٍ لهِ؛ وإِنَّمَا يَنْقُصُ مِنْ تَأْيِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ لِعَبْدِهِ عَلَىٰ قَدْرِ نُقْصَانِ هَذِهِ المعَانِي؛ فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: (أَنَا) وَرَأَىٰ نَفْسَهُ؛ خَلَّاه اللهُ ونَفْسَه الضَّعِيفَةَ العَاجِزَةَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَىٰ اللهِ؛ فَلَا تَسَلْ حِينَهَا عَنْ خَسَارَتِهِ وخَيْبَتِهِ وَضَيْعَتِهِ وَشَتَاتِ أَمْرِه؛ فَعَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَؤَسِّسَ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا عَلَىٰ تَعْظِيمِ اللهِ تعالَىٰ ومَحَبَّتِهِ وإِخلاصِ الدِّينِ لَهُ، وعلَىٰ الافْتِقَارِ واتِّهامِ العَمَلِ، لَا عَلَىٰ العُجْبِ ورُؤْيَةِ النَّفْسِ؛ فَإِنَّهُ مِيزانُ التَّوْفِيقِ والخُذْلانِ.

* فإذا عَظُمَ الرَّبُّ الجليلُ سُبْحانَهُ فِي قَلْبِ العَبْدِ حَالَ العِبادَةِ والعملِ، وعَظُمَتْ هَيْبَتُهُ فِي نَفْسِهِ؛ عَظُمَتِ الأعمالُ التِي يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ، وأَدَّاها العَبْدُ علَىٰ أَحْسَنِ حالٍ وأَكْمَلِهِ، وعَظُمَ سُبحانَهُ وَهِيبَ مِنْ أَنْ يُعْصَىٰ، أَوْ أَنْ يُقْتَرَبَ مِنْ معصِيَتِهِ.. وما نَأَىٰ مَنْ نَأَىٰ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وتَجافَىٰ عَنْهَا مَعَ قُدْرَتِه عليها إِلَّا لِعَظَمَةِ اللهِ تعالَىٰ فِي نَفْسِهِ، ومَنْ هَذَا حالُهُ فَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ: عَظِيمٌ فِي الأَرْضِ، عظيمٌ فِي السَّماءِ؛ ولَا تَسْأَلْ عَنْ وَقَارِهِ عِنْد اللهِ تعالَىٰ، وعندَ خَلْقِهِ، «فَمَنْ عَظُمْ وَقَارُ اللهِ تعالَىٰ فِي قَلْبِهِ أَنْ يَعْصِيَهُ؛ وقَرَّهُ اللهُ تعالَىٰ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ أَنْ يُذِلُّوهُ»[1].

(1) الفوائد، لابن قيم الجوزية: 1/ 34.

وإنَّ العبْدَ لَيَدْنُو بِتَعْظيمِهِ رَبَّهُ فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ أَضْعافَ أَضْعافَ مَا يَقْطَعُهُ سِواهُ فِي أعمارٍ طَويلَةٍ، وأَزْمانٍ مَدِيدَةٍ.. وهؤلاءِ هُمُ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، المُقَرَّبونَ المُقَرَّبونَ، الذِينَ لَهُمْ مَعَ اللهِ تعالَىٰ شَأْنٌ ولِسائِرِ النَّاسِ شَأْنٌ.

القاعدةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ

تَوافُقُ مَفْهومِ الحُرِّيَّةِ وتَشْريعاتِ الإِسْلامِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «أَحْيانًا تَتَخَفَّىٰ العُبُودِيَّةُ فِي ثِيابِ الحُرِّيَّةِ؛ فَتَبْدُو انْطِلَاقًا مِنْ جميعِ القُيُودِ: انْطِلَاقًا مِنَ العُرْفِ[1] والتَّقَالِيدِ[2].. انْطِلَاقًا مِنْ تَكَالِيفِ الإِنْسانِيَّةِ فِي هَذَا الوُجُودِ!».

* كثيرًا مَا تَخْتَلِطُ المَفاهيمُ علَىٰ النَّاسِ؛ فَتُسَمَّىٰ الأُمورُ بغيرِ اسْمِهَا، وإنَّ مِمَّا اخْتَلَطَ علَىٰ الناسِ فَهْمَهُمْ لِمَعْنَىٰ الحُرِّيَّةِ؛ إذِ أَصْلُ مَعْناهَا: الخُلُوصُ مِنَ الشَّوَائِبِ أَوِ الرِّقِّ والعُبودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ تعالَىٰ، أَو خُلوصُهُمْ مِنَ اللُّؤْمِ أَوِ القَيْدِ[3].. إنَّ هذا المَعْنَىٰ الجميلَ اللَّطيفَ لِلْحُرِّيَّةِ؛ حَمَلَتْهُ المذاهِبُ الأَرْضيَّةُ علَىٰ غيرِ مَا يَحْتَمِلُ، وَذَهَبَتْ بِهِ بعيدًا عَنْ أَصْلِ مَعْناهُ، ومَا أُريدَ مِنْ وَضْعِهِ؛ فَصَارَ معْنَىٰ الحُرِّيَّةِ فِي عُرْفِ الأَرْضِيِّينَ وفِكْرِهِمْ الانْفِلَاتَ مِنْ جميعِ القُيودِ الدِّينِيَّةِ والأَخْلاقِيَّةِ، والتَّمَرُّدَ علَىٰ طبائِعِ الإِنْسانِيَّةِ وخَصَائِصِها؛ وأَصْبحَ بِوُسْعِ الإِنْسانِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشاءُ، ويقولَ ما يشاءُ، ويَعْبُدَ ما يشاءُ؛ باسم الحُرِّيَّةِ.. فَالإِنْسانُ فِي

---

(1) العُرْفُ: ما تَعارَفَ عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم، انظر: القاموس الفقهي لغةً واصطلاحًا، لسعدي أبي حبيب: 1/ 249.

(2) التقاليد: الْعَادَات المتوارثة الَّتِي يُقَلِّد فِيهَا الْخلف السّلف، ومفردها تَقْلِيد، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 754.

(3) انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 1/ 165.

عُرْفِهِمْ حُرٌّ مَا لَمْ يُؤْذِ الآخَرينَ.. فَتَجَرَّدَ الإنسانُ مِنْ معانِي الحِشْمَةِ والكَرامَةِ الإِنْسانِيَّةِ باسْمِ الحُرِّيَّةِ؛ فَبِتْنَا نَرَىٰ مُجْتمعاتٍ بِأَكْمَلِهَا: رِجَالًا ونِسَاءً مُتَجَرِّدَةً مِنْ مَلابِسِهَا وكرامَتِها الإِنْسانِيَّةِ التِي خَصَّها اللهُ تعالَىٰ بِهَا، وامْتَنَّ عليها بِهَا، مُتَعَرِّيَةً مِنْ أَبْسَطِ معانِي الإِنْسانِيَّةِ والآدَمِيَّةِ باسْمِ الحُرِّيَّةِ، ولَقَدْ نَادَاهُمُ سُبْحانَهُ بِوَصْفِ الآدَمِيَّةِ الرَّفِيعِ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].. وصِرْنا نَرَىٰ المَرْأَةَ تُصاحِبُ وتُخالِلُ مَنْ تشاءُ باسْمِ الحُرِّيَّةِ.. وأَصْبَحَتْ وأَمْسَتِ الخُمُورُ تُشْرَبُ باسْمِ الحُرِّيَّةِ.. وأضحَىٰ الرِّبَا يُؤْكَلُ أَضْعافًا مُضاعَفَةً باسْمِ الحُرِّيَّةُ.. وباتَتِ الفَواحِشُ تُرْتَكَبُ علَىٰ أَعْلَىٰ المُسْتوياتِ باسْمِ الحُرِّيَّةِ، ويَكْتَفِي الرِّجالُ بالرِّجالِ، والنِّساءُ بالنِّساءِ باسْمِ الحُرِّيَّةِ.. بلْ ويُعْبَدُ الشيطانُ فِي أَرْدَأِ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ الوَثَنِيَّةِ الهابِطِ الدنيءِ مُنْذُ كانَتِ البَشَرِيَّةُ باسْمِ الحُرِّيَّةِ..

وأصبحَ هذا مذهبًا لأُمَمٍ كثيرَةٍ، ومَدْرَسَةً بَدَأَتْ تُعَمَّمُ وتَتَعَوْلَمُ، ويُصَفَّقُ لَهَا ويُرَوَّجُ، وأخذتْ تَنْتَشِرُ فِي بلادِ المسلمينَ؛ بِشَكْلٍ مُخَطَّطٍ ومَدْروسٍ.. فإذا قَامَ مَنْ يُنْكِرُ هَذا، ويَنْتَشِلُ الناسَ أفرادًا ومُجتمعاتٍ مِنْ مُسْتَنْقَعِ الرَّذِيلَةِ والفجورِ والانحرافِ عَنْ خَطِّ الإنسانِيَّةِ الرَّفيعِ، ويأْخُذُ بيدِ التائهينَ إِلَىٰ حيثُ الكَرَامَةُ الإنسانِيَّةُ الرَّفيعَةُ، أَصْبَحَ يُتَّهَمُ بأَنَّهُ مِنْ أعداءِ الحُرِّيَّةِ والإنسانِيَّةِ، وأَنَّهُ مِنَ الظلاميِّينَ، الذينَ يَرْجعونَ بالنَّاسِ إِلَىٰ العصورِ المُظْلِمَةِ، وأَنَّهُ مِنَ المُتَعَصِّبينَ المُتَشَدِّدينَ.. وخُدِعَ بِهَذا كَثيرٌ مِنْ أَبْناءِ المُسْلمينَ ومُثَقَّفيهِمْ.

(1) الأعراف: 26.

حَدُّ الحُرِّيَةِ المأذُونُ

* والحَقُّ الذِي ينبغِي أَنْ يُعْلَمَ أنَّ للإنسانِ حقوقًا، ولأخيهِ الإنسانِ حقوقًا، ولله تعالَىٰ علَىٰ النَّاسِ حقوقًا، والحَدُّ المأذونُ بِهِ مِنْ حُرِّيَّةِ الإنسانِ هُوَ أَلَّا يعتدِيَ علَىٰ أَخِيهِ الإنسانِ؛ فَيُؤْذِيَهُ بأَيِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ الأَذَىٰ: المَادِّيِّ والمَعْنَوِيِّ.. وأَلَّا يَتَعَدَّىٰ حدودَ مَا أَمَرَ اللهُ تَعالَىٰ.. ولقدْ نَهَىٰ اللهُ تعالَىٰ مِنْ أنْ تُقْتَرَبَ حدودُهُ؛ فقالَ تعالَىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[1]، كما حَذَّرَ مِنْ تُتَعَدَّىٰ حدودُهُ، فَقالَ سبحانَهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[2]، كَمَا تَوَّعدَ أَشَدَّ الوعيدِ، وتَهَدَّدَ أَقْسَىٰ التَّهْديدِ مَنْ يُصِرُّ علَىٰ مَعْصيَتِهِ سُبحانَهُ، ومَعْصِيَةِ رسولِهِ ﷺ، ويَتَعدَّىٰ حُدودَهُ؛ فقالَ تعالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]؛ فهلْ تُصِرُّ البَشَرِيَّةُ بعدَ هذا علَىٰ تَجاوُزِ أَمْرِ اللهِ تعالَىٰ، وتَعَدِّي حُدُودِهِ باسْمِ الحُرِّيَّةِ؟!

فالمَساحَةُ المسموحُ بِهَا مِنَ الحُرِّيَّةِ إِذَنْ هِيَ مَساحَةُ المُباحَاتِ التِي أَحَلَّها اللهُ تعالَىٰ، أَوْ سَكَتَ عَنْها الشَّرْعُ رَفْعًا للحَرَجِ عَنِ النَّاسِ.

* والحُرِّيَّةُ بِهَذَا المَفْهومِ، حُرِّيَّةٌ مَضْبُوطَةٌ وفْقَ مَا شَرَعَ اللهُ تعالَىٰ للإِنْسانِ، لَا وفْقَ مَا تَهْوَىٰ نُفُوسُهُمْ، وتُزَيِّنُ لَهُمْ شياطِينُهُمْ؛ فَأَحلَّ اللهُ تعالَىٰ للناسِ أَطْعِمَةً، وحَرَّمَ أُخرَىٰ؛ فالحُرِّيَّةُ أَنْ يأكُلَ الإنسانُ مَا يشاءُ مِنَ الأَطْعِمَةِ الطَّيِّبَةِ المُباحَةِ التِي أَحَلَّهَا اللهُ تَعالَىٰ؛ فَإِذا هُوَ

---

(1) البقرة: 187.

(2) البقرة: 229.

(3) النساء: 14.

أَكَلَ مَا حرَّمَهُ اللهُ تَعالَىٰ؛ فَشَرِبَ الخمرَ، وأكلَ الخِنْزِيرَ؛ لَمْ يكُنْ حُرًّا فِي ذَلِكَ؛ بل هو مُعْتَدٍ علَىٰ حَقِّ اللهِ تعالَىٰ فِي التَّشْرِيعِ.. وأحَلَّ اللهُ تعالَىٰ لَهُ مَلابِسَ يَسْتَتِرُ بِهَا ويَتَزَيَّنُ، وأَحَبَّ مِنْهُ التَّجَمُّلَ بِهَا، وحَرَّمَ عليهِ بَعْضَها، كَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ التَّعَرِّيَ وكَشْفَ العَوْرَاتِ؛ فَإِذَا هُوَ لَبِسَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعالَىٰ، أَوْ تَعَرَّىٰ مِنَ مَلابِسِ السِّتْرِ، وأَبْدَىٰ عَوْرَتَهُ علَىٰ غيرِ مَا أَحَلَّ اللهُ تعالَىٰ؛ لَمْ يَكُنْ حُرًّا فَي ذلِكَ؛ بلْ متعديًا.. وأحلَّ اللهُ تعالَىٰ للمرأةِ أَنْ تختارَ مَنْ تشاءُ مِنَ الأزواجِ علَىٰ سُنَّةِ اللهِ تعالَىٰ، وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ، كَمَا أَحَلَّ للرَّجُلِ أنْ يختارَ مَنْ يشاءُ مِنَ الزَّوْجاتِ علَىٰ سُنَّةِ اللهِ تعالَىٰ، وسُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ، ولا يُكْرهانِ علَىٰ اختيارِ الزوجِ أوِ الزَّوْجَةِ؛ فإذا اتَّخَذَتِ المرأةُ خليلًا، واتَّخَذَ الرَّجُلُ خليلَةً مِنْ غيرِ الأزواجِ أوِ الزوجاتِ؛ فَهَذَا ليسَ حُرِّيَّةً؛ بلْ هُوَ انْحطِاطٌ وسُفُولٌ إِلَىٰ أَحَطِّ صُوَرِ الحَيَوانِيَّةِ النَّكِدَةِ.. وأَحَلَّ اللهُ تَعالَىٰ البَيْعَ والتِّجارَةَ، وحَرَّمَ الرِّبَا، وأَنْ يَأْكُلَ الإنسانُ مالَ أخيهِ الإنسانِ بغيرِ حَقٍّ؛ فَإِذا استَغَلَّ ضَعْفَهُ وحاجَتَهُ، وامْتَنَعَ مِنْ إِقْراضِهِ القَرْضَ الشَّرْعِيَّ، وأَلْجَأَهُ إِلَىٰ الرِّبَا؛ لَمْ يَكُنْ حُرًّا فِي ذَلِكَ؛ بل هو مُسْتَغِلٌّ دَنِيءٌ.. وشَرَعَ اللهُ تعالَىٰ للناسِ حُدودًا وأَحْكامًا، يَحْتكِمونَ إليها فِي مُعامَلاتِهم وسائرِ أُمورِ حياتِهِمْ، فَإِذا عَطَّلَ الإنسانُ شَرْعَ اللهِ تعالَىٰ، أوْ خالَفَهُ؛ لمْ يكُنْ حُرًّا فِي ذَلِكَ، بلْ هُوَ مُضاهَاةٌ للهِ تَعالَىٰ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، ومُضَادَّةٌ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

الفَرْقُ بينَ التَّحَرُّرِ الحَقِيقِيِّ، والتَّحَرُّرِ الحَيوانِيِّ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إنَّ هُنالِكَ فارِقًا أَساسِيًّا بَيْنَ الانْطِلاقِ مِنْ قُيودِ الذُّلِّ والضَّغْطِ والضَّعْفِ، والانْطِلاقِ مِنْ قُيودِ الإِنْسانِيَّةِ وتَبِعاتِها، إنَّ الأُوْلَىٰ مَعْنَاها: التَّحَرُّرُ الحَقِيقِيُّ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَمَعْناهَا: التَخَلِّي عَنِ المُقَوِّمَاتِ التِي جَعَلَتْ مِنَ الإِنْسانِ إِنْسانًا، وأَطْلَقَتْهُ مِنْ قُيودِ الحَيوانِيَّةِ الثَّقِيلَةِ!».

* والذِي علَىٰ الدُّعاةِ والمُصلحينَ مِنَ الواجِبِ ألَّا يَنْخَدِعُوا بِقِناعِ الحُرِّيَّةِ الحَدِيثَةِ الزَّائِفِ، وأَنْ يَكْشِفُوا عَنْ وَجْهِهِ الشَّائِهِ القبيحِ للنَّاسِ كَيْ يَتَقَزَّزُوهُ ويَحْذَرُوهُ، ويَفِرُّوا مِنْهُ؛ فِرارَهُمْ مِنْ أَعْدَىٰ الأعداءِ. وأَنْ يُمَيِّزُوا للناسِ بينَ الحُرِّيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ التِي أَذِنَ اللهُ تعالَىٰ للنَّاسِ بِهَا، المَبْنِيَّةِ علَىٰ مَصالِحِ الخَلْقِ -أَدْرَكُوا تلكَ المصالِحَ أَمْ لَمْ يُدْرِكُوها- وبينَ الحرِّيَّةِ الزَّائِفَةِ الكاذِبَةِ التِي يُرادُ بِهَا مِنَ الإِنْسانِ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْ دِينِهِ وأَخْلاقِهِ وقِيَمِهِ ومَبادِئِهِ، التِي أَهَّلَتْهُ لِأَنْ يكونَ إِنْسانًا، ورَفَعَتْهُ عَنْ مُسْتَوَىٰ الحَيوانِيَّةِ الوَاطِئِ الحضيضِ، وجَعَلَتْهُ يُحَلِّقُ فِي فضاءٍ مِنَ الحُرِّيَّةِ الطليقَةِ المَضْبوطَةِ الحَكيمَةِ.. وعَلَيْهِمْ كذلِكَ أَنْ يَرْجِعُوا بالناسِ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ فِي شُؤونِهِمْ كُلِّهَا؛ لِيَعْرِفُوا مَعْنَىٰ الحُرِّيَّةِ وحَقِيقَتَها وضَوابِطَها في كلِّ مَجالٍ، وهذا مَا لَا يُرِيدُهُ أعداءُ الإنسانِ والإنسانِيَّةِ.

* قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي الظِّلالِ: «ولا تريدُ هذهِ البَشَرِيَّةُ أَنْ تَرُدَّ القِفْلَ إِلَىٰ صَانِعِهِ، ولَا أَنْ تَذْهَبَ بالمريضِ إِلَىٰ مُبْدِعِهِ، ولَا تَسْلُكَ فِي أَمْرِ نَفْسِها، وفِي أَمْرِ إِنْسانِيَّتِها، وفِي أَمْرِ سَعادَتِها أَوْ شِقْوَتِها مَا تَعَوَّدَتْ أَنْ تَسْلُكَهُ فِي أَمْرِ الأَجْهِزَةِ والآلَاتِ المَادِيَّةِ الزَّهِيدَةِ التِي تَسْتَخْدِمُهَا فِي حاجاتِها اليَوْمِيَّةِ الصَّغِيرَةِ.. وهِيَ تَعْلَمُ أَنَّها تَسْتَدْعِي لإِصْلاحِ الجِهازِ مُهَنْدِسَ المَصْنَعِ الذِي صَنَعَ الجِهازَ.. ولكِنَّها لَا تُطَبِّقُ هَذِهِ القاعِدَةَ علَىٰ الإِنْسانِ نَفْسِهِ،

فَتَرُدُّهُ إِلَىٰ المَصْنَعِ الذِي مِنْهُ خَرَجَ، ولا أنْ تَسْتَفْتِيَ المُبْدِعَ الذِي أَنْشَأَ هَذا الجِهازَ العَجِيبَ، الجِهَازَ الإِنْسانِيَّ العظيمَ الكريمَ الدَّقيقَ اللَّطيفَ، الذِي لَا يعلَمُ مَسارِبَهُ[1] ومَدَاخِلَهُ إِلَّا الذِي أَبْدَعَهُ وأَنْشأَهُ: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[2]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[3].. ومِنْ هُنَا جاءَتِ الشِّقْوَةُ للبشريَّةِ الضَّالَّةِ، البَشَرِيَّةِ المِسْكِينَةِ الحائِرَةِ، البَشَرِيَّةِ التِي لَنْ تَجِدَ الرُّشْدَ، ولَنْ تَجِدَ الهُدَىٰ، ولَنْ تَجِدَ الرَّاحَةَ، ولَنْ تَجِدَ السَّعادَةَ، إِلَّا حينَ تَرُدُّ الفِطْرَةَ البَشَرِيَّةَ إِلَىٰ صانِعِها الكبيرِ، كَمَا تَرُدُّ الجِهازَ الزَّهيدَ إِلَىٰ صانِعِهِ الصغيرِ!»[4].

التَّحَرُّرُ الحَيَوانِيُّ المُقَنَّعُ الزَّائِفُ: رِقٌّ[5] وعُبودِيَّةٌ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّها حُرِّيَّةٌ مُقَنَّعَةٌ؛ لأَنَّهَا فِي حَقِيقَتِها خُضُوعٌ وعُبُودِيَّةٌ للمُيولِ الحَيَوانِيَّةِ، تَلْكَ المُيولُ التِي قَضَتِ البَشَرِيَّةُ عُمُرَهَا الطَّويلَ وهِيَ تُكَافِحُهَا؛ لِتَتَخَلَّصَ مِنْ قُيُودِهَا الخَانِقَةِ، إِلَىٰ جَوِّ الحُرِّيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ الطَلِيقَةِ».

* وهذِهِ الحُرِّيَّةُ المُقَنَّعَةُ الزائفةُ فِي صُورتِها تَحَرُّرٌ، وفِي حَقيقَتِها عُبودِيَّةٌ وَرِقٌّ؛ إِذْ إِنَّ هذا الإِنسانَ حينَ ينقادُ لِمَا تُمْلِيهِ عليهِ أهواؤُهُ وشهواتُهُ وشَياطِينُهُ وأفكارُهُ العاجِزَةُ، أَوْ

---

(1) المسارب: جمع مسرب، والمسرب: الطريق، والمسرب: مجرىٰ الماء علىٰ وجه الأرض، والمقصود هنا مسالكه وطرقه التي يسلكها، انظر: أساس البلاغة، للأزهري: 1/ 447.

(2) الأنفال: 43.

(3) الملك: 14.

(4) انظر: مقدمة في ظلال القرآن، لسيد قطب: 1/ 15.

(5) الرقُّ: العبودية، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 127.

أسيادُهُ مِنْ شياطينِ الإنسِ، فَيَتَمَرَّدُ علَىٰ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَنْفَلِتُ مِن الانْقيادِ للهِ تعالَىٰ خالِقِهِ ومُرَبِّيهِ ومُصْلِحِهِ، ويَسْتَنْكِفُ ويستكبِرُ أَنْ يكونَ مَحْكومًا للهِ تعالَىٰ؛ فحينَها يَقَعُ فِي العُبودِيَّةِ الذليلَةِ الرَّخيصةِ.. يَفِرُّ مِنَ العبودِيَّةِ التِي خَلَقَهُ اللهُ تَعالَىٰ لَها: عبودِيَّةِ السُّمُوِّ والتَّشْرِيفِ والرفعةِ؛ عُبُودِيَّةِ اللهِ تعالَىٰ؛ لِيَقَعَ فِي عُبودِيَّةِ نَفْسِهِ وهَواهُ وشَيْطانِهِ وأسيادِهِ. وصَدَقَ فِيهِ وعلَيْهِ قولُ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ فِي نُونِيَّتِهِ:

صَحِبُوا الأَمَانِيَّ وابْتُلُوا بِحُظُوظِهِمْ *** وَرَضُــوا بِكُلِّ مَـذَلَّةٍ وهَـوانِ

أَرْواحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ وَجُسُومُهُمْ *** فِي كَدْحِها لَا فِي رِضَا الرَّحْمنِ

هَـرَبُوا مِنَ الـرِّقِّ الذِي خُلِقُوا لَهُ *** فَبُلُوا بِرِقِّ النَّـفْـسِ والشَّيْطانِ(1)

لا اسْتِحْياءَ مِنَ التَّمَسُّكِ بالمبادِئِ وضَرورياتِ الإنْسانِيَّةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**لِمَاذَا تَخْجَلُ الإِنْسانِيَّةُ مِنْ إِبْداءِ ضَرُورَاتِها؟ لِأَنَّها تُحِسُّ بالفِطْرَةِ أَنَّ السُّمُوَّ مَعَ هَذِهِ الضَّرُورِيَّاتِ هُوَ أَوَّلُ مُقَوِّمَاتِ الإِنْسانِيَّةِ، وأَنَّ الانْطِلَاقَ مِنْ قُيُودِهَا هُوَ الحُرِّيَّةُ، وأَنَّ التَّغَلُّبَ علَىٰ دَوافِعِ اللَّحْمِ والدَّمِ، وعَلَىٰ مَخاوِفِ الضَّعْفِ والذُّلِّ، كِلَاهُمَا سَوَاءٌ فِي تَوْكِيدِ مَعْنَىٰ الإِنْسانِيَّةِ!**».

* علَىٰ الإنسانيَّةِ العاقِلَةِ الرَّشيدَةِ التِي يقودُها المصلحونَ المُجَدِّدُونَ أَنْ يَجْهَرُوا بهذِهِ الحقيقَةِ فِي زَحْمَةِ تَناقُضاتِ معانِي الحُرِّيَّةِ، وإثباتًا لِمَعْناها الصَّحيحِ الصَّبيحِ، وأَلَّا تَأْخذَهُمْ خِجْلَةٌ واسْتِحْياءٌ، وَهُمْ يَدعُونَ الإنسانَ إِلَىٰ الانضباطِ بِقواعِدِ الحُرِّيَّةِ الأَصيلَةِ.. وهُمْ

---

(1) نونية ابن القيم، لابن قيم الجوزية: 1/ 308.

يُصِرُّونَ علَىٰ الإبقاءِ علَىٰ ضروراتِ كَيْنُونَةِ الإنْسانِيَّةِ، التِي لَا يكونُ الإنسانُ إنسانًا إلَّا بِهَا، ولا تَكُونُ الإنسانِيَّةُ إِنْسانِيَّةً بِدُونِها.. وبينَا هُمْ يَجهرونَ بهذِهِ المعانِي الأصيلةِ؛ كثيرًا ما يَجدونَ مَنْ ينعِي عليهِمْ ذلكَ، ويعيبُهُ عليهِمْ، ويَرْجُمُهُمْ لأجْلِهِ بالتَّخَلُّفِ والرَّجْعِيَّةِ والظَّلاميَّةِ والانحطاطِ؛ فَلا ابْتِئاسَ مِنْ كُلِّ هَذَا فِي سياقِ مَا دَأَبُوا عليهِ مِنْ تَسْمِيَةِ الأمورِ بغيرِ اسْمِها، وعلَىٰ الدُّعاةِ أَنْ يَثْبُتُوا علَىٰ هَذَا الفِكْرِ الرَّشيدِ، وعلىٰ معانِي هذه الدَّعوةِ الأَصيلَةِ، وأنْ يحمِلُوا عليهَا الناسَ بِرِفْقٍ وأَنَاةٍ وبَصيرَةٍ.

فإنْ هُمْ جَهَرُوا بذلِكَ، وتَحَدَّوا بِهِ، وصبَرُوا علَىٰ تَبِعاتِهِ وتكالِيفِهِ الثَّقِيلَةِ، التِي تُكَلِّفُهُمْ الكثيرَ.. تُكَلِّفُهُمْ حُرِّيَّتَهُمْ هُمْ، ومَصالِحَهُمْ وأَمْوالَهُمْ، ورُبَّما أَرْواحَهُمْ؛ فلا بأسَ بذلِكَ كُلِّهِ؛ إِنْ كانتْ تُعْقِبُ السُّمُوَّ الحَقِيقِيَّ، والحُرِّيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ، وتَرْتَقِي بِهِمْ إِلَىٰ مَراقِي الإنسانِيَّةِ النَّاصِعَةِ الوَضيئَةِ، التِي فَطَرَ اللهُ تعالَىٰ النَّاسَ علَيْها، وأَرَادَ لهُمْ أَنْ يَلْزَمُوها..

* وإنَّ التَّحَرُّرَ مِنْ جَذْبَةِ الطِّينِ والترابِ، وثِقْلَةِ اللَّحْمِ والدَّمِ، والانْطلاقَ مِنْ قيودِ الشَّهواتِ الثقيلةِ، والاسْتعلاءَ علَىٰ المَخاوِفِ المُعْتَرِضَةِ هُوَ عينُ الحُرِّيَّةِ.. وصاحِبُ ذلِكَ هُوَ الإنسانُ الحُرُّ، وأَتْباعُهُ هُمُ الإنسانيّونَ الأحرارُ؛ وسِواهُمْ فِي قيودِ العُبُودِيَةِ والذُّلِّ يَرْسُفُونَ[1].

* وإِذَا ثَبَتَ الدُّعاةُ علَىٰ معانِي الحرِّيةِ والإنسانِيَّةِ الأصيلَةِ المُسْتقيمَةِ، وثَبَتُوا عَلَيْها، وأَلَحُّوا عَليهَا؛ فَإِنَّها سَتُصْبحُ مَأْلوفَةً للناسِ بعدَ أَنْ كَانَتْ مُنْكَرَةً، ثُمَّ سَتُصْبحُ مَحْبوبَةً بعدَ أَنْ كانَتْ مُسْتَهْجَنَةً، ثُمَّ سَيُنْكِرُ النَّاسُ مَا سِواها مِمَّا كانُوا يَعُدُّونَهُ بالأمسِ تَحَرُّرًا وَتَحَضُّرًا؛

(1) يَرْسُفُونَ: يمشون في قيودهم، وهو مِنَ الرَّسْف: وهُوَ المَشْيُ فِي القَيْدِ رُوَيْدًا، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 9/ 118.

وذلك حينَ يَغْسِلُ الدُّعاةُ فِطَرَ النَّاسِ، ويَجْلُونَها.. يَغْسلونَهَا مِمَّا عَلَقَ بِهَا مِنْ أوساخِ الأفكارِ الدَّنِسَةِ الخَسِيسَةِ؛ فَتَصْفُو فِطْرَتُهُمْ، وتَزْكُو إِنْسانِيَّتُهُمْ، ويَعودُونَ بِهَا إِلَىٰ حيثُ النَّبْعُ الصَّافِي الأَصيلُ..

* وعلىٰ الدُّعاةِ الإسلامِيِّينَ الذِينَ وَلَّاهُمُ اللهُ تعالَىٰ أُمُورَ النَّاسِ فِي مَرْحلةِ التَّمْكينِ، ألَّا يَسْتَحْيُوا مِنْ حَقِّهِمْ وفِكْرِهِمْ ودِينِهِمْ، وأَنْ يَنْبُهُوا؛ ويُصَحِّحُوا مَفْهومَ الحُرِّيَّةِ ومعنَىٰ الإنْسانِيَّةِ الصَّحيحَ الأصيلَ للناسِ فكرًا وعملًا، وأنْ يَحْمِلُوا النَّاسَ وفْقَ مَفْهومِهِمَا الصَّحيحِ القَويمِ المَضْبوطِ بِضابِطِ الشَّرْعِ؛ وأَلَّا يَنْخَدِعُوا بزيفِ إِطْلاقِ الحُرِّيَّاتِ، والظُّهُورِ للمُجْتَمَعاتِ الأخرَىٰ بِمَظْهَرِ المُتَحَضِّرِ المُتَحَرِّرِ..

وعليهم ألَّا يَأْذَنُوا بِإِحْداثِ شَيْءٍ مُخالِفٍ مُخِلٍّ بالأدَبِ، مُخالِفٍ للدِّينِ تَحْتَ دَعْوَىٰ إطلاقِ الحُرِّياتِ.. وأَنْ يُغَيِّرُوا مَا وَرِثُوهُ مِن انْحِلالٍ وَتَرَدٍّ بالحِكْمَةِ والرَّشادِ، وفْقَ قاعِدَةِ التَّدَرُّجِ والإِحْلالِ؛ ووفْقَ خُطَّةٍ مُمَنْهَجَةٍ مَدْرُوسَةٍ مَوْزُونَةٍ؛ وأَلَّا يَسْتَمِعُوا لِبَعْضِ أصواتِ ما يُسَمَّىٰ بدُعاةِ التَّحَرُّرِ الإِسْلامِيِّ مِنْ بينِ جَمْهَرَةِ الدُّعاةِ، مِمَّنْ تَأَثَّرَ بالفِكْرِ الوافِدِ الغَرِيبِ وأَلِفَهُ: قَليلًا أو كثيرًا.. فَكَمْ مِنْ خُطَّةٍ للإِصْلاحِ عاقَهَا هؤلاءِ البُسَطَاءُ المخدوعونَ، الذينَ تَأَثَّرُوا بمَنْهَجِ المَادِّيَّةِ المُجَرَّدِ؟!.. وكَمْ مِنْ بدايَةٍ جَادَّةٍ للتَّغْيِيرِ القَويمِ وَأَدَهَا[1] هَؤُلاءِ.. ألا فَلْيُحْذَرْ مِنْ هؤلاءِ الإخوَةِ علَىٰ مَشْروعِ القِوَامةِ والولايَةِ الذِي فَوَّضَهُ اللهُ تعالَىٰ للدُّعاةِ؛ وليغْلِبْ علَىٰ الأَمْرِ أصحابُ الفِكْرِ القَويمِ الرشيدِ المَوْزونِ، الذِينَ يَسْتَمِدُّون تعالِيمَهُمْ ومَنَاهِجَهُمْ منَ السَّماءِ، وُيَبَشِّرُونَ بِهَا، ويدعونَ إِلَيْهَا بِرِفْقٍ وحِكْمَةٍ ورَشادٍ.

(1) وَأَدَهَا: قتلها، منه وأد البنات: وهو قتلهن وهن صغيرات، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 3/ 443.

* وإِنَّنَا إِذْ نَدْعُو لِذَلِكَ، لَا نَدْعُو لِمُواجَهَةِ العالَمِ، ولَا لِمُحارَبَةِ الدُّنْيا كُلِّها، ولَا لِلْخُرُوجِ علَىٰ قَوانينِ الأُمَمِ المتعارَفِ عَلَيْهَا، ولا لِحَمْلِ السُّلَّمِ بالعَرْضِ؛ كَمَا يُقالُ؛ لَا، لَسْنا نَدْعُو إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛ وإِنَّما نَدْعو إِلَىٰ الانضباطِ بِقِيَمِ الإِسْلامِ ومَبادِئِهِ وتَشْريعاتِهِ المَسْتوحَاةِ مِنَ اللهِ تعالَىٰ.. ووفْقَ تَغْيِيرٍ حَكيمٍ رَشيدٍ، يَعْتَمِدُ تعاليمَ الإسلامِ الوَسَطِيِّ القَويمِ أساسًا ومنهاجًا.. فَما وَافَقَ مِنْهُ الأُمَمَ؛ فَبِهِ، ونُعْمَىٰ عَيْنٍ[1]، ومَا لَمْ يُوافِقِ الأُمَمَ الأُخْرَىٰ؛ فَلَهُمْ دِينُهُمْ، ولَنَا دِينٌ.. وإِنَّمَا يُحْتالُ علىٰ ذلكَ بالحِكْمَةِ والتَّعَقُّلِ، ولا نَخْشَىٰ أُمَمَ الأَرْضِ فِي اللهِ تعالَىٰ، وإِنَّما نَخْشَىٰ اللهَ تعالَىٰ فِي أُمَمِ الأَرْضِ؛ ومَنْ خَشِيَ اللهَ تعالَىٰ فِي النَّاسِ؛ كَفَاهُ اللهُ تعالَىٰ الناسَ، ومَنْ خَشِيَ النَّاسَ فِي اللهِ تعالَىٰ؛ سَخِطَ اللهُ تَعالَىٰ عَلَيْهِ، وأَسْخَطَ عليهِ مَنْ أَرْضاهُمْ فيهِ.. بلْ علَىٰ الدُّعاةِ حينَها أنْ يدْعُوا أُمَمَ الأَرْضِ الحَائِرَةَ التَّائِهَةَ المُتَخَبِّطَةَ إِلَيْها؛ وفْقَ مَنْهَجٍ عالَمِيَّةِ الإِسْلامِ الوَاسِعَةِ؛ بَدَلَ أَنْ نَبقَىٰ نَتَلَقَّىٰ الضَّلَالَ والحَيْرَةَ مِنْهُمْ..

* وهلِ البلاءُ الذِي أصابَ أُمَّةَ الإسلامِ إِلَّا مِنْ أُمَمِ الأَرْضِ الشَّانِئَةِ[2] المُبْغِضَةِ للإِسْلامِ؟! وهَلْ يُلْتَمَسُ الدَّواءُ عِنْدَ مَنْ يَرْجُو لَنَا الهلاكَ؟! وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالَىٰ فيهِمْ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[3]، والخُطَطُ المَرْسومَةُ، والجُهودُ المَبْذولَةُ مِنَ الأُمَمِ

---

(1) نُعْمَىٰ عَيْنٍ، ونُعْمَةُ عين، ونعماء عين، ونُعام عين: أي قرة عين، تقولها العرب دليلًا علىٰ المسرة والرضىٰ، انظر: معجم العين، للخليل: 2/ 162، وغريب الحديث، للخطابي: 3/ 95.

(2) الشَّانِئَةُ: المبغضة، ورجلٌ شناءةٌ وشنائيةٌ، أي: مُبغضٌ، سيءُ الخُلقِ، انظر: معجم العين، للخليل: 6/ 287.

(3) النساء: 89.

المُبْغِضَةِ لأُمَّةِ الإِسْلامِ؛ لِتَعْميمِ ضلالِهِمْ وفجورِهِمْ، فِيما يُسَمَّىٰ بالعَوْلَمَةِ، أَيْ عَوْلَمَةِ الأَفْكارِ الغَرْبِيَّةِ: الاجْتِماعِيَةِ والسِّياسِيَّةِ والتَّشْرِيعِيَّةِ والاقْتِصادِيَّةِ؛ شَاهِدَةٌ نَاطِقَةٌ عِلَىٰ ذلِكَ.

ومَتَىٰ كانَ المُسْلِمونَ يَسْتَمِدُّونَ أخلاقَهُمْ وتعالِيمَهُمْ وتَشْريعاتِهِمْ وقوانينَهُمْ مِنْ غيرِ اللهِ تعالَىٰ، واللهُ تعالَىٰ يقولُ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].. فيَنْبَغِي التَّفْريقُ بينَ تَقَدُّمِ الأُمَمِ فِي العُلومِ والصِّناعاتِ، وتَلَقِّي مَا تَوَصَّلُوا إليهِ فِي هَذا البابِ بالتَّرْحيبِ والقَبُولِ؛ وبينَ تَخَلُّفِهِمْ فِي بابِ الأَفْكارِ والعَقائِدِ والسُّلُوكِ؛ فَنَرُدُّهُ عليهِمْ، ونُصَدِّرُ لَهُمْ مَا عِنْدَنَا مِنْ تَفَوُّقِ أَخْلاقِ الإسلامِ وفِكْرِهِ وعقيدتِهِ..

(1) يوسف: 40.

القاعدةُ الثَّانيةَ عَشْرةَ

حَياةُ الفِكْرةِ بِما يُقَدِّمُه أَصْحابُها مِنْ تَضْحياتٍ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «لَسْتُ مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِحِكَايَةِ المَبَادِئِ المُجَرَّدَةِ عَنِ الأَشْخَاصِ؛ لِأَنَّهُ لَا مَكَانَ لِمَبْدَأٍ بِغَيْرِ عَقِيدَةٍ حَارَّةٍ دَافِعَةٍ، وكَيْفَ تُوجَدُ العَقِيدَةُ الحَارَّةُ الدَّافِعَةُ فِي غيرِ قَلْبِ إِنْسانٍ؟ إنَّ المَبَادِئَ والأَفْكارَ فِي ذَاتِهَا -بِلَا عَقِيدَةٍ دَافِعَةٍ- مُجَرَّدُ كَلِمَاتٍ خَاوِيَةٍ، أَوْ عَلَىٰ الأَكْثَرِ مَعَانٍ مَيِّتَةٍ! والذِي يَمْنَحُهَا الحياةَ هُوَ حَرَارَةُ الإِيمانِ، المُشِعَّةُ مِنْ قَلْبِ إِنْسانٍ! لَنْ يُؤْمِنَ الآخَرُونَ بِمَبْدَأٍ أَوْ فِكْرَةٍ تَنْبُتُ فِي ذِهْنٍ بَارِدٍ، لَا فِي قَلْبٍ مُشِعٍّ».

* لا انْفصالَ بينَ الفِكْرَةِ والمُفَكِّرِ، وبينَ العَقيدةِ والمُعْتَقِدِ، فَلا يُمْكِنُ أنْ يتجرَّدَ أحدُهُما مِنَ الآخَرِ ويَنْفَصِلَ عَنْهُ، وإلَّا لَمَا كانَتِ الفِكْرَةُ فِكْرَةً، ولا العقيدةُ عقيدةً؛ فَلا تُسَمَّىٰ الفِكْرَةُ فِكْرَةً إلَّا إذَا امْتَلَكَتْ فِكْرَ صَاحِبِها؛ فلمْ يَعُدْ لَهُ فِكْرٌ إلَّا فيها، ولَمْ يَبْقَ لَهُ هِمَّةٌ ولا هَمٌّ إلَّا لَهَا، ولَا تُعْتَبَرُ العَقيدةُ عَقيدَةً، إلَّا إذَا امْتَلَأَ بِهَا قَلْبُ صاحِبِها، وانْعَقَدَ عليها قلبُهُ؛ حتَّى لا يكونَ بينهُمَا انْفِكاكٌ؛ إذِ العقيدةُ ما انْعَقَدَ عليهِ القلبُ انْعِقادًا مُحْكَمًا، لا يَقْبَلُ الفَكاكَ.

فَلا مَكَانَ لعقيدَةٍ صادِقَةٍ حَارَّةٍ فِي غيرِ قَلْبِ صاحِبِها، ولا مَكانَ لِفِكْرَةٍ صادِقَةٍ صَافِيَةٍ فِي غيرِ عَقْلِ صاحِبِها.. أَمَّا إِذَا تَجَرَّدتِ الفِكْرَةُ عَنِ المُفَكِّرِ، وخَرَجَتِ العَقيدةُ مِنْ قَلْبِ المُعْتَقِدِ؛ فإنَّها تَبْقَىٰ كلماتٍ بارِدَةً، وعِباراتٍ جِوْفاءَ فارِغَةً، وخَواطِرَ فَاتِرَةً؛ ومَعَانِيَ مِيِّتَةً، لا اسْتِقْرارَ لَها، ولا بَقَاءَ، ولا نماءَ.. ومَا أسرعَ أَنْ يَسْتَبْدِلَهَا صاحِبُها إِذَا رَأَىٰ المَصْلَحَةَ فِي

غَيْرِها؛ كما يُسْتَبْدَلُ الثوبُ البالِي القديمُ؛ ولَنْ تَجِدَ تلكَ الأفكارُ البارِدَةُ المَيِّتَةُ لَها رَواجًا فِي قلوبِ الآخرينَ وعقولِهِمْ؛ طَالَمَا لَمْ تَجِدِ الصَّفَاءَ والصِّدْقَ والحرارَةَ فِي قلبِ صاحبِها؛ فالذِي يَكْتُبُ للفِكْرَةِ والعقيدَةِ البقاءَ والثباتَ والاستقرارَ والنَّماءَ، هُوَ مَا فِي قلبِ صاحِبِها وفِكْرِهِ مِنْ صِدْقِ العاطِفَةِ، وخُلوصِ النِّيَّةِ، وحرارَةِ الإيمانِ، والاستعدادِ للتَّضْحِيَةِ، التِي تَمْنَحُهَا الحياةَ الحَقَّةَ، وتَنْفُثُ فيها الرُّوْحَ.

قُوَّةُ إيمانِ صاحِبِ الفِكْرَةِ؛ يَمْنَحُها الحياةَ والنَّماءَ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «**آمِنْ أَنْتَ أَوَّلًا بِفِكْرَتِكَ.. آمِنْ بِهَا إِلَىٰ حَدِّ الاعْتِقادِ الحَارِّ؛ عِنْدَئِذٍ فَقَطْ يُؤْمِنُ بِها الآخَرُونَ!! وإِلَّا فَسَتَبْقَىٰ مُجَرَّدَ صِياغَةٍ لَفْظِيَّةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الرُّوْحِ والحَيَاةِ!**».

* إذا آمنَ صاحبُ الفِكْرَةِ بفِكْرَتِه إيمانًا عميقًا، وانْعَقَدَ علَىٰ صاحِبِ العقيدَةِ قَلْبُهُ انْعقَادًا جازمًا مُحكَمًا وثيقًا؛ عِنْدَئِذٍ يُنْتَظَرُ مِنَ الناسِ أَنْ يُقْبِلُوا عليها إِقْبالَ الظَّامِئِ علَىٰ موردِ الماءِ البارِدِ فِي اليومِ الحَارِّ، وَوَقْتَئِذٍ سَتَجِدُ لَها رَوَاجًا واسِعًا في قلوبِ الناسِ وعُقولِهِمْ؛ تَمامًا كصاحِبِ الثَّمرةِ الحُلْوَةِ التِي زرعَ شَجَرَتَها بِيَدِهِ، وسَقَاهَا مِنْ ماءِ عَرَقِهِ وكَدِّهِ، وعالَجَ آفَاتِها بِنَفْسِهِ؛ حتَّىٰ إِذَا أَيْنَعَتْ وأَثْمَرَتْ؛ وَوَجَدَ حَلاوَةَ مَذَاقِها؛ نَزَلَ بِهَا السُّوقَ، وأَخَذَ يأْكُلُهَا بِشَهْوَةٍ والْتِذاذٍ، ويُنَادِي عليها فِي النَّاسِ؛ فَإِذا رَأَىٰ النَّاسُ مِنْه ذَلِكَ؛ أَقْبَلُوا عَلَيْهَا؛ فَإِذَا طَعِمُوها، وَوَجَدُوا حَلَاوَتَها ولَذَّتَها؛ دَفَعُوا فِيها غَالِيَ الأثمانِ، ودَعَوُا النَّاسَ إِلَيْها؛ فَمَا أَسْرَعَ أَنْ تَرُوْجَ، وتُمْلأَ مِنْها السِّلَالُ.

* أَمَّا إِذَا لَمْ يُولِ صاحِبُ الثَّمَرَةِ ثَمَرَتَهُ مِنَ العِنَايَةِ والرِّعَايَةِ والسِّقَايَةِ الكَافِيَةِ؛ فَلَنْ تَطيبَ لِصَاحِبِهَا؛ وسَتَحُولُ حُمُوضَتُها أَوْ مَرَارَتُها دونَ أَنْ تَطيبَ وتَرُوجَ لِلنَّاسِ.

التفريقُ بينَ الفِكْرَةِ وصاحِبِها كالتَّفْريقِ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ، سواءً بسواءٍ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «لَا حياةَ لِفِكْرَةٍ لَمْ تَتَقَمَّصْ[1] رُوحَ إِنْسانٍ، ولَمْ تُصْبِحْ كَائِنًا حَيًّا دَبَّ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ فِي صُورَةِ بَشَرٍ!.. كَذَلِكَ لَا وُجُودَ لِشَخْصٍ -فِي هَذَا المَجَالِ- لَا تَعْمُرُ قَلْبَهُ فِكْرَةٌ يُؤْمِنُ بِهَا فِي حَرَارَةٍ وإِخْلَاصٍ. إِنَّ التَّفْرِيقَ بينَ الفِكْرَةِ والشَّخْصِ كَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ، أَوْ المَعْنَىٰ واللَّفْظِ، عَمَلِيَّةٌ فِي بَعْضِ الأحيانِ مُسْتَحِيلَةٌ، وفِي بَعْضِ الأَحْيانِ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ التَّحَلُّلِ والفَنَاءِ!».

* إِنَّ الأفكارَ التِي يُرَادُ أَنْ تُكْتَبَ لَهَا الحياةُ، ويُكْتَبَ لها البقاءُ والانتشارُ؛ هِيَ الأفكارُ التِي امْتَلَكَتْ قُلوبَ أَصْحابِهَا ونُفُوسَهُمْ وأَرْواحَهُمْ؛ فَلَها يعملُونَ، ولَها يُصْبِحُونَ ويُمْسونَ، ولها يَتَكَلَّمُونَ ويَسْكُتُونَ، ولَها يُنْفِقُونَ ويُمْسكُونَ، ولَهَا يعيشونَ ويَمُوتونَ؛ إِنْ تَكَلَّمُوا فَبِها، وإِنْ تَحَرَّكُوا فَلَها، وإِنْ فَكَّرُوا فَفِيها، وإِنْ أَنْفَقُوا فَلَها؛ حَياتُهُمْ وَقْفٌ عَلَيْهَا، وأَمْوالُهُمْ نَفَقَةٌ لَهَا، وجُهْدُهُمْ حَبْسٌ عليها؛ قَدْ سَكَنَتْ أَفْكارُهُمْ قُلُوبَهُمْ، واسْتَقَرَّتْ، وأَصْبَحَ أحدُهُمْ هُوَ الفِكْرَةَ، والفِكْرَةُ هُوَ، وأَضْحَتِ الفِكْرَةُ والعقيدَةُ نموذَجًا يُمَثِّلُهُ إِنْسانٌ حَيٌّ، يُتَرْجِمُ أفكارَهُ ومبادِئَهُ ومُعتقداتِهِ واقِعًا وسلوكًا، وحركةً وسكونًا، فإذا كانَتِ الفكرةُ وصاحِبُها هَكَذا؛ ورَأَىٰ النَّاسُ صِدْقَ الفِكْرَةِ، وصِدْقَ الانْتِماءِ، وصِدْقَ السُّلوكِ؛ آمَنُوا بِها،

(1) تَتَقَمَّصُ: تلبس، من لبس القميص، ثم يستعار ذلك في كل شيء دخل فيه الإنسان، فيقال: تقمص الإمارة، وتقمص الولاية، انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: 5/ 27.

وانْتَمَوْا إِلَيْها؛ أَمَّا إِذَا كانَتِ الفِكْرَةُ مُجَرَّدَةً عَنِ الوَاقِعِ والسُّلوكِ، لا رَصيدَ لَها فِي واقِعِ الدُّعاةِ؛ فأَنَّىٰ تَجِدُ مَنْ يقتنِعُ بِها، أو مَنْ يَتَّبِعُها، وسَيَقُولُ الناسُ حينَها: لَوْ كانَ ما يدعونَ إليهِ حَقًا؛ لَكَانُوا أَوَّلَ المُتَّبِعينَ لَهُ، والعامِلينَ بِهِ.

* فَلا يُمْكِنُ فِصْلُ الفِكْرَةِ عنْ صاحبِها، ولَا تَجْريدُ صاحِبِ العقيدَةِ مِنْ عَقيدتِهِ؛ ولَنَزْعُ الرُّوحِ مِنَ البَدَنِ أهونُ مِنْ نَزْعِ العقيدَةِ مِنْ قَلْبِ صاحِبِها، وأَمْثِلَةُ ذلكَ كَثيرَةٌ شاهِدَةٌ، وسَيِّدُ قُطْبٍ نَفْسُهُ أَحَدُهَا، وليسَ هُوَ بِدايَتَها ولَا نهايَتَها؛ فَسَحَرَةُ مِصْرَ يُهَدِّدُهُمْ أكبرُ جَبَّارٍ عَرَفَهُ تاريخُ البَشَرِيَّةِ، بِأَبْشَعِ صُوَرِ التَّهْديدِ والإِجْرامِ؛ فَقَالَ كما أخبرَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[1]، وكانَتِ المُساومَةُ: العَقِيدَةُ أَوْ الرُّوحُ؛ فَهَانَتِ الأَرْواحُ لِتَبْقَىٰ العَقِيدَةُ؛ فَأجابُوه بلسانِ الرَّاسخينَ الثَّابتين: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2]، أَجابُوهُ بهذا الجوابِ الواثِقِ، وإيمانُهُمْ لمْ يتجاوَزْ لحظَاتٍ معدودةً، وليسَ لَهُمْ مِنَ الرَّصيدِ إِلَّا سَجْدَةٌ؛ وهَكَذَا شَأْنُ الإيمانِ والعقيدَةِ حينَ يتمُّ، ويسْتَقِرُّ فِي القَلْبِ، ويَتَلَبَّسُ النَّفْسَ، ويَمْتَزِجُ بالرُّوحِ.

* ومِمَّا يَجْدُرُ التذكيرُ بِهِ أَنَّهُ ينبغِي التفريقُ بين المُراجَعَاتِ المُسْتَمِرَّةِ التِي يُجْريها أصحابُ الأفكارِ والعقائِدِ والمذاهبِ علَىٰ أفكارِهِمْ ومذاهِبِهِمْ، الفينةَ بعدَ الفينَةِ؛ مُواكَبَةً لِمُقْتضياتِ الزَّمانِ، أَوْ مُسْتجدَّاتِ العَصْرِ، أَوْ مُتَغيِّراتِ الأحداثِ؛ وهَذَا مَعْروفٌ مشهورٌ

---

(1) طه: 71.

(2) طه: 72، 73.

عِنْد العلماءِ، لا سِيَّما عنْدَ أربابِ المَذاهبِ الفِقْهيَّةِ، وفِي السِّياسَةِ الشَّرْعِيةِ تَأْصيلٌ لِهَذَا رشيدٌ.. وبينَ تَغْيِيرِ الأفكارِ والمبادِئِ والمُعتقدَاتِ نَفْسِها.

* فإنَّ الأُوْلَىٰ نابعةٌ عَنْ وَعْيٍ وحِكْمَةٍ ورَوِيَّةٍ وتَعَقُّلٍ؛ تُمْليهِ عليهِمْ مَصْلَحَةُ الفِكْرَةِ؛ حتَّىٰ تَبْقَىٰ صالِحَةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتواكِبُ كُلَّ جديدٍ، وهِيَ ضَروريةٌ مَطْلوبَةٌ؛ والفِكْرَةُ التِي لا يُجيدُ أصحابُهَا فَنَّ المُراجَعَاتِ والاسْتِدْراكَاتِ؛ يُحْكَمُ عليهَا بالجمُودِ، وسَتَبْقَىٰ تُراوِحُ أَماكِنَها، ولَنْ تُنافِسَ فِي عالَمِ الأفْكارِ والعقائِدِ. وأما الثانِيَّةُ، فَهِيَ تَنكُّرٌ للفِكْرَةِ نَفْسِها، وتَجَرُّدٌ مِنْ مبادِئِها وأُسُسِها، وهَذِه الأفكارُ مَحْكومٌ علَيْها بالفَناءِ والتَّحَلُّلِ، ولَنْ يُكْتَبَ لَها البَقاءُ.

* في الأُوْلَىٰ يَبْقَىٰ أَصْلُ الفِكْرَةِ والعقيدَةِ راسِخًا لَا يَطالُهُ التَّغْيِيرُ، ولَا تَعْبَثُ بِها المُسْتَجِدَّاتُ، وإِنَّما التَّغْيِيرُ هُوَ فِي الآلياتِ، والفُروعِ؛ تَمامًا كَما هُو حالُ الشَّجَرَةِ الرَّاسِخَةِ؛ فإنَّ يَدَ الفَلَّاحِ لَا تَعْمَلُ فِي الجَذْرِ والأَصْلِ، وإِنَّما تُوَجِّهُ الفُرُوعَ إِلىٰ حيثُ الفَضَاءُ، ومَصْلَحَةُ النَّبْتَةِ. أمَّا فِي الثانِيَةِ؛ فإنَّ التغييرَ هُوَ فِي أَصْلِ الفِكْرَةِ وجَوْهَرِها، لَا فِي الآلياتِ والفروعِ؛ كَما لَوِ امْتدتْ يدُ الفلاحِ إِلىٰ جُذورِ الشَّجَرَةِ، واجْتَثَّتْها، وطرحَتْها بعيدًا؛ لِتزرعَ مكانَها غيرَها؛ فَحينَئِذٍ يُحْكَمُ علَىٰ الأُوْلَىٰ القَديمَةِ بالمَوْتِ العاجِلِ.

قَلْبُ الإنسانِ هو قُوتُ الفِكْرَةِ المُقَدَّسُ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «كُلُّ فِكْرَةٍ عَاشَتْ قَدِ اقْتَاتَتْ[1] قَلْبَ إِنْسانٍ.. أَمَّا الأَفْكارُ التِي لَمْ تُطْعَمْ هَذَا الغِذَاءَ المُقَدَّسَ؛ فَقَدْ وُلِدَتْ مَيِّتَةً، ولَمْ تَدْفَعْ بِالبَشَرِيَّةِ شِبْرًا وَاحِدًا إِلَىٰ الأَمَامِ!».

* إنَّ الأفكارَ التِي يُرادُ لَها الحياةُ والبقاءُ والنَّماءُ؛ لابُدَّ أنْ يُدفَعَ لَها الثَّمَنُ، وثَمَنُ الأفكارِ والعقائِدِ غَالٍ جدًا، وإنّ أَقَلَ ثمنٍ يُمْكنُ أنْ يدفَعَهُ أصحابُ الدعواتِ هُوَ نفوسُهُمْ وأرواحُهُمْ؛ فحينَ يموتُ الدُّعاةُ في سبيلِ أفكارِهِمْ؛ ويَرَىٰ الناسُ عظيمَ تَضْحِيَتِهِمْ؛ فساعَتَها سيكونُ الفَتْحُ العظيمُ.. إنَّ رُؤْيَةَ الدَّمِ وهُوَ يسيلُ في سبيلِ الفِكْرَةِ والعقيدَةِ؛ أبلَغُ أَلْفَ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ آلَافِ الخُطَبِ والكِتاباتِ والمَقالَاتِ، ولَلَحْظَةٌ مِنَ هَذَا الدَّفْقِ الصَّادِقِ مِنَ التَّضْحِيَةِ والعطاءِ أَفْضَلُ مِنْ قُرونٍ مُتَطاوِلَةٍ مِنَ التَّنْظيرِ المُجَرَّدِ؛ وبه تُخْتَصَرُ الأَزْمانُ؛ لِتَجِدَ الناسَ يَدْخُلونَ فِي الفِكْرَةِ والعقيدَةِ أَفْواجًا..

* ولقَدْ مَثَّلَتْ قِصَّةُ أصحابِ الأُخْدودِ مَشْهدًا حَيًّا لأصحابِ العقيدَةِ الحقّةِ التي تَحْيا بدماءِ أصحابِها، حينَ قالَ الغلامُ لِلمَلِكِ: «إِنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي حَتَّىٰ تَفعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعيدٍ[2] وَاحِدٍ وتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بسْمِ اللهِ ربِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِني، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعيدٍ واحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ

---

(1) اقْتَاتَ: طَعِمَ وأَكَلَ وتَغَذَّي، انظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: 2/ 765.

(2) الصَّعيدُ: هُنَا الأَرْضُ البَارِزَةُ.

السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوقَعَ فِي صُدْغِهِ[1]، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ، فقيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ واللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ[2] بِأفْواهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ[3]، وأُضْرِمَ[4] فيهَا النِّيرانُ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحموهُ فيهَا، أَوْ قيلَ لَهُ: اقتَحِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ جَاءتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ[5] أنْ تَقَعَ فيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمهْ، اصْبِري؛ فَإِنَّكِ عَلَىٰ الحَقِّ!»[6].

فَحينَما رأَىٰ الناسُ الغلامَ قَدْ قَدَّمَ نَفْسَهُ لِتَحْيا عَقيدَتُهُ، وحينَمَا رَأَىٰ النَّاسُ مَشْهَدَ الدَّمِ يسيلُ مِنْ صُدْغِ الغلامِ الصَّادقِ؛ قالُوا جميعًا: آمَنَّا برَبِّ الغُلَامِ؛ فَهُمْ لمْ يَعْرفوا اللهَ تعالَىٰ إلَّا مِنْ خلالِ الغلامِ، فأضافوا اسْمَهُ إِلَىٰ اسْمِ رَبِّهِ تعالَىٰ تشريفًا.. وتَسابقُوا يُقدِّمُونَ أروعَ نماذِجِ البَشَرِ، وهم يَموتونَ لِتَحْيا فكرتُهُمْ، ولتحيا عقيدتُهُمْ فِي قلوبِ الناسِ.. حينَ يتخلَّىٰ أَحدُهُمْ عَنِ امتيازاتِ أهلِ الأرضِ ومَطامِعِهِمْ مِنْ منزلَةٍ ومَكانَةٍ ومَوْقِعٍ، ويُقبِلونَ علَىٰ الموتِ بأقدامِهِمْ مُختارِينَ، حينَ يُقْحِمونَ أَنْفُسَهُمْ فِي النارِ؛ لِتُكتبَ الحياةُ لِعَقيدَتُهُمْ وأَفْكارِهِمْ.

---

(1) الصدغ: ما بين العين إلىٰ شحمة الأذن. ووضع يده لتألمه من السهم.

(2) الأُخْدُودُ: الشُّقُوقُ فِي الأَرضِ كَالنَّهْرِ الصَّغير.

(3) خدّت، أي: شقت الأخاديد في الطرق وأشعلت فيها النار.

(4) أُضرم: أوقد.

(5) تَقَاعَسَتْ: تَوَقفت: وجبنت، انظر معاني الحديث السابقة في: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان: 1/ 192-197

(6) رواه مسلم، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام: 4/ 4499.

إنَّ العقيدةَ والفِكْرةَ هِيَ أغلَىٰ ما يملكُ أصحابُ الدَّعواتِ، فكيفَ إذا كانَتْ هذه العقيدةُ هيَ عقيدةَ التوحيدِ، وكانتِ الفكرةُ فكرةَ الإسلامِ، فدونَها يومَئِذٍ النَّفْسُ والمالُ والأهلُ والرُّتْبَةُ والراتِبُ، ودُونَها الأَرْضُ ومَنْ عَلَيْها ومَا علَيْها.

إنَّ الأَئِمَّةَ إذا صَدَقوا وقدَّموا أنفسَهُمْ رخيصةً لهذَا الدينِ؛ ورأَىٰ النَّاسُ صِدْقَهُمْ وسابِقَةَ فَضْلِهِمْ؛ فإنَّ الناسَ حينَها سَيَقْتَنعونَ بِهِمْ، وسَيَتَّخذونَهُمْ أَئِمَّةً، وسيموتُونَ علَىٰ ما ماتُوا عليهِ، وواقِعُ الدعواتِ القديمُ والحديثُ علَىٰ ذلكَ شهيدٌ.

* لَمْ تَكُنْ كلماتُ سَيِّدٍ السابِقَةُ عاطِفَةً عابِرَةً، ولا حَمَاسَةً مُسْتَعْجِلَةً، بَلْ هِيَ مَعَانٍ وأفكارٌ لا يَبْرَحُ يُلِحُّ عليها ويُرَدِّدُهَا فِي أكثرَ مِنْ مَوْطِنٍ مِنْ كُتُبِهِ، فَمِنْ ذلكَ قَوْلُهُ: «إنَّ كلماتِنَا تَظَلُّ عرائِسَ مِنَ الشَّمْعِ، حتَّىٰ إِذَا مِتْنَا فِي سَبِيلِهَا؛ دَبَّتْ فيها الرُّوْحُ، وكُتِبَتْ لها الحياةُ»، ومِنْ كلماتِهِ الصَّادِقَةِ: «إنَّ الكلماتِ التِي وُلِدَتْ فِي الأَفْواهِ، وَقَذَفَتْ بِهَا الأَلْسِنَةُ، ولَمْ تَتَّصِلْ بالنَّبْعِ الإلهِيِّ الحَيِّ؛ قَدْ وُلِدَتْ مَيِّتَةً»[1].

وَلَقَدْ صَدَّقَ سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- فِكْرَتَهُ هذِهِ ودافَعَ عَنْهَا، ليسَ بِلِسانِهِ وقَلَمِهِ فَحَسْبُ، وإِنَّما بِصِدْقِهِ ودَمِهِ ورُوحِهِ؛ فَكَانَ مَوْتُه -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- أَصْدَقَ بُرْهانٍ علَىٰ صِدْقِ كَلِماتِهِ وفِكْرَتِهِ.

(1) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 104.

القاعدةُ الثَّالثةَ عَشْرةَ

الغَايَةُ لا تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أَنْ أَتَصَوَّرَ كيفَ يُمْكِنُ أَنْ نَصِلَ إِلَىٰ غَايَةٍ نَبِيلَةٍ[1] بِاسْتِخْدَامِ وَسِيلَةٍ خَسِيسَةٍ[2]!؟ إِنَّ الغَايَةَ النَّبِيلَةَ لَا تَحْيَا إِلَّا فِي قَلْبٍ نبيلٍ.. فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِذلِكَ القَلْبِ أَنْ يُطيقَ اسْتِخْدامَ وَسِيلَةٍ خَسيسَةٍ؟ بَلْ كيفَ يَهْتَدِي إِلَىٰ اسْتِخْدامِ هَذِهِ الوَسِيلَةِ؟!».

* يُناقِشُ سَيِّدٌ هُنَا المقولَةَ الغَرْبِيَّةَ: (الغَايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ!؟)[3]، ويَرُدُّهَا، ويَدْمَغُها؛ إِذْ ليسَ مِنَ المُتَصَوَّرِ والمَعْقولِ عِنْدَ الفُضَلَاءِ النُّبَلاءِ الذينَ يَنْشُدُونَ الغاياتِ الفَاضِلَةَ النَّبِيلَةَ

---

(1) النبيلة: الفضيلة، والنُّبْلُ: الذكاء والنجابة، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 640.

(2) الخسيس: الدنيء الرذيل التافه، والخساسة: مصدر الرجل الخسيس البيِّن الخساسة. وشيء خسيس وخساس ومخسوس: تافه. ورجل مخسوس: مرذول. وقوم خساس: أرذال. وخسست: صرت خسيسا. وأخسست: أتيت بخسيس، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 6/ 64.

(3) (الغَايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ): هذه المقولة أصل من أصول الفكر الغربي الحديث، وقائلها ميكافيلي، وهو مفكر وفيلسوف وسياسي إيطالي، وُلِدَ أبّان عصر النهضة في إيطاليا، في 3 مايو 1469، وقد أصبح المؤسس للتنظير السياسي الواقعي. أشهر كتاباته التي تُسْتَقَىٰ منها أفكاره كتاب الأمير، الذي كتب فيه تعليمات للحكام، وقد نُشِرَ هذا الكتاب بعد موته. تُوُفِّيَ في فلورنسا، في يونيو 1527. ومن أشهر مقولاته:

- الغاية تبرر الوسيلة.

- من الأفضل أن يخشاك الناس علىٰ أن يحبوك.

أنْ يَسْلُكُوا فِي سبيلِ ذلِكَ طَرِيقًا قَذِرًا، أَوْ أنْ يَسْتَخدِمُوا وَسِيلَةً دنِيئَةً رَذِيلَةً؛ وذَلِكَ أنَّ الغاياتِ الفاضِلَةَ النَّبِيلَةَ؛ إنَّما تَصْدُرُ عَنْ أشخاصٍ فاضلينَ نُبَلاءَ، ومَا اسْتَحَقُّوا وَصْفَ النُّبْلِ والفَضيلَةِ إلَّا لأَنَّ هَذا الوَصْفَ غَلَبَ عليهِمْ: فِي كَلامِهِمْ وأعمالِهِمْ، فِي سلوكِهِمْ وأفكارِهِمْ ومُعْتقداتِهِمْ، فِي غاياتِهِمْ وأهدافِهِمْ ووسائِلِهِمْ؛ فإذا سَلَكُوا فِي واحِدَةٍ مِنْها غيرَ سبيلِ النُّبَلاءِ، زالَ عنهُمْ وصْفُ النُّبْلِ والفَضِيلَةِ، ولَحِقَهُمْ وصفُ الخِسَّةِ والدَّناءَةِ بحسبِ مَا نالُوا مِنْها.

ولا يُمْكِنُ لِقَلْبٍ وفِكْرٍ اعتادَ الفَضيلَةَ ونَهَجَها أَنْ يَتَقَبَّلَ الرَّذيلَةَ والخساسَةَ فِي صُورَةٍ مِنْ صُوَرِهَا، ولَا أَنْ يَسْتَطيبَهَا، بلْ سَيُنْكِرُها ويَرُدُّها، تَمامًا كَمَا تُنْكِرُ الأذواقُ السليمةُ المُرَّ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فَأَمَّا المَرْضَىٰ؛ فليسَ لَهُمْ تَمْييزٌ بينَ المُرِّ والحُلْوِ، والفَضيلَةِ والرَّذيلَةِ، كما قالَ المتنبِّي:

ومَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا[1]

- لا يُجْدِي أن يكون المرء شريفًا دائمًا.

- من واجب الأمير أحيانًا أن يُسانِدَ دينًا ما، ولو كان يعتقد بفساده.

- إن الدين ضروري للحكومة؛ لا لخدمة الفضيلة، ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة علىٰ الناس.

- ليس أفيد للمرء من ظهوره بمظهر الفضيلة.

(1) انظر: الأمثال السائرة من شعر المتنبي، لابن عَبَّاد: 4/ 293.

وفِي الحِكْمَةِ النَّبَوِيَّةِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ يَقُولُ: «كَمَا لَا يُجْتَنَىٰ مِنَ الشَّوْكِ الْعِنَبُ؛ لَا يَنْزِلُ الْفُجَّارُ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ، وَهُمَا طَرِيقَانِ؛ فَأَيُّهُمَا أَخَذْتُمْ أَدَّتْكُمْ إِلَيْهِ»[1].

* فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ ببالِ أصحابِ الغاياتِ النَّبيلَةِ الفَاضِلَةِ أنْ يَسْلُكُوا غيرَ سبيلِ المُؤْمنينَ؛ ولَوْ خَطَرَ ببالِهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ عَدُّوهُ وَسْوَسَةً شَيْطَانِيَّةً تُوْجِبُ التَّوْبَةَ مِنْ خُطُورِها بِبَالِهِم؛ ويَحْذَرُ أَحَدُهُمْ مِنْ أَنْ تَرِدَ علَىٰ خاطِرِهِ أُخْرَىٰ.

مَثَلٌ مَعْهُودٌ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «حِينَ نَخُوضُ إِلَىٰ الشَّطِّ المُمَرَّغِ[2] بِبِرْكَةٍ مِنَ الوَحْلِ[3] لَابُدَّ أَنْ نَصِلَ إِلَىٰ الشَّطِّ مَلَوَّثِينَ.. إِنَّ أَوْحَالَ الطَّرِيقِ سَتَتْرُكُ آثَارَهَا علَىٰ أَقْدَامِنَا، وعَلَىٰ مَوَاضِعِ هَذِهِ الأَقْدَامِ.. كَذَلِكَ الحَالُ حِينَ نَسْتَخْدِمُ وَسِيلَةً خَسِيسَةً؛ إِنَّ الدَّنَسَ سَيَعْلَقُ بِأَرْوَاحِنَا، وسَيَتْرُكُ آثَارَهُ فِي هَذِهِ الأَرْوَاحِ، وفِي الغَايَةِ التِي وَصَلْنَا إِلَيْهَا!».

---

(1) رواه أبو نُعَيْمٍ في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: 10/ 31، وصَحَّحَهُ الألباني.

(2) تَمَرَّغَ الرَّجُلُ: إذا تَلَوَّىٰ وتَقَلَّبَ وتَمَعَّكَ، تَشْبِيهًا بالدّابَّةِ، والأمْرَغُ: المُتَمَرِّغُ فِي الرّذائِلِ، وقدْ مَرِغَ عِرْضُه، دَنِسَ. وأمْرَغَ عِرْضه: دَنَّسَه، وأمْرَغَ الرَّجُلُ: كَثُرَ كَلامُه فِي خَطَأٍ وفِي غَيْرِ صَوابٍ، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 22/ 566، وانظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 640.

(3) الوَحَلُ: طينٌ يرتَطِم فيه الدّوابّ، انظر: معجم العين، للخليل: 2/ 301، وانظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 640.

* يَضْرِبُ سَيِّدٌ مَثَلًا حِسِّيًّا مُشاهَدًا، تَرَاهُ العُيونُ كثيرًا، بَلْ رُبَّما عَاشَهُ المُفَكِّرونَ في حياتِهِمْ كَثيرًا؛ فَيُصَوِّرُ مَنْ يَسْلكُ طريقًا غيرَ مستقيمَةٍ فِي سبيلِ فِكْرَتِهِ؛ كَمَنْ يسلُكُ طريقَ أَوْحالٍ وأَقْذارٍ؛ فَهوَ يَتَخَوَّضُ فِي أوحالِ الطَّريقِ وأَقْذارِها وأدناسِها؛ وسَتَبْقَىٰ آثارُ الأوحالِ علَىٰ نَعْليهِ ومَلابِسِهِ -حينَ يجدُ مَسْلَكًا للخلاصِ مِنْها- مَهْما حاولَ التَّخَلُّصَ مِنْ آثارِها؛ وسيعلَمُ كُلُّ مَنْ يَراهُ أَنَّهُ سَلَكَ طريقَ وَحْلٍ ودَنَسٍ.

* وفَرْقٌ بينَ أنْ تُدَنَّسَ الأقدامُ، وبينَ أنْ تُدَنَّسَ الأرواحُ، أَيَّمَا فَرْقٍ؛ فَأَمَّا دَنَسُ الأقدامِ؛ فيُزِيلُهُ المَاءُ الطاهِرُ الطَّهورُ؛ وأَمَّا دَنَسُ الأَرْواحِ؛ فَلا يُزيلُهُ إِلَّا أَحَدُ أمرينِ: إِمَّا أَنْ يزيلَهُ الإنسانُ بالرجوعِ والتَّوْبَةِ والنَّدَمِ عَمَّا لَحِقَهُ مِنْ دَنَسِ الأَفكارِ، والجَهْرِ للنَّاسِ بِنَدَمِهِ ورُجُوعِهِ؛ حتَّىٰ لا يَبْقَىٰ أَحَدٌ مُنْخَدِعًا مَغْرورًا بِمَا لَوَّثَتْهُ أَقْذارُ هذا الراجعِ التَّائِبِ.. ومَهْمَا فَعَلَ؛ فَسَيَبْقَىٰ أثرُ اللَّوْثَةِ عَالِقًا بِرُوحِهِ ونَفْسِهِ؛ إِلَّا أَنْ يُخَلِّصَهُ اللهُ تَعالَىٰ بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ، ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليهِ بِتَمامِ الطُّهْرِ والعافِيَةِ.. وإِمَّا أَنْ يُطَهِّرَهُ المَوتُ؛ فإِنَّه يُطَهِّرُهُ، ويُطَهِّرُ البَشَرِيَّةَ مِنْ رِجْسِهِ ورِجْسِ أَفْكَارِهِ؛ فَيموتُ يَوْمَ يَمُوتُ مَلْفوظًا مِنْ دُنْيا النَّاسِ؛ تَتْبَعُهُ اللَّعَناتُ والسُّبَّاتُ؛ لِمَا خَلَّفَهُ مِنْ أَقْذارٍ ونَجَاسَاتٍ.

لا فَرْقَ بينَ الوَسيلَةِ والغايَةِ فِي عالَمِ الرُّوحِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «إِنَّ الوَسِيلَةَ فِي حِسَابِ الرُّوحِ جُزْءٌ مِنَ الغَايَةِ. فَفِي عَالَمِ الرُّوحِ لَا تُوجَدُ هَذِهِ الفَوَارِقُ والتَّقْسيمَاتُ! الشُّعُورُ الإِنْسانِيُّ وَحْدَهُ إِذَا أَحَسَّ غَايَةً نَبِيلَةً فَلَنْ يُطِيقَ اسْتِخْدَامَ وَسِيلَةٍ خَسِيسَةٍ.. بَلْ لَنْ يَهْتَدِيَ إِلَىٰ اسْتِخْدامِهَا بِطَبِيعَتِهِ! (الغَايَةُ

تُبرِّرُ الوَسِيلَةَ!؟) تِلْكَ هِيَ حِكْمَةُ الغَرْبِ الكُبْرَىٰ!! لِأَنَّ الغَرْبَ يَحْيَا بِذِهْنِهِ[1]، وفِي الذِّهْنِ يُمْكِنُ أَنْ تُوْجَدَ التَّقْسيماتُ والفَوَارِقُ بَيْنَ الوَسَائِلِ والغاياتِ!».

* يَصْعُبُ التَّفْريقُ بينَ الغايَةِ التِي يقصِدُها المُفَكِّرونَ والدُّعاةُ وأصحابُ العقائِدِ الفَاضِلَةِ، وبينَ الوسيلةِ التِي يسلكُونَها ويَسْتعينونَ بِها؛ وُصُولًا إِلَىٰ تِلْكَ الغَايَةِ؛ بَلْ يستحيلُ التَّفْريقُ بينَ الوسيلَةِ والغايَةِ فِي عُرْفِ أهلِ الفَضيلَةِ والنُّبْلِ والرَّشادِ، وفِي عالَمِ الرُّوحِ الرَّقيقِ الشَّفيفِ.. لا فَرْقَ عِنْدَهُمْ بَيْنَهُمَا؛ إِذِ الغايَةُ مُتَضَمِّنَةٌ الوسِيلَةَ تَضَمُّنًا لُزُومِيًّا؛ فَمِنْ لوازِمِ الغايَةِ النَّبيلَةِ أَنْ تكونَ الوسيلَةُ نَبيلَةً؛ إِذْ لَوْ تَلَوَّثَتِ الوسيلَةُ؛ فَسَتَتَلَوَّثُ الغايَةُ تِبْعًا لها؛ فَكَما أَنَّ مِنْ لَوازِمِ الطَّهَارَةِ؛ طَهَارَةَ الماءِ الذِي يُتَطَهَّرُ بِه: صفاءَ لَوْنِه، وَرَائِحَتِه، وطَعْمِه؛ وطَهَارَةَ المكانِ الذِي يُتَطَهَّرُ فيهِ، فإِذا وُجِدَ الماءُ الطَّاهِرُ الطَّهُورُ، وَوُجِدَ المَكانُ الطَّاهِرِ، وتَطَهَّرَ المُسْلِمُ لِغايَةِ الصَّلاةِ؛ صَحَّتْ الصَّلاةُ حِينَئِذٍ، وقُبِلَتْ، وأُثيبَ العَبْدُ عليها.. أمَّا إِذَا لَمْ يكنِ الماءُ طاهرًا، أَوْ المكانُ الذِي يُتَطَهَّرُ فيهِ؛ لَمْ تَصِحَّ الطَّهارَةُ، ولَمْ تَصِحَّ الصلاةُ، التِي هِيَ الغايَةُ مِنَ الطَّهارَةِ، والطَّهارَةُ وسيلَةٌ لها؛ بَلْ إِنَّ العبْدَ مُتَعَبِّدٌ بِطهارَتِهِ، مأجورٌ عليهَا، والتِي هِيَ الوسيلَةُ، كَمَا هُوَ مُتَعَبِّدٌ بالصلاةِ التِي هِيَ الغَايَةُ.

* وعدمَ وجودِ الوسيلَةِ النَّبيلَةِ، لا يُبَرِّرُ اسْتخدامَ الخَسيسَةِ الدَّنيئَةِ؛ كَمَا أَنَّ عدمَ وجودِ الماءِ، لا يُبَرِّرُ الوُضوءَ بالبَوْلِ النَّجِسِ.. وعدمُ وجودِ المالِ -مَعَ الحاجَةِ إليهِ- لا يُبَرِّرُ السَّرِقَةَ والرِّبَا والاحْتيالَ والغِشَّ والخَدِيعَةَ.. وعدمُ وجودِ الزَّوْجَةِ، لا يُبَرِّرُ الزِّنَىٰ والرَّذِيلَةَ.. وصاحِبُ الفِكْرِ الطَّاهِرِ النَّظِيفِ لا يقبَلُ أنْ يُلَوِّثَ فِكْرَتَهُ بِمَا يُزِيلُ عَنْها وَصْفَ

(1) الذِّهْنُ: الْفَهم وَالْعقل، والذِّهْنُ أيضا: حفظ القلب، وجمعهما أذهان، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 11/ 640، ومراده هنا العقل المجرد عن الفكر والرشد والحكمة والفضيلة.

النَّقَاءِ والصَّفَاءِ والبَرَاءَةِ، بلْ إنَّ نَفْسَهُ تَعافُ النَّجاسَةَ، وجِبِلَّتَهُ[1] تَأْباها أَشَدَّ الإِبَاءَ وتَفِرُّ مِنْها؛ إِلَىٰ حيثُ الطُّهْرُ والنَّقَاءُ والفَضيلَةُ.

* ثمَّ إنَّ سَيِّدًا يَقِفُ عندَ المقولَةِ الغَرْبِيَّةِ المَشْؤومَةِ النَّكِدَةِ: (الغَايَةُ تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ!؟)، ويُبْطِلُها، فَيَرَىٰ أنَّ الغايَةَ لا تُبَرِّرُ الوَسيلَةَ فِي عالَمِ العقائِدِ والأفكارِ الفَاضِلَةِ، التِي الْتَحَمَ فِيها الفِكْرُ بالفِكْرَةِ وبالمُفكِّرِ، ولَمْ يَعُدْ بالإمكانِ التَّفْريقُ بينَها أَلْبَتَةَ، أَمَّا فِي عالَمِ المَادَّةِ الهابِطِ الثَّقيلِ؛ فهنالِكَ الانْفصامُ النَّكِدُ بينَ الفِكْرِ الفِكْرَةِ والمُفكِّرِ، فَمادِيَّتُهُمْ الطّاغِيَةُ، التِي لا يُفَكِّرُونَ إِلَّا لَهَا وبِهَا اتَّسَعَتْ لِهَذهِ التَّقْسيماتِ؛ فَعِنْدهُمْ يُوجَدُ مُتَّسَعٌ لِتِلْكَ التَقْسيماتِ المتناقِضَةِ، ويمْكِنُ الفَصْلُ بينَهُا، ويُمْكِنُ وصْفُ كُلِّ واحِدَةٍ بغيرِ الأُخْرَىٰ، فَيُمْكِنُ عندهُمْ أنْ تكونَ الفِكْرَةُ نَبِيلَةً، وأنْ تكونَ الوَسيلَةُ خَسيسَةً، فَيُمْكِنُ عِنْدَهُمُ الزِّنَا مَثَلًا لإشْباعِ الشَّهْوَةِ الثَّائِرَةِ؛ لأَنَّ الوَسيلَةَ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الغايَةِ عِنْدَهُمْ أَشَدَّ الانْفِصالِ. وذَلِكَ مُمْكِنٌ حِينَ تُصبِحُ المادَّةُ غايةً، والغايةُ مادَّةً!!!

* ووراءَ هذا الشِّعارِ البَئيسِ اخْتَفَتِ المبادِئُ والقِيَمُ والأخلاقُ؛ فَبِمُقْتَضَىٰ هذا الشِّعارِ مُوْرِسَتِ الرَّذيلَةُ علَىٰ أَعْلَىٰ المستوياتِ لإسْقاطِ أكبرِ الرجالَاتِ.. وتَحْتَ هذا الشعارِ أُبيدَتْ أُمَمٌ بِأَكْمَلِها، ومُحِيَتْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؛ لِتَحْيا علَىٰ أَنْقاضِهَا أُمَمٌ دَخيلَةٌ، تُقيمُ حضارَاتٍ مُزَيَّفَةً، وتَتَغَنَّىٰ بالحُرِّيَّةِ وحُقوقِ الإِنْسانِ.. كَمَا سُوِّغَتْ بمقتضاهُ المُعامَلاتُ الربَوِيَّةُ الضَّخْمَةُ الكبيرةُ؛ حتَّىٰ تَبْقَىٰ الدُّوَلُ الضَّعيفَةُ الفَقيرةُ مَحْكُومَةً للدُّوَلِ الكُبْرَىٰ المَزْعومَةِ، فَلا تَرْفَعُ رأسَها مِنْ كَبْوَتِها، بَلْ تكونُ هِيَ وشُعوبُها ومُقَدَّراتُها مَمْلُوكَةً بالكَامِلِ

(1) الجبلة: الْفطْرَة. جبل الله ﷻ الْخلق يجبلهم. وَهَذِه جبلة فلَان أَي خليقته الَّتِي خلق عَلَيْهَا، انظر: جمهرة اللغة، لابن دريد: 1/ 269.

للدُّوَلِ الكُبْرَىٰ.. وبِمْقتضاهَا صُنِّفَتْ دُوَلُ العالَمِ إِلَىٰ مستوياتٍ: أَسْيادٍ أَشْرافٍ لَهُمْ حَقُّ الاعْتراضِ، وإِبْطالِ الشَّكَاوَىٰ والظُّلامَاتِ العالَمِيَّةِ بالجُمْلَةِ، ونقْضِ مشاريعِ القراراتِ التِي تُجَرِّمُ الجُناةَ العالَمِيِّينَ.. وإلىٰ عبيدٍ مَحْكومٍ عَلَيْهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا رِضَا الدّوَلِ الكُبْرَىٰ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ فِي أُمورِهِمْ بِمَا يريدونَ عِنْدَ أُمَمِ الأَرْضِ..

وبِمُقْتَضَىٰ هذا الشعارِ أُلْقِيَتْ أطنانٌ مِنَ المتفجِّراتِ هائِلَةٌ فَوْقَ رُؤُوسِ شَعْبٍ مُشَرَّدٍ لاجِئٍ أَعْزَلَ، ودُمِّرَتْ بيوتٌ، وقُتِّلَ نِساءٌ وشُيوخٌ وأطفالٌ؛ ثُمَّ تَخْرجُ الأُمَمُ التِي تَرْفَعُ شِعارَاتِ الحُرِّيَّةِ وحُقوقِ الإنسان، لِتَقِفَ مَعَ المُجْرِمِ القاتِلِ وتَتَرَحَّمَ عليهِ، وتُدينَ المَقْتولَ المُشَرَّدَ، وتَصِمَهُ بالإرهابِ والإجْرامِ، وشَهِدَ العالَمُ فِي أَعْلَىٰ مُؤَسَّساتِهِ للمُجْرِمِ بالحَقِّ فِي القَتْلِ والتَدْميرِ والإرهابِ، وشَهِدَ علَىٰ المَظْلومِ اللَّاجِئِ المُهَجَّرِ بالإِرْهابِ؛ والعَالَمُ كُلُّهُ يَنْظُرُ ويَرَىٰ، ولا يَمْلِكُ إِلَّا أنْ يقولَ: القولُ مَا قَالَ الأَسْيادُ.. وبِمُقْتَضَىٰ هذا الشعارِ أُقِيمَتْ ثَوْرَاتٌ فِي دُوَلٍ آمِنَةٍ، وغُذِّيَتْ بالمالِ والسِّلَاحِ عُقُودًا مِنَ الزَّمَنِ، وسُعِّرَتْ حُرُوبٌ، وقُتِلَ آلافُ البَشَرِ، ومُزِّقَتْ أُمَمٌ وشُعوبٌ؛ وتَقَاسَمَتْ ثَرواتِها ومُقَدَّراتِها الدُّوَلُ الكُبْرَىٰ، كُلُّ دَوْلَةٍ تَنْهَشُ مَا تَسْتَطيعُ مِنْ جَسَدِ الضَّحِيَّةِ الضَّعيفِ؛ فَأَصْبَحَ العالَمُ أَشْبَهَ بِغَابَةٍ كبيرَةٍ، ويلٌ لِلصَّغيرِ فيها مِنَ الكبيرِ، وَوَيْلٌ لِلضَّعيفِ مِنَ القَوِيِّ، وَوَيْلٌ للقَتيلِ مِنَ القَاتِلِ، وَيْلٌ وأَلْفُ ويلٍ..

* والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ أَنَّهُمْ يُلْبِسونَ كُلَّ جريمَةٍ كُبْرَىٰ ثَوْبَ الفَضِيلَةِ والنُّبْلِ والإحسانِ، والحِرْصِ علَىٰ مَصْلَحَةِ العالَمِ، ثُمَّ يَلْبِسونَ هُمْ ثيابَ الفَضيلَةِ والنُّبْلِ والإحسانِ، ويَتَغَنَّوْنَ بأغاني الفَضِيلَةِ والنُّبْلِ والإِحِسْانِ، وحَالُهُمْ:

بَـرَزَ الثَّعْلَــبُ يومًا في ثــيابِ الوَاعِـظِينَا

ومَشَىٰ فِي الأَرْضِ يَهْدِي ويَسُبُّ المَاكِرِينا[1]

فَعاشَتِ البَشَرِيَّةُ أَنْكَدَ مَراحِلِها، وأَبْأَسَ لَحَظاتِها حينَ انْقَلَبَتِ المَعاييرُ، وتَبَدَّدَتِ القِيَمُ، وانْتَكَسَتِ الفِطْرَةُ السَّوِيَّةُ، يومَ أَصْبَحَ يَسْطُو[2] القَوِيُّ بِجَبَروتِهِ علىٰ الضَّعيفِ، لا لِشَيْءٍ إِلَّا لِيزدادَ هُوَ قُوَّةً، ويزدادَ الضعيفُ ضَعْفًا.. ساعةَ يَسلبُ الغنيُّ المُكْثِرُ الفقيرَ البائسَ قُوْتَه ولُقَيماتِهِ، لا لِشَيْءٍ إلاّ ليزدادَ هُوَ غناءً وثراءً، ويزدادَ الفقيرُ البائِسُ بُؤْسًا وحِرْمانًا؛ عاشَتِ البَشَرِيَّةُ مُهَدَّدةً مَذْعورَةً.. مُعَذَّبَةً حائِرَةً.. شَريدَةً طَريدَةً، تَسْتَجْدِي الإِحْسانَ؛ فلا تَجِدُ إِلَّا ذِئابًا وَوُحوشًا، وتَسْتَعْطِفُ الغِنَىٰ؛ فَلا تَجِدُ إِلَّا السَّلْبَ والسَّطْوَ والحِرْمانَ؛ فحينَها تُنْذِرُ السَّماءُ بِصَواعِقِها؛ غَضْبَةً لِضُعفَاءِ البَشَرِ، وتُؤْذِنُ الأرضُ بِحِمَمِها؛ انْتِصارًا لِبُؤَساءِ الناسِ.. وحينَها أَبْشِرْ بِقُرْبِ للسَّاعةِ وَشِيكٍ!!!

(1) هذه الأبيات جزء من قصيدة: (برز الثعلب يومًا، لأحمد شوقي).

(2) السُّطو: شدّة البطش، السَّطو: البَسْط علىٰ النّاس بقَهرِهم من فوق، وفلانٌ يَسْطو عَلَىٰ فلَان، أَي: يَتَطاول عَلَيْهِ. وأميرٌ ذُو سَطْوَة: ذُو شَتْم وظُلْم وضَرْب، انظر: معجم العين، للخليل: 7/ 277، وتهذيب اللغة، للأزهري: 13/ 20.

القاعِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ

عَزَاءُ النَّاسِ: مَدْخَلٌ لقُلُوبِهِمْ، وفَرْحَةٌ لِلْمُعَزِّي

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «بِالتَّجْرِبَةِ عَرَفْتُ أَنَّهُ لا شَيْءَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ يَعْدِلُ ذلكَ الفَرَحَ الرُّوْحِيَّ الشَّفِيفِ[1] الذِي نَجِدُهُ عِنْدَمَا نَسْتَطِيعُ أنْ نُدخِلَ العَزَاءَ[2] أَوْ الرِّضَىٰ: الثِّقَةَ أَوِ الأَمَلَ أَوِ الفَرَحَ إِلَىٰ نُفُوسِ الآخَرِينَ!. إِنَّهَا لَذَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ عَجِيبَةٌ، لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ مِنْ هذهِ الأرضِ، إِنَّها تُجَاوِبُ العُنْصُرَ السَّمَاوِيَّ الخَالِصَ فِي طَبِيعَتِنَا، إِنَّها لَا تَطْلُبُ لَها جَزَاءً خَارِجِيًّا؛ لِأَنَّ جَزَاءَهَا كَامِنٌ فِيها!».

* يَرُدُّ سَيِّدٌ هُنَا صَدْرًا علَىٰ عَجُزٍ[3]، ويُؤَكِّدُ مَا كانَ ابْتَدَأَهُ فِي القاعِدَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ أَنَّ الإحسانَ إِلَىٰ النَّاسِ سَبَبٌ فِي كَسْبِ نُفُوسِهِمْ، وسببٌ فِي مُضاعفةِ حياةِ الدُّعاةِ، وسَبَبٌ

---

(1) الشَّفِيفُ: الرقيق، وَثَوْبٌ شَفِيفٌ، أَيْ: رَقِيقٌ، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للحموي: 1/ 317.

(2) العزاء: الصبر عن كل مفقود، وَتقول عزّيت أَي: واسيته، فتعزّىٰ تعزّيًا أَي تصبَّر تصبرًا. وأصل معنىٰ التعزي هو أن يتأسىٰ بغيره، فيقول: «حالي مثل حال فلان». ولذلك قيل: تأسىٰ، أي جعل أمرَهُ أسوة بأمر غيره. فكذلك التعزي. وقولك عزيته، أي قلت له: انظر إلىٰ غيرك ومن أصابه مثل ما أصابك، انظر: لسان العرب، لابن منظور: 15/ 52، وتهذيب اللغة، للأزهري: 3/ 63، ومقاييس اللغة، لابن فارس: 4/ 310.

(3) المقصود بالصدر: صدر الكتاب، وبالعجز: آخر الكتاب، والمعني: يؤكد سيد في نهاية رسالته ما كان ابتدأه في صدرها وبدايتها من معانٍ.

فِي فَرحٍ طليقٍ، ليسَ مِنْ جنسِ أفراحِ الدُّنْيا، ولا يَعْدِلُهُ فرحٌ مِنْ أَفْراحِ الأرضِ.. إنَّه فرحٌ مِنْ عُنْصُرِ الرُّوحِ العُلْوِيَّةِ السماوِيَّةِ الرَّقيقَةِ الشَّفيفَةِ؛ لَا مِنْ مَعْدِنِ الطِّينِ والتُّرابِ، المَبْنِيَّةِ علىٰ المَادَّةِ والمَصْلَحَةِ المُتَبادَلَةِ؛ فالمُحْسِنُ الحَقُّ ليسَ لَهُ غَرَضٌ سِوَىٰ الإحسانِ إِلَىٰ الخَلْقِ، وتَبْديلِ هُمومِهِمْ أَفْراحًا، ومَخاوفِهِمْ أَمَانًا؛ فإنْ هُوَ وَجَدَ ذلِكَ؛ وَجَدَ الفَرَحَ العُلْوِيَّ الطليقَ، المُجَرَّدَ عنِ المَصالِحِ والمَادِّيَّاتِ، الذِي يُشْبِهُ فَرَحَ أَهْلِ الجَنَّةِ حينَ دُخولِ الجَنَّةِ.

❋ ولِلإحسانِ إلىٰ الناسِ صورتانِ:

الأُوْلَىٰ: تلبيَةُ حاجاتِ الناسِ، وإشباعُ رغَبَاتِهِمُ التِي يَرْجُونَ، وهِيَ صُوَرٌ كثيرَةٌ تَصْدُقُ علَىٰ كلِّ حاجَةٍ مِنْ حاجاتِ الناسِ ومَطَامِعِهِمْ فِي الحياةِ الدُّنْيا: مِنْ مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ ومَلْبَسٍ ومَسْكَنٍ وزَواجٍ..

أما الأُخرىٰ: فَهِيَ تعزِيَةُ الناسِ ومُواسَاتُهُمْ، وتَبْديلُ أَحْزانِهِمْ أَفْراحًا، ومَخاوِفِهِمْ أَمْنًا، وكُرْبَتِهِمْ فَرَجًا، وعُسْرِهِمْ يُسْرًا، وشِدَّتِهِمْ سُهُولَةً.. فَصُورُ المُواساةِ كثيرةٌ كذلِكَ، تَصْدُقُ علَىٰ كُلِّ شِدَّةٍ وبُؤْسٍ وحُزْنٍ وكَرْبٍ ينتابُ المُسْلِمَ. وليسَتِ التَّعْزِيَةُ مقصورةً علىٰ مَا تعارَفَ عليهِ النَّاسُ مِمَّا يكونُ لِمَنْ فَقَدَ مَيِّتًا فَحَسْبُ؛ وإنَّمَا كلُّ مَنْ أصابَهُ هَمٌّ أوْ حُزْنٌ أو كَرْبٌ، هُوَ بحاجَةٍ إِلَىٰ عزاءٍ ومُواسَاةٍ. والعَزَاءُ إِنَّما يكونُ بِإِزالَةِ مَا هُمْ فيهِ مِنْ هَمٍّ أوْ حُزْنٍ أو كَرْبٍ، أو التَّخْفيفِ مِنْهُ. وقَدْ تكونُ المُواسَاةُ بالكلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، وقَدْ تكونُ بالمالِ، وقدْ تكونُ بالنُّصْرَةِ بالجاهِ..

❋ فمَنِ افْتَقَرَ واحتاجَ المالَ؛ فعزاؤُهُ بالإنْفاقِ عليهِ، وبِتَذْكيرِهِ بِفَضيلَةِ الفَقْرِ، وبكرامَةِ اللهِ تعالَىٰ للفقراءِ الصَّابِرينَ فِي الآخِرَةِ.. ومَنْ مَرِضَ وسَقِمَ؛ فعزاؤُهُ بِمُداواتِهِ، وتذكيرِه بعظيمِ فضلِ الصابرينَ، وبأنَّ الصبرَ علَىٰ المَرَضِ مَحَّاءٌ للذُّنوبِ، رافِعٌ للدَّرجاتِ.. ومَنْ

ظُلِمَ واعْتُدِيَ عليهِ؛ فعزاؤُهُ بِرَفْعِ الظُّلْمِ عنْهُ ونُصْرَتِهِ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ أنْ يُنصرَ فيهِ، وبِتَذْكيرِهِ بأنَّ اللهَ تعالَىٰ لا يُحِبُّ الظالمينَ، وأنَّه ينصرُ عبادَهُ المظلومينَ ولَوْ بعدَ حِيْنٍ، وأنَّ للعبادِ مَوْقِفًا بينَ يَدَيِ اللهِ تعالَىٰ، يَقْتَصُّ فيهِ للمظلومِ مِنَ الظالِمِ: الجليلَ، والحقيرَ.. ومَنْ وقَعَ فِي إثمٍ ومَعْصِيَةٍ؛ فَعزاؤُهُ بدعوتِهِ للتَّوْبَةِ، وتذكيرِهِ بأنَّ اللهَ تعالَىٰ ينتظِرُ توبتَهُ، وأنَّ التوبةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا، وأنَّ التوبةَ مَحْبوبَةٌ للهِ تعالَىٰ، وأنَّ اللهَ تعالَىٰ لا يَفْرَحُ بِشَيْءٍ فَرَحَهُ بِعَبْدِهِ التائبِ المُقْبِلِ عليهِ، وأنَّ التائبَ الصادقَ يُرْزَقُ مِنَ الخشوعِ والبُكاءِ والانكسارِ والضَّراعَةِ وصِدْقِ الالْتِجاءِ إِلَىٰ اللهِ تعالَىٰ؛ مَا لا يجدُهُ العُبَّادُ القُوَّامُ الصُّوَّامُ.. ومَنْ فَقَدَ عزيزًا؛ فَعزاؤُهُ بتذكيرِهِ بِفَضْلِ الصابِرِينَ، ومَا أعدَّ اللهُ تعالَىٰ لِمَنْ فَقَد صَفِيَّهُ وحبيبَهُ منْ أهلِ الدُّنْيا؛ فَصَبَرَ عَلَيْهِ، وبتذكيرِهِ أنَّ مَنْ فَقَدَهُ، انْتَقَلَ مِنْ دارٍ إِلَىٰ دارٍ، وأنَّهُ فِي ضيافَةِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ، وأنَّ الأيامَ يُوْشِكُ أنْ تُطْوَىٰ؛ فَيَلْحَقَ الحَيُّ بالمَيِّتِ؛ فَيَلْتَقِيَ هُنالِكَ الأَحْبابُ والخلانُ..

* ولْيعلمِ الدُّعاةُ أنَّ اللهَ تعالَىٰ أَحَبَّ مِنْ عبادِهِ أَنْ يَتَعَبَّدُوه بعزاءِ إخوانِهِمُ المُسْلِمِينَ المُبْتَلَيْنَ، وانْتَدَبَهُمْ لِذَلِكَ، ووعَدَهُمْ عليهِ حُسْنَ المَثُوبَةِ؛ فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ بِمُصِيبَةٍ؛ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]. وأنَّهُ سبحانَهُ جعلَ الإحسانَ إِلَىٰ الخَلْقِ بِحُسْنِ عزائِهِمْ مِنْ أَحَبِّ الأعمالِ إليهِ؛ فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ ﷻ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي

(1) رواه ابن ماجه، بَاب مَا جَاءَ فِي ثَوَابِ مَنْ عَزَّىٰ مُصَابًا: 1/ 510، وحَسَّنَهُ الألباني.

هَذَا الْمَسْجِدِ -يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ- شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ؛ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللهُ ﷻ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَىٰ مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّىٰ أَثْبَتَهَا لَهُ؛ أَثْبَتَ اللهُ ﷻ قَدَمَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ»[1].

* وأنَّ اللهَ تعالَىٰ لِلْعَبْدِ كَمَا يكونُ العَبْدُ لأَخيهِ المُسْلِمِ؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا؛ نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ؛ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[2].

فَمَنْ عامَلَ الخَلْقَ بِخُلُقٍ، فهُوَ مُعَامِلٌ للهِ تعالَىٰ مِنْ بابِ اللُّزومِ، فالخَلْقُ خَلْقُهُ، وهوَ أَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأهليهِمْ والنَّاسِ أجمعينَ.. فَمَنْ أَحْسَنَ مَعَ الخَلْقِ؛ فقدْ أَحْسَنَ مَعَ سَيِّدِهِم ومولاهُمُ الحَقِّ بالضرورةِ. والأَمْرُ فِي معامَلَتِهِمْ بحُسْنِ الخُلُقِ هُوَ أَمْرُ اللهِ تعالَىٰ.. فَمَنْ قَضَىٰ حاجَةَ مُسْلِمٍ؛ قَضَىٰ اللهُ تعالَىٰ حَوائِجَهُ، ومَنْ نَصَرَ مُسْلِمًا؛ نَصَرَهُ اللهُ تعالَىٰ، ومَنْ قَضَىٰ دَيْنَ مسلمٍ؛ قَضَىٰ اللهُ دَيْنَهُ، ومَنْ أعانَ مُسْلِمًا؛ أعانَهُ اللهُ تعالَىٰ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ تعالَىٰ؛ ومَنْ غَفَرَ لِمُسْلِمٍ مَا بينَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الإساءاتِ؛ غَفَرَ اللهُ تعالَىٰ مَا بينَهُ وبينَهُ مِنَ المعاصِي والذُّنُوبِ، ومَنْ عَفا عَنْ مسلمٍ فِي حقٍّ هُوَ لَهُ؛ عَفَا اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ سُبْحانَهُ «عَلِيمٌ يُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ، جَوَّادٌ يُحِبُّ كُلَّ جَوَّادٍ، وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، عَفُوٌّ

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب: من اسمه أحمد: 6/ 139، والحافظ ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، باب: في قضاء الحوائج: 1/ 47، وحَسَّنَهُ الألباني.

(2) رواه مسلم، باب فَضْلِ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَعَلَىٰ الذِّكْرِ: 4/ 2074.

يُحِبُّ الْعَفْوَ وَأَهْلَهُ، حَيِيٌّ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَأَهْلَهُ، بَرٌّ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، حَلِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْحِلْمِ»[1].

* ولا يزالُ الإحسانُ بأهلِ الإحسانِ حتَّىٰ يُحْسِنَ أحدُهُمْ إِلَىٰ مَنْ أساءَ إليهِ، تَمَامًا كَمَثَلِ الزَّهْرَةِ الفَوَّاحَةِ، تَمْتَدُّ إليها الأيَادِي بِالقَطْعِ، وهِيَ تُصِرُّ علَىٰ أَنْ تُهْدِيَهُمْ طِيبَ رائِحَتِها، وشَذَا عِطْرِها. وكَمَثَلِ البُلْبُلِ المُتَرَنِّمِ، تَمْتَدُّ إليهِ الأيادِي بالحَبْسِ، وهُوَ يُصِرُّ علَىٰ أَنْ يُهْدِيَهُمْ شَدْوَهُ وأَلْحانَهُ، وكَمَثَلِ النَّخْلَةِ العالِيَةِ، يَرْجُمُها الناسُ بالحَجَرِ، وهِيَ تُهْدِيهِمْ أطيبَ الثَّمَرِ، وهكذَا كانَ أَكْمَلُ البَشَرِ ﷺ، يُؤْذِيهِ قَوْمُهُ، وهُوَ يَدْعُو لَهُمْ بالمَغْفِرَةِ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللهمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[2].

ويُمَكِّنُهُ اللهُ تَعالَىٰ مِنْ أعدائِهِ الذينَ أصابُوا مِنَ المُسْلمينَ دَمًا، وقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً، ويُحْسِنُ إليهِمْ، ويعفُو عنهُمْ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ؛ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ؛ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ[3] مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ[4]، وَإِنْ تُنْعِمْ؛ تُنْعِمْ عَلَىٰ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ؛ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ؛ فَتُرِكَ حَتَّىٰ كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ؛ تُنْعِمْ عَلَىٰ

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 1/ 421.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب حديث الغار: 4/ 175، ومسلم، باب غزوة أحد: 3/ 1417.

(3) السَّارِيَةُ: الأُسطُوانَةُ، والعامود القائم، انظر: تاج العروس، للزبيدي: 38/ 262.

(4) المعنىٰ: عليه دم، وهو مطلوب به؛ فلا لوم عليك في قتله، انظر: نيل الأوطار، للشوكاني: 7/ 355.

شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ، حَتَّىٰ كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؛ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ؛ فَانْطَلَقَ إِلَىٰ نَجْلٍ[1] قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فقالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ؛ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَىٰ؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ[2]، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ»[3]. «ثُمّ خَرَجَ إِلَىٰ الْيَمَامَةِ، فَمَنَعَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَىٰ مَكّةَ شَيْئًا، فَكَتَبُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنّك تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرّحِمِ وَإِنّك قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا، وَقَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ أَنْ يُخَلّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ»[4].

(1) النَّجْلُ: المَاء النابع من الأَرْض، انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني: 4/ 237.

(2) صَبَوْتَ، أي: خَرَجْتَ من دينك إلىٰ غيره، والأصل: صبأ خرج من دين إلىٰ دين آخر، انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، للحميدي: 1/ 221.

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أثال: 5/ 170، ومسلم، باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه: 3/ 1386.

(4) السيرة النبوية، لابن هشام: 2/ 639.

الإحسانُ بِلا مُقابِلٍ غايَةُ الدُّعاةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «هُنَالِكَ مَسْأَلَةٌ أُخْرَىٰ، يُقحِمُها[1] بَعْضُ النَّاسِ فِي هذا المِجَالِ، ولَيْسَتْ مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَسْأَلَةُ اعْتِرَافِ الآخَرِينَ بِالجَمِيلِ!. لَنْ أُحَاوِلَ إِنْكارَ ما فِي هَذَا الاعْتِرافِ مِنْ جَمَالٍ ذَاتِيٍّ، وَلَا مَا فيهِ مِنْ مَسَرَّةٍ عَظِيمَةٍ للواهِبِينَ، ولكنَّ هَذَا كُلَّهُ شَيْءٌ آخَرُ.. إِنَّ المَسْأَلَةَ هُنَا مَسْأَلَةُ الفَرَحِ، بِأَنَّ الخيرَ يَجِدُ لَهُ صَدًىٰ[2] ظَاهِرِيًّا قَرِيبًا فِي نُفُوسِ الآخَرِينَ، وهَذَا الفَرَحُ قِيمَتُهُ مِنْ غيرِ تِلْكَ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ طبيعَةِ ذلكَ الفَرَحِ الآخَرِ، الذِي نُحِسُّه مُجَرَّدًا، فِي ذَاتِ اللَّحْظَةِ التِي نَسْتطيعُ أَنْ نُدْخِلَ فيها العَزَاءَ أَوِ الرِّضَا، الثِّقَةَ أَوِ الأَمَلَ أَوِ الفَرَحَ فِي نُفُوسِ الآخَرِينَ! إِنَّ هذا لَهُوَ الفَرَحُ النَّقِيُّ الخَالِصُ، الذِي يَنْبُعُ مِنْ نُفُوسِنَا، ويَرْتَدُّ إِلَيْها بِدُونِ حَاجَةٍ إِلَىٰ أَيِّ عَنَاصِرَ خارجيةٍ عَنْ ذواتِنَا، إِنَّه يَحْمِلُ جَزَاءَهُ كامِلًا؛ لأَنَّ جَزَاءَهُ كامِنٌ فيهِ!».

* يُنَبِّهُ سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- علَىٰ مَعنًىٰ دقيقٍ خَفِيٍّ مِنْ معانِي الإِحْسانِ، وهُوَ أَنَّ الإحسانَ الحَقَّ الذِي يُعْقِبُ صاحِبَهُ ذلكَ الفَرَحَ الصافِيَ الطليقَ؛ إِنَّما هوَ لِمَنْ يُحْسِنُ دونَ أَنْ ينتظِرَ مُقابِلًا مِنْ أَحَدٍ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِهِ، فَلا ينتظرُ مُكافَأَةً مِمَّنْ أحسنَ إليهِمْ: ماديَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً، فَلا ينتظرُ هَدِيَّةً ولا عَطِيَّةً، ولا يَنْتَظِرُ ثَنَاءً منهُمْ، واعترافًا بالجميلِ، ولا

---

(1) يُقحِمُ: يدخل المسألة مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، وَتَقْحِيمُ النَّفْسِ فِي الشَّيْءِ: إِدْخَالُهَا فِيهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، انظر: مختار الصحاح، للرازي: 1/ 248.

(2) الصدىٰ: الصوت الذي يسمعه المُصَوِّتُ عُقَيْبَ صياحه راجعًا إليه من الجبل والبناء المرتفع، والمراد بالصدىٰ هنا: مجاوبة، وتكرارًا، وترددًا، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 3/ 19.

ينتظرُ حتَّىٰ دَعْوَةً صالِحَةً مُقابِلَ الإحسانِ؛ فَإِنَّهُمْ يَعُدُّونَ ذلِكَ كُلَّهُ مُكافَأَةً علَىٰ العَمِلِ، وبِهَا يَنْقُصُ الإِحْسانُ، فإنَّ مَنْ أَعْطَىٰ وأَخَذَ؛ يَكُونُ أَخْذُهُ مقابِلَ إِعْطائِهِ؛ فَلا يكونُ مُحْسِنًا كامِلَ الإحسانِ؛ «وَلِهَذَا كَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا أَرْسَلَتْ إِلَىٰ قَوْمٍ بِهَدِيَّةٍ، تَقُولُ لِلرَّسُولِ: اسْمَعْ مَا دَعَوْا بِهِ لَنَا؛ حَتَّىٰ نَدْعُوَ لَهُمْ بِمِثْلِ مَا دَعَوْا، وَيَبْقَىٰ أَجْرُنَا عَلَىٰ اللهِ[1]. وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا قَالَ لَك السَّائِلُ: بَارَكَ اللهُ فِيك؛ فَقُلْ: وَفِيكَ بَارَكَ اللهُ[2]؛ أَرَادَ أَنَّهُ إِذَا أَثَابَك بِالدُّعَاءِ، فَادْعُ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الدُّعَاءِ؛ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ اعتضت مِنْهُ شَيْئًا[3]، فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا مَعَ الْمَخْلُوقِينَ سَوَاءٌ كَانَ الْمَخْلُوقُ نَبِيًّا أَوْ رَجُلًا صَالِحًا أَوْ مَلِكًا مِنْ الْمُلُوكِ أَوْ غَنِيًّا مِنْ الْأَغْنِيَاءِ، فَهَذَا الْعَامِلُ لِلْخَيْرِ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ خَالِصًا للهِ، يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ تعالَىٰ، لَا يَطْلُبُ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقِ جَزَاءً وَلَا دُعَاءً وَلَا غَيْرَهُ، لَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا رَجُلٍ صَالِحٍ وَلَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَهَذَا هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ والآخرينَ مِنْ الرُّسُلِ؛ فَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا غَيْرَهُ»[4].

* فالمُحْسِنُ الحَقُّ، لا ينتظِرُ مِنْ أَحَدٍ دُعاءً ولا ثناءً، فضلًا عن هِبَةٍ وَهَدِيَّةٍ، حالُهُ ما أَخْبَرَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[5]، وكَمَا أخبرَ اللهُ تعالَىٰ عَنِ الصِّدِّيقِ الصَّدُوقِ ﷺ وأمثالِهِ بقولِهِ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ

---

(1) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية: 11/ 111.

(2) المصدر السابق: 1/ 188.

(3) المصدر السابق: 11/ 111.

(4) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية: 1/ 188.

(5) الإنسان: 9.

﴿الْأَعْلَى﴾[1]، فعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِهِ، قَالَ: قَالَ أَبُو قُحَافَةَ لِابْنِهِ أَبِي بَكْرٍ: «يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَابًا ضِعَافًا، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ عَتَقْتَ رِجَالًا جُلْدًا يَمْنَعُونَكَ، وَيَقُومُونَ دُونَكَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا أَبَتِ، إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مَا أُرِيدُ»[2]، قالَ ابنُ كثيرٍ: «ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، حَتَّىٰ إِنَّ بَعْضَهُمْ حَكَىٰ الْإِجْمَاعَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهَا ﷺ وَأَوْلَىٰ الْأُمَّةِ بِعُمُومِهَا؛ فَإِنَّ لَفْظَهَا لَفْظُ الْعُمُومِ»[3].

* فَلَكَمْ يربَحُ المُحْسِنُ حينَ يُهْدِي الفقيرَ المحرومَ قَطْرَةً مِنْ صَفْوِ شرابِ الإحسانِ؟! يُحيلُ بها مرارَةَ الفَقْرِ والحِرمانِ حلاوةً ولذَّةً، ويبدِّلُ أَلَمَ البُؤْسِ والشقاءِ، جَنَّةً ونَعيمًا، ساعةَ يَسُدُّ جَوْعَةَ محرومٍ معدومٍ، ولحظةَ يُبَدِّلُ بالِيَ أَسْمالِهِ[4]، وعُرِيَّ أَبْنَائِهِ، زِيًّا مِنَ السِّتْرِ، وكِسْوَةً مِنَ الإِحْسانِ، يَسْتَشْعِرُ فيها المُحْسِنُ أُخُوَّتَهُ لِبَنِي الإنسانِ، وانْتِسابَهُ لأبناءِ جِنْسِهِ مِنْ بَنِي البَشَرِ، يَلْهَجُ بلسانِ أَهْلِ الإحسانِ مِنْ أَئِمَّةِ الناسِ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5]، ويَهْتِفُ بحناجِرِ الأَفْذاذِ مِنْ عُظماءِ الدُّنْيا:

---

(1) الليل: 19، 20.

(2) رواه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين، تفسير سورة والليل إذا يغشىٰ بسم الله الرحمن الرحيم: 2/ 572، وقال: «هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه»، وسكت عنه الذهبي.

(3) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 2/ 573.

(4) السَّمَلُ: الثَّوب الخَلَق، جمعها أسمال، انظر: معجم العين، للخليل: 7/ 266.

(5) الشعراء: 109.

ازْرَعْ جَميلًا وَلَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ *** فَلَا يَضِيعُ جَمِيلٌ أَيْنَمَا زُرِعَا[1]

حينَها يربَحُ المُحْسِنُ نُفُوسَ مَنْ أَحْسَنَ إليهِمْ.. يَرْبَحُ قُلوبَهُمْ ومشاعِرَهُمْ؛ فيتضَاعَفُ إحساسُهُ بالحَياةِ، والأحياءِ؛ فَيَرْضَىٰ عَنْهُ ساكِنُ الأَرْضِ وساكِنُ السَّماءِ.. سِحائِبُ رَحَماتٍ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ حينَ يَطْوِي ويَرْحَلُ، فَيَحْيَا فِي الحياةِ، ويَحْيَا فِي المَمَاتِ!

(1) انظر: نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، للبتلوني: 1/ 60.

القاعدةُ الخامسةَ عَشْرةَ

لا خَوْفَ وَلا حُزْنَ عَلَى الدُّعَاةِ العَامِلينَ المُخْلصينَ عِنْدَ المَوْتِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «لَمْ أَعُدْ أَفْزَعُ مِنَ المَوْتِ، حتَّىٰ لَوْ جَاءَ اللَّحْظَةَ!».

* يبدُو سَيِّدٌ هُنَا مُتَأَهِّبًا لِلمَوْتِ؛ غَيرَ خائِفٍ مَنْ مُلاقَاةِ اللهِ تعالَىٰ، الذِي طَالَمَا أطاعَهُ، وطَالَمَا صَبرَ لَهُ وفيهِ، وطالَما دَعا الناسَ إِلَيْهِ، ودَلَّ التائِهينَ إِلَيْهِ؛ فَها قَدْ دَنَا الوَقْتُ الذِي يَلْقَىٰ فيهِ الحبيبُ حَبيبَهُ، وقَدْ حانَ الوَقْتُ الذِي يَجِدُ فيهِ العامِلُ جَزَاءَ ما عَمِلَ؛ فَلِمَ إِذَنِ الخَوْفُ؟ ومِمَّ الجَزَعُ؟!

* فلا خَوْفَ وَلَا حُزْنَ عَلَىٰ الدُّعَاةِ العَامِلينَ المُخْلِصينَ عِنْدَ المَوْتِ، طالَما أَنَّهُمْ ذاهبُونَ لِتَسَلُّمِ جزاءِ أَعْمالِهِمُ الخيِّرةِ، وأخذِ مكافآتِهِمْ، كمَا أخبرَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]، وكمَا بلَّغَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فَوَاللهِ، إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[3].

---

(1) فصلت: 30.

(2) يونس: 62-64.

(3) رواه أبو داود، بَابٌ فِي الرَّهْنِ: 3/ 288، وصحَّحه الألباني.

لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ فِي أيامِ الدُّنْيا؛ وإنْ تكاثَرَتِ الشدائِدُ والآلامُ، وقَدْ أَتَتْهُمُ البُشْرَىٰ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ ﷻ، ومِنْ حديثِ نَبِيِّهِمْ ﷺ بِحُسْنِ مَوْعودِ اللهِ تعالَىٰ لَهُمْ، لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ساعةَ المَوْتِ؛ والمَلائِكَةُ تُبَشِّرُهُمْ بِرَوحٍ ورَيْحانٍ، ورَبٍّ راضٍ غيرِ غَضْبانَ. لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يومَ يُبْعَثُ الناسُ مِنْ قبورِهِمْ، وقَدْ سَاقَتْهُمُ الملائِكَةُ إِلَىٰ الرَّحْمن وَفْدًا، وعَايَنُوا بِعيونِ رُؤُوسِهِمْ كَرامَةَ اللهِ تعالَىٰ فِي دارِ الحيوانِ[1]، وسَمِعُوا خِطَابَ الرَّحْمنِ، ومُحَاضَرةَ الكريمِ المَنَّانِ: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ يَا رَبِّ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟! فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2].

* فالحياةُ الدُّنْيا ليستْ إِذَنْ نِهايَةَ الرِّحْلَةِ علَىٰ كَوْكَبِ الأرْضِ، وإِنَّما هِيَ الفَصْلُ الأَوَّلُ مِنْ حياةِ هذا المَخْلوقِ، أَمَّا نِهايةُ مَصائِرِ الدُّعاةِ والطُّغاةِ؛ فتظهرُ فِي الفَصْلِ الثانِي، يَوْمَ يقومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالمينَ، يومَ البَطْشَةِ الكُبْرَىٰ.. يومَ يُساقُ المجرمونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا[3] عِطَاشًا

---

(1) الحيوان: الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لَا زَوَالَ لَهَا، وَلَا انْقِطَاعَ، وَلَا مَوْتَ مَعَهَا، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: 18/ 439.

(2) رواه البخاري في صحيحه، بابُ كلامِ الرَّبِّ مَعَ أهلِ الجنَّةِ: 9/ 151، ومسلم، باب إِحْلَالِ الرِّضْوَانِ عَلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا: 4/ 2176.

(3) وردًا: عطاشًا، وهو من الورود: أي يردون الماء عطاشًا. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: 15/ 631.

مُسَلْسَلِينَ مَغْلُولِينَ، تَعْلوهُمُ قَتَرَةُ[1] الذِّلَّةِ والمَهانَةِ، يَسْتنصرونَ؛ ولا نَصيرَ، ويَجْأَرونَ[2]؛ ولا مُجيبَ، يتمنَّونَ الرَّجْعَةَ، وأنَّىٰ لَهُمُ الرُّجوعُ.. ويومَ يُحْشَرُ المُتَّقونَ إِلَىٰ الرَّحْمنِ وَفْدًا، حَالُهُمْ ما أخبرتْ سورَةُ المُطَفِّفينَ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[3].. يومَ تَدْخُلُ عليهِمُ الملائكةُ الجَنَّةَ مِنْ كُلِّ بابٍ؛ تُهَنِّئُهُمْ بالسَّلامَةِ.. بالسَّلامَةِ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيا وشَدائِدِهَا.. وتُهَنِّئُهُمْ بالجائِزَةِ الكُبْرَىٰ، والمُكافَأَةِ العُظْمَىٰ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[4].

* ولَقَدْ كانَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- يَرْتَقِبُ هَذَا المَوْعِدَ الحَبيبَ، المَوْعِدَ مَعَ المَوْتِ، كَمَا يَرْتَقِبُ الأَوائِلُ فِي الدُّنْيا مُكافَآتِهِمْ وجَوائِزَهُمْ، وكَمَا يَرْتَقِبُ الحبيبُ الوُفُودَ علَىٰ أَحْبابِهِ بَعْدَ طولِ غيابٍ، وطُولِ شَوْقٍ، وكَلِمَاتُ أَشْعارِهِ الصَّادِقَةُ تَشِفُّ عَنْ هَذِهِ المَعانِي، إِذْ يَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَىٰ-:

أَخِي أَنْتَ حُرٌّ وَرَاءَ السُّدودِ *** أَخِي أَنْتَ حُرٌّ بِتِلْكَ القُيودْ

إِذَا كُنْتَ بِاللهِ مُسْتَعْصِمًا *** فَمَاذَا يَضِيرُكَ كَيْدُ العَبِيدْ؟!

---

(1) الْقَتَرَةُ: بِفَتْحَتَيْنِ شِبْهُ دُخَانٍ يَغْشَىٰ الْوَجْهَ مِنَ الْكَرْبِ وَالْغَمِّ. التحرير والتنوير، لابن عاشور: 30/ 138.

(2) يجأرون: يصرخون بصوت عالٍ، وهو مِنْ جُؤَارِ الثَّوْرِ، يُقَالُ مِنْهُ: جَأَرَ الثَّوْرُ يَجْأَرُ جُؤَارًا، وَذَلِكَ إِذَا رَفَعَ صَوْتًا شَدِيدًا مِنْ جُوعٍ أَوْ غَيْرِهِ. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: 14/ 251.

(3) المطففين: 34-36.

(4) الرعد: 23-34.

أَخِي سَتَبِيدُ جُيوشُ الظَّلامِ *** ويُشْرِقُ فِي الكَوْنِ فَجْرٌ جَدِيدْ

فَأَطْلِقْ لِرُوحِكَ أَشْواقَــهَا *** تَرَ الفَجْرَ يَرْمُقُنَا[1] مِنْ بعيدْ

أَخِي إِنْ ذَرَفْتَ عَلَيَّ الدُّمُوعَ *** وبَلَّلْتَ قَبْرِي بِهَا فِي خُشُوعْ

فَأَوْقِدْ لَهُمْ مِنْ رُفاتِي[2] الشُّمُوعَ *** وَسِيرُوا بِها نَحْوَ مَجْدٍ تَلِيدْ[3]

أَخِي إِنْ نَمُتْ نَلْقَ أَحْـبابَـنَا *** فَـرَوْضاتُ رَبِّـي أُعِدَّتْ لَنَا

وأَطْيـارُهـا رَفْـرَفَتْ حَوْلَـنا *** فَطُوبَىٰ لَنَا فِي دِيَارِ الخُلُودْ[4]

العَطاءُ أَخْذٌ فِي عُرْفِ الدُّعاةِ الصادقِينَ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «لَقَدْ أَخَذْتُ فِي هَذِهِ الحياةِ كَثِيرًا، أَعْنِي: لَقَدْ أَعْطَيتُ! أَحْيانًا تَصْعُبُ التَّفْرِقَةُ بينَ الأَخْذِ والعَطَاءِ؛ لِأَنَّهُمَا يُعْطيانِ مَدْلولًا وَاحِدًا فِي عَالَمِ الرُّوحِ! فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَعْطَيْتُ؛ لَقَدْ أَخَذْتُ، لَسْتُ أَعْنِي أَنَّ أَحَدًا قَدْ أَعْطَىٰ لِي شَيْئًا، إِنَّمَا أَعْنِي أَنَّنِي أَخَذْتُ نَفْسَ الذِي أَعْطَيْتُ؛ لِأَنَّ فَرْحَتِي بِمَا أَعْطَيْتُ لَمْ تَكُنْ أَقَلَّ مِنْ فَرْحَةِ الذينَ أَخَذُوا».

---

(1) رَمَقَ الشَّيءَ: نَظر إليه وأتبعه بصره، يرقبُه ويتعهَّدُه، ورمقه ببصره: رمقه بالطُّول والعَرْض، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 2/ 943.

(2) الرفات: العظم المتكسر المتفتت، انظر: لسان الرب، لابن منظور: 2/ 34.

(3) مَجْد تَلِيد: عَرِيقٌ أَصيلٌ ضَارِبٌ فِي القِدَم، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 1/ 297.

(4) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 104.

* يُبَيِّنُ سيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- مَعْنًىٰ غامضًا لا يَجِدُهُ إلَّا الدُّعاةُ الصادِقُونَ، وهُوَ مَعْنَىٰ الأَخْذِ والعَطاءِ فِي فِكْرِ الدُّعاةِ الصادقينَ وعُرْفِهِمْ.. فالعطاءُ في عُرْفِ الدُّعاةِ الصادقينَ أَخْذٌ، فَلا فَرْقَ عِنْدَهُمْ بينَ الأَخْذِ والعطاءِ، وذلكَ أَنَّهُمْ حينَ يُعْطُونَ النَّاسَ، ويُحسنونَ إليهِمْ، ويَمْنَحُونَهُمْ مَحَبَّتَهُمْ وثِقَتَهُمْ؛ يكونونَ قَدْ امْتَلَكُوا قلوبَهُمْ، واسْتَحْوذوا علَىٰ نفوسِهِمْ، فيكونُ ما أَخَذُوهُ أكثرَ بكثيرٍ مِمَّا أَعْطَوا، فَهُمْ وإنْ كانُوا أعطَوْا شَيئًا مَادِيًّا أوْ مَعْنَوِيًّا يُقَدَّرُ بِقَدْرٍ، ويُثَمَّنُ بِثَمَنٍ، ويُحَدُّ بِحَدٍّ؛ لَقَدْ أخذُوا قلوبَهُمْ ونُفُوسَهُمْ وأرواحَهُمْ وحُبَّهُمْ وَوَلاءَهُمْ، وأينَ يقَعُ عطاءٌ مِنْ عطاءٍ، وأخْذٌ مِنْ أَخْذٍ؟!

* فالأخذُ والعطاءُ فِي عُرْفِ الدُّعاةِ لا يعنِي الأَخْذَ والعَطَاءَ المَادِيَّ المُجَرَّدَ، وإنَّما يَرْمُونَ إِلَىٰ ذلكَ المَعْنَىٰ الرَّفيعِ منْ أَخْذِ النُّفوسِ والقُلُوبِ والأرواحِ، وكَسْبِها لِصالِحِ فِكْرَتِهِمْ؛ وهَذا المَعْنَىٰ لا يَجِدُهُ إلا الدُّعاةُ الصادقونَ المخلصونَ، الذينَ شَفَّتْ أرواحُهُمْ، وحلَّقَتْ عالِيًا؛ وتَرَفَّعَتْ عنْ موازينِ أهلِ الأرضِ وأحكامِهِمْ وقِيَمِهِمْ؛ لِتَحْتكِمَ إِلَىٰ موازينِ السَّماءِ وأحكامِ السَّماءِ، وقِيَمِ السَّماءِ!!!

حِفْظُ اللهِ تعالَى الدَعواتِ بعدَ موتِ الدُّعاةِ الصادقينَ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «لَمْ أَعُدْ أَفْزَعُ مِنَ المَوْتِ حَتَّىٰ لَوْ جَاءَ اللَّحْظَةَ! لَقَدْ عَمِلْتُ بِقَدْرِ مَا كُنْتُ مُسْتَطِيعًا أَنْ أَعْمَلَ! هُناكَ أَشْياءُ كَثِيرَةٌ أَوَدُّ أَنْ أَعْمَلَها؛ لَوْ مُدَّ لِي فِي الحَياةِ، ولَكِنَّ الحَسْرَةَ لَنْ تَأْكُلَ قَلْبِي إِذَا لَمْ أَسْتَطِعْ؛ إِنَّ آخَرِينَ سَوْفَ يَقُومُونَ بِهَا، إِنَّها لَنْ

تَمُوتَ إِذَا كَانَتْ صَالِحَةً لِلْبقاءِ، فَأَنَا مُطْمَئِنٌّ إِلَىٰ أَنَّ العِنَايَةَ التِي تَلْحَظُ هَذَا الوُجُودَ لَنْ تَدَعَ فِكْرَةً صَالِحَةً تَمُوتُ[1]».

* لم يَعُدْ سيدٌ خائفًا علَىٰ فِكْرَتِه ودعوتِهِ -وهكَذا الدُّعاةُ أَبَدًا؛ فَلَقَدْ عَمِلَ مَا بالمُسْتطاعِ أَنْ يَعْمَلَهُ، وقَدَّم مَا يُمْكِنُ للدُّعاةِ أنْ يُقَدِّموهُ؛ فلَمْ يَدَعْ سبيلًا يَنْصُرُ فيهِ دِينَهُ ودعوتَهُ إلَّا وسلَكَهُ؛ وفوقَ مَا عَمِلَ وما قَدَّمَ لَدَيْهِ مِنَ الأمانِيِّ والغاياتِ ما لا تَقُومُ لَهُ الدُّنْيا؛ وهُوَ مُطْمَئِنٌّ إِلَىٰ صِدْقِ ما كانَ يدعُو إليهِ، وهُوَ يعلَمُ أنَّ اللهَ تعالَىٰ شَكُورٌ؛ يَشْكُرُ لعبادِهِ أعمالَهُمْ، ومِنْ شُكْرِهِ سبحانَهُ أعمالَهُم أنَّهُ لا يُضيعُ جُهْدَهُمْ وأعمالَهُمْ، وهُو القائِل سُبحانَهُ: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، فهوَ واثِقٌ إِذَنْ بِأَنَّ اللهَ تعالَىٰ سيحفَظُ دَعْوتَهُ وفِكْرَتَهُ الصادقةَ؛ وسَيُسَخِّرُ لَها مِنْ بَعْدِهِ مَنْ يقومونَ بِهَا، وأنَّ دورَهُ يَنْتَهِي بالتَّمامِ يومَ مَوْتِهِ، وأنَّ موتَ الدُّعاةِ بالطريقَةِ التِي يُقَدِّرُها اللهُ تعالَىٰ خيرٌ للدُّعاةِ والدَّعواتِ مِنْ حياتِهِمْ، وَوَراءَ ذلِكَ مِنَ الأسرارِ والمَعانِي مَا لا يَعْلَمُهُ إلا اللهُ تعالَىٰ.

يقولُ الأُستاذُ أَحْمَدْ حَسَنْ فِي مُقَدِّمَةِ كتابِ (فِقْهِ الدَّعْوَةِ) لسيِّدِ قُطْبٍ: «ويُسَجِّلُ التَّارِيخُ أَنَّ سَيِّدَ قُطْبٍ سَقَىٰ تُرْبَةَ الدَّعْوَةِ بِدَمِهِ، وغَذَّاها بِفِكْرِهِ، وأَطْعَمَها مِنْ وَقْتِهِ وأَعْصابِهِ

---

(1) الأسلم أن يُقال هنا مثلًا: (اللهُ تعالىٰ، الذي يدبر أمر الوجود بلطفه وعلمه وحكمته، لَنْ يَدَعَ فِكْرَةً صالحةً) وما أشبه ذلك؛ بدلًا من قوله: (العِنَايَةَ التِي تَلْحَظُ هَذَا الوُجُودَ)، سلوكًا لطريق السلامة في باب الأسماء والصفات.

(2) هود: 115.

ورَاحَتِهِ، لَقَدْ مَاتَ سَيِّدُ قُطْبٍ؛ ولكِنَّ آثارَهُ لَمْ تَمُتْ؛ فَقَدْ خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِ كُتُبًا وآثارًا سَتَبْقَىٰ خَالِدَةً علَىٰ مَرِّ التَّارِيخِ؛ لِأَنَّهُ كَتَبَها مَرَّتينِ: مَرَّةً بِمِدادِ العالِمِ، ومَرَّةً بِدَمِ الشَّهِيدِ»[1].

رجاءُ عَفْوِ اللهِ تعالَى ورَحْمَتِهِ ورِضْوانِهِ غايَةُ الدُّعاةِ

قالَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-: «لَمْ أَعُدْ أَفْزَعُ مِنَ المَوْتِ حَتَّىٰ لَوْ جَاءَ اللَّحْظَةَ! لَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ خَيِّرًا بِقَدْرِ مَا أَسْتَطِيعُ، أَمَّا أَخْطائِي وغَلَطَاتِي؛ فَأَنَا نَادِمٌ عَلَيْها! إِنِّي أَكِلُ أَمْرَهَا إِلَىٰ اللهِ، وأَرْجُو رَحْمَتَهُ وعَفْوَهُ، أَمَّا عِقَابُهُ؛ فَلَسْتُ قَلِقًا مِنْ أَجْلِهِ، فَأَنَا مُطْمَئِنٌّ إِلَىٰ أَنَّهُ عِقَابُ حَقٍّ، وجَزَاءُ عَدْلٍ، وقَدْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَحْتَمِلَ تَبِعَةَ أَعْمَالِي، خَيْرًا كَانَتْ أَوْ شَرًّا.. فَلَيْسَ يَسُوؤُنِي أَنْ أَلْقَىٰ جَزَاءَ مَا أَخْطَأْتُ حِينَ يَقُومُ الحِسابُ[2]!».

سيد قطب

---

(1) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 99.

(2) كان الأَوْلَىٰ بسيد في هذا المقام ألا يعوِّلَ إلا علىٰ عفو الله تعالىٰ، فإنه لا معوَّلَ هناك إلا علىٰ عفوه؛ أما حساب الله تعالىٰ؛ فلن يقدر عليه أحد؛ إذ لو حاسب الله تعالىٰ العباد علىٰ حسناتهم؛ لهلكوا، ولما قامت بما له سبحانه عليهم من حق العبودية؛ فكيف إذا حاسبهم علىٰ إساءاتهم؛ والأولىٰ به ألا يقدم بين يدي لقاء ربه إلا حسن الظن بالله أنه سيرحمه، ويعفو عنه، ويغفر له؛ فعَنْ جَابِرٍ، قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ» (متفق عليه)؛ والذي يبدو أن سيدًا أراد بقوله: (فَلَيْسَ يَسُوؤُنِي أَنْ أَلْقَىٰ جَزَاءَ مَا أَخْطَأْتُ حِينَ يَقُومُ الحِسابُ)، معنىٰ الاستعطاف؛ كمن يقول لأبيه الرحيم: أنا أستحق منك العقوبة علىٰ إساءتي، وهو يريد استعطافه، وطلب العفو منه؛ والله أعلم.

* يُنْهِي سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- رسالتَهُ بِاسْتِسْلامِهِ الكامِلِ لقضاءِ اللهِ تعالَىٰ؛ ويُقْبِلُ علَىٰ رَبِّهِ تعالَىٰ وَوَلِيِّهِ وسَيِّدِهِ إِقْبالَ المُطْمَئِنِّ الواثِقِ، ويَسْتَعِدُّ للقاءِ رَبِّهِ أَتَمَّ استعدادٍ؛ فَهُوَ جاهِزٌ للموتِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، بَلْ فَرِحٌ بالمَوْتِ لَوْ جاءَ اللَّحْظَةَ؛ فَرَحَ الغَائِبِ المُطيعِ الذِي نَأَىٰ عَنْ أحبابِهِ وطالَ غيابُهُ عَنْهُمْ؛ بِعَوْدَتِهِ إليهِمْ، ولُقياهُ بِهِمْ.

فَهُوَ عبْدٌ مطيعٌ، قَدَّمَ مَا يستطيعُ أنْ يُقَدِّمَهُ قُرْبانًا لِرَبِّهِ؛ وأَفْنَىٰ حياتَهُ فِي طاعَةِ رَبِّهِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدْ أَغْلَىٰ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَجادَ بِهَا لِرَبِّهِ سَخِيَّ النَّفْسِ، فَرِحَ القَلْبِ بِقُرْبانِهِ، حالُهُ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].. فجادَ بِأَغْلَىٰ مَا يجودُ بِهِ إنسانٌ مِنْ أَجْلِ رَبِّهِ.

وَسَيِّدٌ إِذْ يُقَدِّمُ كُلَّ هذَا لِرَبِّهِ، فإنَّ حالَهُ كحالِ سائرِ البَشَرِ فِي بابِ الخَطَأِ والصَّوابِ، يَجْرِي عليهِ قانونُ الخَطَأِ البَشَرِيِّ، فَلابُدَ أَنْ يكونَ لَحِقَهُ شَيْءٌ مِنَ الخَطَأِ البَشَرِيِّ فِي طريقِهِ الشَّاقِّ الطَّوِيلِ؛ فَهُو بِسَبَبِهِ نادمٌ، غيرُ مُصِرٍّ عليهِ؛ تَائِبٌ إِلَىٰ رَبِّهِ مِنْهُ، وفِي الحديثِ: «التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ: النَّدَمُ، وَالِاسْتِغْفَارُ»[2]، وهو يَكِلُ خَطَأَهُ إِلَىٰ أَرْحَمِ الراحمينَ، وخيرِ العافينَ.. وليسَ يَخْشَىٰ عقابَ اللهِ تعالَىٰ؛ ليسَ استخفافًا بعظمَةِ عقابِ اللهِ تعالَىٰ، ولا بِجَلالِ قَدْرِهِ، وإنَّما ثِقَةً باللهِ تعالَىٰ أَنْ يَعْفُوَ عنْهُ، ويَغْفِرَ لَهُ؛ ولِعِلْمِهِ أنَّ العَبْدَ لَوْ لَقِيَ رَبَّهُ بِذُنُوبِ أَهْلِ الأَرْضِ، وجَاءَهُ تَائِبًا مُفْتَقِرًا؛ لجَاءَهُ اللهُ تعالَىٰ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَىٰ مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ

---

(1) البقرة: 127.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، بَاب معالجة كل ذنب بالتوبة: 9/ 252، وصَحَّحَهُ الألباني.

اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ[1] خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[2].

فَسلامٌ علَىٰ سَيِّدٍ فِي الأَوَّلينَ.. وسلَامٌ علَىٰ سَيِّدٍ فِي الآخرينَ.. وسَلامٌ علَىٰ سَيِّدٍ فِي المَلَأِ الأَعْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّيْنِ..

هَذا هُوَ سَيِّدُ قُطْبٍ

هَذا هُوَ سَيِّدُ قُطْبٍ: سَيِّدٌ المُتَفائِلُ المسْتَبْشِرُ فِي أَقْسَىٰ سَاعاتِ الشِّدَّةِ وأدقِّها، فَهُوَ يَفْتَحُ الآفاقَ لِغَدٍ مُشرقٍ للإسلامِ والمُسْلمينَ، بلْ للإنسانِيَّةِ كُلِّها.. سَيِّدٌ الذِي يَرَىٰ بَرَكَةَ الأَعْمَارِ ونماءَها وامتدادَها فِي نَشْرِ الأَفْكارِ الخَيِّرَةِ فِي دُنْيا الناسِ.. سَيِّدٌ الذِي يرَىٰ الخَيْرَ أَقْوَىٰ مِنَ الشَّرِّ وأَرْسَخَ، بالرغْمِ مِنْ طغيانِ الشَّرِ أَحْيانًا وانتفاشِهِ.. سَيِّدٌ العَطُوفُ البَشُوشُ الحنونُ الذِي يدعُو إلىٰ العَطْفِ والإِحسانِ إِلَىٰ الناسِ كلِّهِمْ، حتَّىٰ المخالِفينَ منهمْ، وحتَّىٰ الذينَ يَبْدُو ظاهِرُهُمُ الشَّرَّ.. سَيِّدٌ الذِي امْتَهَنَ الإحسانَ والرِّفْقَ بالنَّاسِ حتَّىٰ وَجَدَ فِي الإِحْسانِ الرَّاحَةَ والهَنَاءَةَ، بلِ اسْتَخْرَجَ بإحسانِهِ الخيرَ المَكْنُونَ المستورَ فِي نفوسِ النَّاسِ.. سَيِّدٌ الواسعُ الكبيرُ الذِي لا يَرَىٰ فِي الاسْتِعانَةِ بالآخَرِينَ غَضَاضَةً ولا انْتِقاصًا؛ بلْ رآهُ كَمالًا أَيَّمَا كَمالٍ.. سَيِّدٌ المُفَكِّرُ الوَاضِحُ الرَّشيدُ الذِي يرَىٰ أنَّ إِدْراكَ الحَقَائِقِ ومَعْرِفَتَها مِنْ

---

(1) بِقُرَابِ الْأَرْضِ، أَيْ: بِمِثْلِهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الْقُرْبِ. وَقَالَ الطِّيبِيُّ: أَيْ: بِمَا يَقْرُبُ مِلْأَهَا مِنَ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ، انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري: 4/ 1544.

(2) رواه الترمذي في سننه، بَاب فِي فَضْلِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَمَا ذُكِرَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ: 5/ 440، وصَحَّحَهُ الألباني.

أولوِيَّاتِ أصحابِ الفِكْرِ الرَّشيدِ.. سَيِّدٌ الحكيمُ الحَصِيفُ[1] الذِي يرَىٰ تَكَامُلَ الطَّاقَاتِ طَرِيقَةَ الحُكَمَاءِ، وأنَّها الطريقُ الأَمْثَلُ لإحياءِ الأُمَّةِ واستعادَةِ مكانتِها وسيادَتِها.. سَيِّدٌ المُتَّزِنُ السَّديدُ الذِي يدعُو إِلَىٰ التَّوَازُنِ الرَّشيدِ بينَ الغَيْبِ المَجْهُولِ، والعَمَلِ الدَّؤُوبِ.. سَيِّدٌ المُعَظِّمُ ربَّهُ تعالَىٰ، والذِي يرَىٰ عَظَمَةَ المَخْلُوقِ إنَّما هِيَ بِتَعْظيمِ الخَالِقِ ﷻ.. سَيِّدٌ الحُرُّ الذِي يرَىٰ الحُرِّيَّةَ الصحيحَةَ تلكَ الحُرِّيَّةَ المُتَوافِقَةَ وقِيَمَ الإسلامِ، وتَشْريعاتِ الإِسْلامِ، وعقيدَةَ الإسلامِ؛ لا الحريَّةَ الزَّائِفَةَ التِي يُرادُ مِنْها خَدِيعَةُ أبناءِ المسلمينَ وتَضْليلُهُمْ.. سَيِّدٌ البَذْلُ والعطاءُ الذِي يرَىٰ حَياةَ الفِكْرَةِ بِمَا يُقَدِّمُهُ أَصْحابُهَا مِنْ تَضْحياتٍ، ورصيدَهَا بِمَا يَخُطُّهُ قادَتُها بِمِدَادِ دمائِهِمْ وعَرَقِهِمْ.. سَيِّدٌ الطَّاهِرُ النَّبيلُ: طاهِرُ الغاياتِ، طاهِرُ الوسائِلِ؛ الذِي يرَىٰ أنَّ الغَايَةَ لَا تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ فِي فِكْرِ الفُضَلاءِ النُّبلاءِ ومَناهِجِهِمْ، وأنَّ الوسيلةَ غايَةٌ مِنَ الغاياتِ، فَهِيَ تَسْتَمِدُّ نُبْلَهَا وطُهْرَها مِنْ ذاتِها.. سَيِّدٌ الحانِي الرَّقيقُ الذِي يعيشُ مَعَ النَّاسِ عزاءَهُمْ وأحزانَهُمْ، ويَدْأَبُ فِي إِزالَتِها، وإِحَالَتِها سعادَةً وحَلاوَةً، فهوَ يرَىٰ عَزَاءَ النَّاسِ مَدْخَلًا لقُلُوبِهِمْ، وفَرْحَةً لِلْمُعَزِّي فِي الوَقْتِ ذاتِهِ.. سَيِّدٌ الواثِقُ بِرَبِّهِ المُحْسِنُ ظَنَّهُ بِهِ، المُسْتَعِدُّ لِمُلاقاتِهِ، الفَرِحُ بالإِقْبالِ عليهِ.. سَيِّدٌ الذِي لا يَخْشَىٰ الموتَ، ولا يَخْشَىٰ مُلاقَاةَ مَنْ أَفْنَىٰ حياتَهُ لَهُ وفِيهِ؛ فَهُوَ يرَىٰ أَنَّهُ لا خَوْفَ وَلَا حُزْنَ عَلَىٰ الدُّعَاةِ العَامِلِينَ المُخْلِصِينَ عِنْدَ المَوْتِ!!!

* هذا ما سَجَّلَهُ سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- فِي رِسالَتِهِ هذِهِ، وهُوَ يُسْلِمُ نَفْسَهُ للهِ تعالَىٰ مُنْتَظِرًا المَوْتَ؛ لِتُمَثِّلَ هذهِ الرسالةُ عُصارَةَ كِتاباتِهِ، وخُلاصَةَ أَفْكارِهِ؛ فَلَكَأَنَّهُ اخْتَصَرَ كتاباتِهِ

---

(1) الحَصِيفُ: المُحْكَمُ العَقْلِ، من إِحْصافِ الأَمْرِ: وهو إحكامُهُ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 1/ 369.

كُلَّها، وأَوْجَزَها فِي هذِهِ الوَرَيقَاتِ المَعْدوداتِ الخَاتِماتِ؛ مُعْلِنًا بها بَراءَتَهُ مِنْ كُلِّ مَا رُمِيَ بِهِ مِنْ إِفْكٍ وأَكاذِيبَ وبُهْتانٍ عظيمٍ، ومِنْ كُلِّ مَا قيلَ فيهِ مِنَ البعيدِ والقَريبِ.

* فلمْ يَكُنْ سيِّدٌ مُتشدِّدًا ولا مُتَعَصِّبًا كَما رَمَاهُ المُبْطلونَ «مِنْ أعداءِ الإسلامِ، وأعداءِ الدُّعاةِ، ومِنَ الجَهَلَةِ والمُغْرضينَ الذينَ ينتسبونَ للإسلامِ، ولَوْ قَرَأُوا كُتُبَ سيِّدٍ بعقولٍ نَقِيَّةٍ، وقلوبٍ صافيةٍ؛ لَعَرفُوا سيِّدًا علَىٰ حَقِيقتِهِ، وليسَ سَيِّدٌ المُفْتَرَىٰ عليهِ، ولَعَرَفُوا الأسبابَ الحَقِيقِيَّةَ التِي دَفَعَتِ الطُّغاةَ إِلَىٰ قَتْلِهِ»[1].

لَمْ يكنْ سَيِّدٌ مُتَعَصِّبًا وهُوَ يَنْبُذُ التَّعَصُّبَ ويَأْباهُ بقولِهِ: «إنَّ دعوتَنَا وفِكْرَتَنا مُجَرَّدَةٌ مِنَ التَّعَصُّبِ، وإِنَّ الذينَ يُقاوِمُونَها هُمُ المُتَعَصِّبونَ، أَوْ هُمُ الجُهلاءُ الذينَ لا يَعْرِفونَ مَاذا نَقُولُ»[2].

لمْ يكنْ سَيِّدٌ تَكْفيريًّا، ولا ظلاميًّا، وَرسالتُهُ هذهِ التِي يَدْعُو فيها إِلَىٰ احْتضانِ العُصاةِ والشِّرِّيرينَ؛ تُبَرِّؤُهُ مِنْ هذا الإِفْكِ وهذا البُهْتانِ المُبينِ.. «لَمْ يُصْدِرْ سيِّدُ قُطْبٍ أحكامًا شرعيَّةً علَىٰ الناسِ، ولمْ يَقُلْ بِتكْفيرِ النَّاسِ؛ ولذلِكَ نَجِدُهُ يُؤَكِّدُ ذلكَ بقولِهِ: إِنَّ مَهَمَّتَنا ليسَتْ إصدارَ الأحكامِ علَىٰ الناسِ، ولكنَّ مَهَمَّتَنا تَعْريفُهُمْ بِحَقيقَةِ (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)؛ لأنَّ الناسَ لا يعرفونَ مُقْتضاهَا الحَقِيقِيَّ، وهُوَ التَّحاكُمُ إِلَىٰ شَريعَةِ اللهِ تعالَىٰ»[3].

* لَمْ يَدْعُ سَيِّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- إِلَىٰ اعْتزالِ النَّاسِ، ونَبْذِهِمْ والاسْتِعْلاءِ عليهِمْ، وهُوَ القائِلُ: «حِينَ نَعْتَزِلُ الناسَ؛ لِأَنَّنَا نُحِسُّ أَنَّنَا أَطْهَرُ مِنْهُمْ رُوحًا، أَوْ أَطْيَبُ مِنْهُمْ قَلْبًا، أَوْ

(1) انظر: مقدمة كتاب: سيد قطب، الحياة في ظلال القرآن، بقلم: عبد الله الطنطاوي: 1/ 8.

(2) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 103.

(3) المصدر السابق: 1/ 95.

أَرْحَبُ مِنْهُمْ نَفْسًا، أَوْ أَذْكَىٰ مِنْهُمْ عَقْلًا، لَا نَكُونُ قَدْ صَنَعْنَا شَيْئًا كَبِيرًا.. لَقَدِ اخْتَرْنا لِأَنْفُسِنَا أَيْسَرَ السُّبُلِ، وأَقَلَّها مَئُونَةً!.. إِنَّ العَظَمَةَ الحَقِيقِيَّةَ: أَنْ نُخَالِطَ هؤُلاءِ النَّاسَ، مُشْبَعِينَ بِرُوحِ السَّمَاحَةِ، والعَطْفِ عَلَىٰ ضَعْفِهِمْ ونَقْصِهِمْ وخَطَئِهِمْ، ورُوحِ الرَّغْبَةِ الحَقِيقِيَّةِ فِي تَطْهِيرِهِمْ وتَثْقِيفِهِمْ، وَرَفْعِهِمْ إِلَىٰ مُسْتَوانا بِقَدْرِ مَا نَسْتَطِيعُ»، وإِنَّما «دَعا سَيِّدٌ إِلَىٰ العُزْلَةِ الشُّعورِيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِإحساسِ المُسْلِمِ ومَشاعِرِهِ، لَا العُزْلَةِ المَادِّيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بالأَعْضاءِ والجوارِحِ، فِي حُدودِ مَا أَحَلَّ اللهُ تَعالَىٰ مِنْ حَلالٍ، ومَا حَرَّمَ مِنْ حرامٍ. وكانَ يَرَىٰ أَنَّ هذهِ العُزْلَةَ الشُّعورِيَّةَ تَنْشَأُ تِلْقائِيًّا فِي حِسِّ المسلمِ المُلْتَزِمِ تِجَاهَ مَنْ يلتَزِمونَ بأوامِرِ الإسلامِ»[1]. وهُوَ إِذْ يدعُو إِلَىٰ العُزْلَةِ الشُّعورِيَّةِ عَمَّا يُرِيدُهُ أعداءُ الإِسْلامِ للإِسْلامِ؛ إِنَّما أرادَ ذلِكَ لِيَبْقَىٰ الإسلامُ مُمْتَازًا بِقِيَمِهِ وأفكارِهِ وعَقائِدِه، حتَّىٰ يَبْقَىٰ الباطِلُ وَاضِحًا عَارِيًا مَكْشُوفًا لا يَسْتُرُهُ شَيْءٌ؛ يَتَقَزَّزُهُ النَّاسُ، ويَنْبُذُونَهُ، ويَنْفرونَ مِنْهُ؛ ليعيشَ الناسُ بروحِ الإسلامِ، وأفكارِ الإسلامِ، وعَقيدَةِ الإسلامِ؛ حتَّىٰ لَوْ حَكَمَهُمْ أعداءُ الإسلامِ مُدَّةً مِنَ الزمانِ؛ فإذا كانُوا كَذَلِكَ؛ كانَ اسْتِئْنافُ الحياةِ الإسلامِيَّةِ سَهْلًا مَيْسُورًا عندَ أقربِ سَانِحَةٍ؛ فَهُوَ لا يريدُ أنْ يألَفَ الناسُ الباطِلَ؛ فَيَسْهُلَ علَىٰ الإعداءِ تَرْويضُهُمْ ولَوْ بعدَ جيلٍ أَوْ جيلَيْنِ؛ وقَدْ كانَ مَا حَذَّرَ مِنْهُ سَيِّدٌ؛ فَبِتْنَا نَرَىٰ فِي كثيرٍ مِنْ بلادِ الإِسْلامِ أَجْيالًا تَأْلَفُ الجَاهِلِيَّةَ والشَّرَّ، وتَسْتَغْرِبُ قِيَمَ الإسلامِ وآدابَهُ ومبادِئَهُ وأحكامَهُ؛ حتَّىٰ أَصْبَحُوا فِي عُزْلَةٍ عنِ الإِسْلامِ وغُرْبَةٍ، لا يَدُلُّ علَىٰ إِسْلامِهِمْ إِلَّا قِبْلَتُهُمْ التِي إِلَيْها يُصَلُّونَ.

* فَلَمْ تَكُنِ الحَرْبُ المُسْتَعِرَةُ علَىٰ سَيِّدٍ إِلَّا لِأَنَّهُ واجَهَ الجاهِلِيَّةَ المُعاصِرَةَ فِيما كَتَبَ، ولأنه أَظْهَرَ حقيقَتَها، وبيَّنَ أَنَّها «لَيْسَتْ حالَةً فَرْدِيَّةً، بَلْ يَتَحَرَّكُ أَفْرادُها كَكَائِنٍ عُضْوِيٍّ

(1) المصدر السابق: 1/ 99.

بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْضٍ، وطالَبَ المُجْتَمَعَ المُسْلِمَ بأنْ يُواجِهَ هذهِ الجاهِلِيَّةَ بالخَصائِصِ ذاتِها، ولكنْ بِدَرَجَةٍ أَقْوَىٰ وأَعْمَقَ؛ حتَّىٰ لا تَقَعَ الفِتْنَةُ بِظُهورِ الفَسادِ فِي البَرِّ والبَحْرِ.. وعَرَّفَ سَيِّدٌ المُجْتَمَعَ الجَاهِلِيَّ بأَنَّهُ: كُلُّ مُجْتَمَعٍ لا يُخْلِصُ عُبُودِيَّتَهُ للهِ وحْدَهُ، مُتَمَثِّلَةً هذهِ العبوديَّةُ فِي التَّصَوُّرِ الاعْتِقادِيِّ وفِي الشَّعائِرِ التَّقْلِيدِيَّةِ وفِي الشَّرائِعِ القانونِيَّةِ»[1].

* لَمْ تَكُنِ الحَرْبُ المُسْتَعِرَةُ علَىٰ سَيِّدٍ إلَّا منْ أَجْلِ أنَّهُ يُريدُ الإسْلامَ، ويُريدُ سِيادَتَهُ ورِيادَتَهُ؛ لِأَنَّهُ يَدْعو بِفِكْرِهِ إلَىٰ اسْتِئْنافِ الحياةِ الإسْلامِيَّةِ من جديدٍ فِي كُلِّ تَفاصيلِ حياةِ المسلمينَ، فَهُوَ القائِلُ: «لَقَدْ كانَتْ تَنْحِيَةُ الإسْلامِ عَنِ قِيادَةِ البَشَرِيَّةِ حَدَثًا هائِلًا فِي تَارِيخِها، ونَكْبَةً قَاصِمَةً فِي حياتِها، نَكْبَةً لَمْ تَعْرِفْ لَها البَشَرِيَّةُ نَظِيرًا فِي كُلِّ مَا أَلَمَّ بِهَا مِنْ نَكَبَاتٍ»[2]. فَهُمْ لا يريدونَ إسْلامًا يدعُو إلَىٰ هَيْمَنَةِ نظامِ الإسْلامِ علَىٰ دُنْيا النَّاسِ، وتَحْكيمِ شَرْعِ اللهِ تعالَىٰ فِي حياةِ البَشَرِ. يقولُ سيِّدٌ: «الإسْلامُ الذِي يُرِيدُهُ الأعداءُ وحُلَفاؤُهُمْ فِي بلادِنَا ليسَ هُوَ الإسلامَ الذِي يُحارِبُ الاستعمارَ، وليسَ هُوَ الإسلامَ الذِي يقاوِمُ الطُّغْيانَ.. إنَّهُمْ لا يريدُونَ لِلْإسلامِ أَنْ يَحْكُمَ.. إنَّهُمْ يريدونَ إسْلامًا غَرْبِيًّا، يُريدونَ الإسْلامَ الذِي يَسْتَفْتِي فِي نواقِضِ الوضوءِ، ولَكِنَّهُ لا يَسْتَفْتِي فِي أوضاعِ المُسلمينَ السياسِيَّةِ والاقْتِصادِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ والمَالِيَّةِ؛ إنَّها لَمَهْزَلَةٌ، بَلْ إنَّها مَأْسَاةٌ»[3].

* فَلَمْ تَكُنِ الحَرْبُ المُسْتَعِرَةُ علَىٰ سَيِّدٍ إلَّا لِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي مُواجَهَةِ الطُّغْيانِ، وأَبَىٰ أَنْ يَتَنَازَلَ أَوْ يَتَرَاجَعَ عَنْ أفْكارِهِ، أَوْ يُساوِمَ علَىٰ مبادِئِهِ وعَقيدَتِهِ، أَوْ حتَّىٰ أنْ يَسْتَرْحِمَ الطُّغاةَ،

---

(1) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 95.

(2) انظر: مقدمة في ظلال القرآن، لسيد قطب: 1/ 15.

(3) من أعلام الدعوة الإسلامية في مصر، للمستشار عبد الله العقيل: 1/ 99.

فَهُوَ يقولُ حِيْنَ سُووِمَ علَىٰ الإفْراجِ عَنْهُ مُقابِلَ أَنْ يُقِرَّ بِباطِلِهِمْ، أَوْ أنْ يُعْدَمَ: «إِنَّ إِصْبَعَ السَّبَّابَةِ التِي تَشْهَدُ للهِ تعالَىٰ بالوَحْدانِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ، تَأْبَىٰ أنْ تَكْتُبَ كَلِمَةً وَاحِدَةً تُقِرُّ بِهَا لِحاكِمٍ طَاغِيَةٍ، فإنْ كُنْتُ مَسْجونًا بِحَقٍّ؛ فَأَنَا أَرْتَضِي حُكْمَ الحَقِّ، وإنْ كُنْتُ مَسْجونًا بباطِلٍ؛ فَأَنَا أَكْبَرُ مِنْ أَنْ أَسْتَرْحِمَ الباطِلَ»[1].

* لَمْ يَكُنْ سَيِّدُ قُطْبٍ حاضِرًا ولَا مُخَطِّطًا لِتَفْجيراتِ الحادِي عَشَرَ مِنْ سِبْتِمْبِر، وَلَا دَاعِيًا فِي كتابَاتِه كُلِّهَا إِلَىٰ القَتْلِ أَوِ العُنْفِ أوِ الإرْهابِ؛ يَوْمَ تَمَخَّضَ تَقْريرُ لَجْنَةِ التَّحقيقِ فِي أحداثِ الحادِي عَشَرَ مِنْ سِبْتِمْبِر 2001م عمَّا نَصُّهُ: «إِنَّ العَدُوَّ الرَئِيسَ لَنَا هُوَ تيارٌ إِسْلامِيٌّ رَادِيكَالِيٌّ[2] مُتَطَرِّفٌ، تَعودُ مَرْجِعِيَّتُهُ إِلَىٰ أفكارِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وسَيِّدِ قُطْبٍ، ولا يُوجَدُ مَجالٌ للتَّصالُحِ مَعَ هَذَا التَّيارِ، ولابُدَّ مِنْ عَزْلِهِ وتَصْفِيَتِهِ تَمامًا، لكنْ لابُدَّ أَوَّلًا مِنْ مُنازَلَتِهِ فِي ميدانِ حَرْبِ الأَفْكارِ، مِنْ أَجْلِ كَسْبِ الغَالِبِيَّةِ المُحايِدَةِ التِي يُمْكِنُ أنْ تَتَحَوَّلَ إِلَىٰ مُتعاطِفَةٍ مَعَهُ»[3]؛ فَهِيَ حَرْبُ أَفْكارٍ إِذَنْ لَيْسَ أَكْثَرَ، أَفْكارِ الإِسْلامِ مُقابِلَ أَفْكارِ الغَرْبِ!!!

* وهَذَا هُوَ شَأْنُ الدُّعاةِ والطُّغاةِ فِي كُلِّ زَمانٍ: قَدِيمًا وحَدِيثًا.. عِدَاءٌ مُسْتَحْكِمٌ.. وبُغْضٌ كَبِيرٌ لِلْحَقِّ وأَهْلِهِ؛ فَهُمْ يرَوْنَ فِي فِكْرِ الدُّعاةِ ودَعْوَتِهِمْ خَطَرًا يَتَهَدَّدُ مَصالِحَهُمْ وكَيانَهُمْ وعُلُوَّهُمْ وكِبْرِياءَهُمْ.. فَهُمْ يعلمونَ أنَّ الحقَّ الواضِحَ المُبينَ يَكْشِفُ زَيْفَهُمْ،

---

(1) المصدر السابق: 1/ 101.

(2) اسم منسوب إلىٰ راديكاليَّة: من كان علىٰ مذهب الراديكاليّة «تيار راديكاليّ» مصطلح أجنبي تولد حديثًا في العالم الغربي، وصفًا (للكهنوتيين) المتشددين، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 2/ 841، ومعجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ، لبكر أبو زيد: 1/ 105.

(3) انظر: معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، لـ د. عبد العزيز مصطفىٰ كامل.

ويُبَيِّنُ عَيْبَهُمْ؛ فَيَصْرِفُ عَنْهُمْ وُجوهَ الناسِ إِلَىٰ الحَقِّ وأَهْلِهِ.. فَهُمْ يَأْتَمِرُونَ لَيْلًا ونهارًا، فِي الصُّبْحِ والمَساءِ للخَلَاصِ مِنَ الدَّعْوَةِ والدُّعاةِ؛ لَيْستَرِيحوا مِنْ خَطَرِهِمْ، وتَخْلُوَ لَهُمُ البِلادُ، ويَنْقادَ لَهُمُ العِبادُ.. وَهُمْ فِي سبيلِ ذلِكَ يَرْجُمونَ الدُّعاةَ بِكُلِّ نَقِيصَةٍ، ويَنْسُبُونَ لَهُمْ كُلَّ شَائِنَةٍ مِنْ: إِفْسادٍ، وتَعَصُّبٍ، وإِرْهابٍ.. وَيَسْتعينُونَ علَىٰ تَرْويجِ ذلِكَ بِقُوَّتِهِمْ وبَطْشِهِمْ وأَمْوالِهِمْ ونُفُوذِهِمْ، كَمَا يَسْتعينُونَ بالرُّهْبانِ والسَّحَرَةِ قَدِيمًا، وعَلَمَاءِ السُّوءِ والإعلامِيِّينَ حَدِيثًا؛ لِيَصْنَعُوا لَهُمْ هَالَةً كبيرةً مِنَ التَّكْبيرِ والتَّمْجيدِ والتَّبْجيلِ والتَّعْظيمِ؛ فَيُظْهروهُمْ للناسِ فِي صورَةِ الأولياءِ الصالحينَ، والخُلفاءِ الرَّاشدينَ؛ الذينَ لا يقولونَ إلا الصِّدْقَ، ولا يَفْعلونَ إلا الحَقَّ؛ فَقولُهُمْ مسموعٌ، وأَمْرُهُمْ مُطاعٌ؛ ومُخالَفَتُهُ خُروجٌ علَىٰ أَوْلياءِ الأَمْرِ الرَّاشدينَ؛ ولَوْ عَطَّلُوا الشَّرِيعَةَ، وحارَبُوا الإِسْلامَ والمسلمينَ، وأَباحُوا الكُفْرَ والفُسوقَ والعصيانَ؛ فطاعَتُهُمْ ليسَ لَهَا حَدٌّ يُحَدُّ؛ ولَوْ أَلْهَبُوا ظُهورَ الدُّعاةِ المُصْلحينَ المُؤْمنينَ الرَّاكعينَ السَّاجِدينَ الرَّبانِيِّينَ بالسياطِ، ولَوْ مَكَّنُوا لِأعداءِ الإِسْلامِ مِنْ بلادِ الإِسْلامِ وخيراتِهِمْ، يَعيثُونَ فِي البلادِ الفَسادَ والإِفْسادَ، ويَنْهبُونَ مِنْها الخَيْراتِ.

❋ وهَذَا هُوَ شَأْنُ الدُّعاةِ والطُّغاةِ قديمًا وحديثًا: فَمَا كانَ إبراهيمُ عليه السلام إرهابيًا مُفْسدًا مُتشددًا يومَ أرادُوا إِعْدامَهُ والخلاصَ مِنْهُ، وأَلْقَوهُ فِي النَّارِ.. ومَا كانَ مُوسَىٰ عليه السلام إِرْهابيًّا مُفْسِدًا مُتَشَدِّدًا يومَ أرادَ فرْعونُ إِعْدامَهُ، ومُلاحَقَةَ أَتْباعِهُ علَىٰ دِينِهِ.. وما كانَ عِيسَىٰ عليه السلام إِرْهابيًّا مُفْسدًا مُتَشَدِّدًا يومَ أرادَ الطُّغاةُ صلْبَهُ وإِعْدامَهُ والخَلاصَ مِنْهُ.. ومَا كانَ غلامُ أصحابِ الأُخدودِ إِرْهابيًّا مُفْسدًا مُتَشَدِّدًا يومَ أَعْدَمَهُ الطُّغاةُ، ولاحَقُوا أَتْباعَهُ، وأَقْحَمُوهُمْ فِي أخاديدِ النِّيرانِ.. ومَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِرْهابيًّا مُفْسدًا مُتَشَدِّدًا يومَ تآمَرُوا علَىٰ قَتْلِهِ وإعدامِهِ، ولاحَقُوا أَصْحابَهُ وأنصارَهُ.. مَا كانَ شَيْءٌ مِنْ كُلِّ هَذَا.. ومَا كانَ كَذَلِكَ سَيِّدُ

قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- إِرْهابيًّا مُفْسدًا مُتَشَدِّدًا يومَ أَعْدَمُوهُ وقَتَلُوهُ، ولاحَقُوا إِخْوانَهُ.. فَهِيَ عادَةُ الباطِلِ والطُّغْيانِ قَدِيمًا وحَدِيثًا، وسُنَّتُهُمُ الجَارِيَةُ التِي لا تَكادُ تُخْطِئُ فِي جيلٍ مِنَ الأجيالِ؛ والسِّرُّ فِي ذلِكَ أَنَّ الشَّيطانَ الذِي سَنَّ لهُمْ هذِهِ السُّنَّةَ لَمْ يَزَلْ حَيًّا مُذْ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ سبحانَهُ المُهْلَةَ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعثُونَ؛ فَهُوَ لَمْ يَزَلْ حيًّا يُمْلِي علَىٰ طُغاةِ كُلِّ زمانٍ سُنَّتَهُ؛ وهُمْ لَهَا مُتَّبِعونَ، حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ[1]، والأمْرُ فيهِمْ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً[3]

* ليسَ الغَريبَ ولا العَجِيبَ أَنْ يُواجَهَ سَيِّدُ قُطْبٍ بِكُلِّ هذا مِنَ الطُّغاةِ الظَّالمينَ، ولكنَّ الغَريبَ العَجِيبَ أنْ يُواجِهَ سَيِّدُ الحَرْبَ والنُّكْرانَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ للعِلْمِ الشَّرْعِيِّ مِنَ المُتَدَيِّنينَ، مِمَّنْ جَعَلَ مِنْ زلاتِ سَيِّدٍ غَرَضًا يَرْميهِ بِها.. ومِمَّنْ جَعَلَ مِنَ العقيدةِ سِلاحًا شَهِيرًا، وسيفًا مُسْلَطًا يَجْرحُونَ بِها سَيِّدًا، وَيَسْفِكُونَ دَمَهُ، ويَنْهَشُونَ لَحْمِهِ.. وهَذا الظُّلْمُ

---

(1) القُذَّةُ: ريشة السهم، والمعنىٰ: أي كما تحاذي القُذَّةُ القُذَّةَ، وتقدر كل واحدة منهما علىٰ قدر صاحبتها وتقطع. يضرب مثلًا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 4/ 28.

(2) سبأ: 20.

(3) المَضاضَةُ: مصدر مَضَّ، وهو: الأَلَمُ والكُرْهُ، يُقالُ: فَعَلْتُ هذا الأمرَ علَىٰ مَضَضٍ، أي: كارهًا متألِّمًا، انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر: 3/ 2105.

مِنْ ذَوِي القُرْبىٰ -مِمَّن يُنْتَظَرُ مِنْهُمْ نُصْرَةُ سَيِّدٍ وحِمايَةُ ظَهْرِهِ- أَشَدُّ وأَنْكىٰ مِنْ ظُلْمِ الأَباعِدِ مِنَ الخُصومِ الظَّالمينَ.

* مَا كانَ سَيِّدُ قُطْبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ- يَتَبَنَّىٰ مَذْهبًا عَقائِدِيًّا، يُنَظِّرُ لَهُ، ويَدْعُو لاتِّباعِهِ، ولَمْ يَكُنْ يَتَبَنَّىٰ مَذْهَبًا فِقْهِيًّا يَتَمَذْهَبُ بِهِ، ويَتَعصَّبُ لَهُ.. لَمْ يَكُنْ سَيِّدٌ كذلِكَ، وإِنَّما كانَ صَاحِبَ مذهبٍ فِكْرِيٍّ إِسْلامِيٍّ، يَدْعُو إِلَىٰ إِعادَةِ حُكْمِ اللهِ تَعالَىٰ فِي الأَرْضِ، وأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ تَعالَىٰ فِي أَنْ تكونَ الحَاكِمِيَّةُ لَهُ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ خالِصَةً، كَمَا يُوَحَّدَ فِي أَنْ تكونَ العِبادَةُ لَهُ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ خالِصَةً، وما كانَ مِنْهُ من زلَّةٍ فِي بابِ العقيدَةِ، إِنَّما كانَ عارضًا، ولعلَّ نَظَرِيَّةَ التَّصويرِ الفَنِّيِّ التِي أَبْدَعَها، وَوَضَعَ قَواعِدَها سَيِّدٌ كانَتْ مُسَيْطِرَةً علَىٰ كتاباتِه؛ فكانَتْ تَجْنَحُ بِهِ أحيانًا.

وما تَجَرَّأَ الطُّغاةُ علَىٰ الدُّعاةِ: حَبْسًا ونَفْيًا وتَنْكيلًا وقَتْلًا إِلَّا يومَ وَجَدُوا فِي عُلماءِ السُّوءِ مِمَّنْ يَبيعُ آخِرَتَهُ بِدُنيا غيرِهِ مَنْ يُفْتِي لَهُمْ بِما يَشاؤُونَ، ويُخَرِّجُونَ لَهُمْ كُلَّ جَرِيمَةٍ، ويُلْبِسونَها ثَوْبًا مِنَ الدِّينِ والشَّرْعِ.. ولَوْ تَناصَرَ العلماءُ كُلُّهُمْ، ولَمْ يُوجَدْ هَذَا الصِّنْفُ الخَسيسُ الرَّخيصُ من علماءِ الطُّغاةِ؛ لَمَا تَجَرَّأَ الطُّغاةُ يومًا عَلَيْهِمْ؛ ولَهابُوا غَضْبَةَ أبناءِ المسلمينَ حينَ يُواجَهُونَ بِكَلِمَةِ العُلماءِ مُجْتَمِعَةً؛ فإِنَّهُ لا يُحَرِّكُ الشُّعوبَ والأُمَمَ مِثْلَمَا يُحَرِّكُهُمُ الدِّينُ..

* وهَؤلاءِ الذينَ عادَوْا سَيِّدًا مِمَّنْ ظَاهِرُهُمُ التَّدَيُّنُ والعِلْمُ الشَّرْعِيُّ صِنْفانِ:

الصِّنْفُ الأَوَّلُ: صِنْفٌ مُوالٍ للسُّلْطانِ، يَميلُ بِهِ هواهُ حيثُ رِضْوانُهُمْ، ومَصالِحَهُ الخاصَّةُ مِنْ مَنْزِلَةٍ ومَكانَةٍ وأَتْباعٍ وجاهٍ وصُحُفٍ وأَمْوالٍ وفَضائِيَّاتٍ وإِعْلامٍ.. كُلُّ هذِهِ الحظوظِ والمَطامِعِ النَّفْسِيَّةِ دَعَتْهُمْ إِلَىٰ مُمَالَأَةِ الطُّغاةِ ومُجاراتِهِمْ، ومُعاداةِ سَيِّدٍ والبَحْثِ

عَنْ زَلَّاتِهِ فِي كِتابَاتِهِ، واسْتِقْصاءِ أَخْطائِهِ: كَلِمَةً كَلِمَةً، وحَرْفًا حَرْفًا، لا سِيَّما فِي كِتابِهِ الكبيرِ: (فِي ظِلَالِ القُرْآنِ)، ليسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا النَّبْشَ عَنْ زَلَّاتِ سَيِّدٍ، وإِخْراجَهَا، وتَكْبِيرَهَا، وإِظْهارَهَا للنَّاسِ؛ وُصولًا إِلَىٰ إِسْقاطِ فِكْرِهِ؛ لِفَضِّ النَّاسِ عَنْ مَدْرَسَتِهِ، واسْتِمَالَتِهِمْ إِلَىٰ أَنْ يكونُوا مِنْ أَتْباعِهِمْ؛ وإِرْضاءً لأسيادِهِمْ، وأولياءِ نِعْمَتِهِمْ مِنَ الطُّغاةِ؛ وحَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَأْتُوا بِمِثْلِ مَا أَتَىٰ بِهِ سَيِّدٌ مِمَّا فَتَحَ اللهُ تعالَىٰ عليْهِ فِي كِتَابِهِ الفَرِيدِ البَدِيعِ، حيثُ كانَ كِتَابُهُ أُعْجوبَةَ العَصْرِ، ومَفْخَرَةَ الزَّمانِ، ليسَ فِي كُتُبِ السَّابقينَ ولَا اللَّاحقينَ مِثْلُهُ.

ويَحْلِفُ أَحَدُهُمْ باللهِ تعالَىٰ أَنَّهُ إِنَّما يُرِيدُ الدِّفاعَ عَنِ الدِّينِ، والتَّصدِّيَ للبِدَعِ فِي الدِّينِ، بِبَيانِ الباطِلِ للنَّاسِ حتَّىٰ لا يَنْخَدِعوا بِهِ، وحتَّىٰ يَحْذَرُوهُ.. وَلَوْ فَتَّشَ أَحَدُهُمْ نَفْسَهُ كَمَا يَنْبَغِي؛ حَقَّ التَّفْتِيشِ، وجَرَّدَ نَفْسَهُ مِنْ خَفِيِّ هَواهَا؛ لَوَجَدَ الحَسَدَ فِي نَفْسِهِ يَغْلي علىٰ سَيِّدٍ غَليانَ المِرْجَلِ[1]، وَلَوَجَدَ أَنْ هواهُ هُوَ الذِي أَمْلَىٰ عَلَيْهِ كُلَّ هَذَا: إِرْضاءً لسُلْطانٍ ظالمٍ، وحِفْظًا لِمَوْقِعٍ أَوْ مَنْصِبٍ أوِ امْتيازٍ.. ولَوَجَدَ حالَهُ مَعَ سَيِّدٍ كَحالِ قَاتِلِ عُثمانَ رضي الله عنه، حينَ «وَثَبَ عليهِ عَمْرُو بْنُ الحُمْقِ، وبِهِ رَمَقٌ، وطَعَنَهُ تِسْعَ طَعَناتٍ، وقالَ: ثلاثٌ للهِ، وستٌّ لِمَا فِي نَفْسِي عليهِ»[2].. ولَقَدْ كَذَبَ الأَبْعَدُ؛ فَمَا فِي قَتْلِ ذِي النُّورَيْنِ رضي الله عنه شَيْءٌ للهِ تعالَىٰ..

* أَمَّا أَخْطاءُ سَيِّدٍ وزلاتُهُ؛ فَلَسْنَا نُبَرِّئُهُ مِنْها، وليسَ هُوَ المَعْصومَ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-؛ فَلا يَخْلُو كِتابٌ مِنْ زَلَّاتٍ وسَقَطاتٍ؛ كَما لَا يُبَرَّأُ كاتِبٌ -مَهْمَا عَظُمَ- مِنْ أَخْطاءٍ وزَلَّاتٍ..

---

(1) المِرْجَلُ: الإِناءُ الذِي يَغْلِي فيهِ الماءُ، وسواء كانَ مِنْ حديدٍ أو صُفْرٍ (نحاس) أَوْ حِجارَةٍ أو خَزَفٍ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: 4/ 315.

(2) سير أعلام النبلاء، للذهبي: 2/ 484.

ولَقَدْ وَقَعَ كبارُ العُلماءِ قَديمًا وحَدِيثًا مِنْ أَئِمَّةِ الدُّنْيا -الذينَ يَتَواصَىٰ الحَانِقُونَ علَىٰ سَيِّدٍ بِمُدارَسَةِ كُتُبِهِمْ، ويُقَرِّرُونَها فِي مناهِجِهُمُ العِلْمِيَّةِ- فِي أَكْثَرَ مِمَّا كانَ عِنْدَ سَيِّدٍ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالَىٰ-؛ ولَوْلا إِجْلالُنَا للعُلماءِ، وَخَوْفًا مِنْ إِذْهابِ هَيْبَتِهِمْ والجُرْأَةِ عليهِمْ؛ لَبَيَّنَّا كَثيرًا مِنْ ذلِكَ؛ ولكنَّ أَدَبَ الإِسْلامِ وجَلالَةَ العُلَماءِ وهَيْبَتَهُمْ فِي نُفُوسِنَا تَمْنَعُنا مِنْ أَنْ نُشيرَ إِلَيْهِمْ؛ فَضْلًا علَىٰ أَنْ نَذْكُرَ عُيُوبَهُمْ، إِلَّا علَىٰ مَنْهَجِ العُلماءِ الرَّبَّانِيِّينَ، الذينَ لا يَقْصِدُونَ تَتَبُّعَ زلَّاتِ العُلماءِ وأَخْطائِهِمْ؛ فَإِذا مَا عَرَضَ لَهُمْ مِنْها شَيْءٌ فِي مَسْأَلَةٍ مَا؛ حَمَلُوا كَلامَهُمْ علَىٰ أَحْسَنِ المَحامِلِ؛ إِنْ وَجَدُوا لَهُ علَىٰ الخيرِ مَحْمَلًا، وإِلَّا رَدُّوهُ بِأَدَبٍ ولُطْفٍ، وتَرَحَّمُوا عليهِمْ، وَدَعَوْا لَهُمْ بالغُفْرانِ؛ وهَذَا كَثيرٌ كَثيرٌ؛ فَانْظُرْ علَىٰ سبيلِ المِثالِ، لَا الحَصْرِ إِلَىٰ ابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ فِي شَرْحِهِ كَلامَ الإِمَامِ الهَرَوِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ- فِي كتابِ: (مَدارِجِ السَّالِكِينَ بينَ منازِلِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتعينُ)، فَهُوَ يَأْخُذُ علَىٰ الإِمَامِ الهَرَوِّي قَوْلًا قَالَهُ فِي القَدَرِ -وهِيَ مَسْأَلَةٌ مِنْ أَهَمِّ أُصولِ عَقائِدِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -عليهِمْ رِضْوانُ اللهِ تعالَىٰ- وأَدَقِّها؛ إِذْ فِيها هَلَكَ فِرَقٌ كَثيرَةٌ؛ فَيَرُدُّ قَولَهُ فيها بِأَدَبٍ ولُطْفٍ، ويَعْتَذِرُ لَهُ بِأَحْسَنِ الأَعْذارِ، ثُمَّ يقولُ بَعْدَ ذلِكَ فيهِ: «وَلَا تُوجِبُ هَذِهِ الزَّلَّةُ مِنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ إِهْدَارَ مَحَاسِنِهِ، وَإِسَاءَةَ الظَّنِّ بِهِ، فَمَحِلُّهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِمَامَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّقَدُّمِ فِي طَرِيقِ السُّلُوكِ الْمَحِلُّ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ وَمَتْرُوكٌ إِلَّا الْمَعْصُومَ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَالْكَامِلُ مَنْ عُدَّ خَطَؤُهُ، وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَجَالِ الضَّنْكِ، وَالْمُعْتَرَكِ الصَّعْبِ، الَّذِي زَلَّتْ فِيهِ أَقْدَامٌ، وَضَلَّتْ فِيهِ أَفْهَامٌ، وَافْتَرَقَتْ بِالسَّالِكِينَ فِيهِ الطُّرُقَاتُ، وَأَشْرَفُوا -إِلَّا أَقَلَّهُمْ- عَلَىٰ أَوْدِيَةِ الْهَلَكَاتِ»[1].

---

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية: 1/ 209.

* وَلَقَدْ كتبَ اللهُ تعالَىٰ علَىٰ البَشَرِ الخَطَأَ والزَّلَلَ، وأَبَىٰ أَلَّا تَكُونَ العِصْمَةُ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وأَلَّا يكونَ الكَمالُ المُطْلَقُ إِلَّا لَهُ سُبْحانَهُ.. فَإِذا كانَ الأَمْرُ هَكَذَا؛ وَلَقَدْ كَانَ جَدِيرًا بِعُلماءِ الأُمَّةِ أَنْ يُنْصفُوا سَيِّدًا حَقَّ الإِنْصافِ كَمَا أُنْصِفَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ العلماءِ، وأَنْ يَعْكُفُوا علَىٰ كُتُبِهِ؛ ويَسْتَخْرِجُوا مَا فِيها مِنْ عُلُومٍ وفُنونٍ، ولَوْ فَعَلُوا؛ لَوَجَدُوا فِي كِتَابِهِ: (فِي ظِلالِ القُرْآنِ) وَحْدَهُ مِائَةَ عِلْمٍ وعِلْمٍ.

* أَمَّا مَا وقعَ فيهِ سيِّدٌ مِنْ زَلَّاتٍ؛ فَيُحْمَلُ علَىٰ أحسنِ المحامِلِ إِنْ وُجِدَ لِذلكَ سَبِيلًا، ومَا ليسَ لَهُ سبيلٌ للتَّأويلِ الحَسَنِ، يُنَبَّهُ عليهِ بِلُطْفٍ ورِفْقٍ، ويُبَيَّنُ مَا ينبغِي أَنْ يكونَ عليهِ مِنَ الصَّوابِ، وأَنْ يَتَرَحَّمُوا عليهِ، ويَدْعُوا لَهُ بالغُفْرانِ، كَمَا هُوَ دَأْبُ العُلَمَاءِ المُنْصفينَ.

* أَمَّا الصِّنْفُ الثَّانِي مِمَّنْ وَقَعُوا فِي سَيِّدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تعالَىٰ-؛ فَهُمْ الذينَ ليسَ لَهُمْ اتِّساعٌ فِي العِلْمِ، وإِنَّما هُمْ تَبَعٌ لِبَعْضِ العُلماءِ، يقولُونَ ما يَقُولُونَ، ويُرَدِّدُونَ ما يُرَدِّدُونَ، فَهُمْ طَيِّبونَ صَادِقُونَ فِي نَواياهُمْ، ولَكِنَّهُمْ أَخْطأُوا فِي مُتابَعَةِ عُلمائِهِمْ علَىٰ أَخْطائِهِمْ، وَوَقَعُوا فيمَا وقعَ فيهِ عُلماؤُهُمْ مِنْ أصحابِ الهَوَىٰ؛ مِنْ غيرِ أَنْ يكونَ لَهُمْ مَصْلَحَةٌ خَاصَّةٌ فِي هَذَا؛ اللَّهُمَّ إِلَّا الخَدِيعَةُ بقولِ العُلَماءِ مِنْ أصحابِ الهَوَىٰ، وهَؤُلاءِ لَيْسوا مَعْذورينَ كَذَلِكَ، وإِنَّما الذِي عَلَيْهِمْ أَلَّا يُتابِعُوا عُلَماءَهُمْ عَلَىٰ الخَطَأِ؛ فإِنَّ اللهَ تعالَىٰ سائِلٌ كُلَّ إنسانٍ عَنْ نَفْسِهِ؛ فَلْيحَذَرْ هؤلاءِ مِنْ يَوْمٍ يَتَلاعَنُ فِيهِ الأَتْباعُ والمَتْبوعُونَ، ويَتَبَرَّأُ فيهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ

دَاعِيًا اللهَ ﷻ أنْ يُبَارِكَ فِي هَذَا الكِتابِ، وأنْ يَتَقَبَّلْه منَّا، وأَنْ يَكْتُبَ لَهُ القَبُولَ، وأَنْ يُعْظِمَ لَنَا بِهِ الأَجْرَ، ولِكُلِّ مَنْ قَامَ بِخِدْمَتِه، وأَعَانَ عَلَىٰ إِنْجازِهِ، ولِكُلِّ مَنْ أَفادَ مِنْه عِلْمًا وعملًا وتعليمًا؛ اللَّهُمَّ آمينَ، وصَلَّىٰ اللهُ، وسَلَّمَ وبارَكَ عَلَىٰ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ، وعلَىٰ إِخْوانِه النَّبِيِّيْنَ، وعلىٰ آلِه، وكلِّ مَنْ تَبِعَهُ علَىٰ دِينِهِ إِلَىٰ يومِ الدِّينِ.

تَمَّ هذا الشَّرْحُ بِفَضْلِ اللهِ تعالَىٰ ومِنَّتِهِ وتَوْفيقِهِ غُروبَ شَمْسِ الخَميسِ، الثانِي والعِشْرينَ مِنْ جُمادَىٰ الآخِرَةِ، لعامِ 1437ه، الموافق: 31 مارس/ 2016م.

وآخِرُ دَعْوانا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ

وكتبه

زكريا بن طه شحادة

مُحتَوياتُ الكِتابِ

مُقَدِّمَةٌ.. 3
تَرْجَمَةُ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.. 12
مَنْهَجُ الكِتَابِ.. 17
القاعدةُ الأُولَىٰ: التَفَاؤُلُ والاسْتِبْشارُ في سَاعاتِ الشِّدَّةِ يَفْتَحُ الآفاقَ.. 19
نَماءُ الأَشْياءِ يَبْعَثُ علَىٰ التَّفَاؤُلِ والأَمَلِ.. 24
الخيرُ ماضٍ بالرَّغْمِ مِنَ القَتْلِ والتَّنْكيلِ.. 25
الأَلَمُ لا يُوقِفُ المَسيرَ.. 26
ضَعْفُ الشَّرِّ عَنْ مُغَالَبَةِ الخَيْرِ.. 27
مِنَ اللهِ تَعالَىٰ سِرُّ البَقَاءِ.. 28
القاعدةُ الثَّانِيَةُ: بَرَكَةُ الأَعْمَارِ فِي نَشْرِ الأَفْكارِ.. 31
امْتِدادُ الحياةِ مَا امْتَدَّتِ الأَفْكارُ.. 33
مُضاعَفَةُ الأعمارِ فِي اسْتِشْعارِ مَعْنَىٰ الحياةِ.. 34
مُضاعَفَةُ الأَعْمارِ فِي العَيْشِ للآخَرِينِ.. 36
القاعدةُ الثَّالِثَةُ: الخَيْرُ أَقْوَىٰ مِنَ الشَّرِّ وأَرْسَخُ.. 37
القاعدةُ الرَّابِعَةُ: العَطْفُ والإِحسانُ يَسْتَخْرِجُ الخيرَ المَكْنُونَ.. 40
سِرُّ كَسْبِ القُلُوبِ.. 42

أَصَالَةُ الخَيْرِ، وهَشَاشَةُ الشَّرِّ 45
القاعدةُ الخَامِسَةُ: فِي الإِحْسانِ رَاحَةٌ وهَنَاءَةٌ 52
العَطْفُ والاحْتِمَالُ دليلُ كَمالِ الدُّعاةِ 55
الرَّاحَةُ والسَّعَادَةُ فِي الحُبِّ والإِحْسانِ 57
القاعدةُ السَّادِسَةُ: الاسْتِعَانَةُ بالآخَرِينَ؛ كَمَالٌ لَا نَقْصٌ 59
لا عَيْبَ فِي الاسْتِعانَةِ بالنَّاسِ 62
الاسْتِعانَةُ بالآخَرينَ دليلُ ثِقَةٍ وكَمَالٍ 64
أُمْنِيَّةٌ؛ مَنْ يُسْعِدُها؟! 67
مَثَلٌ بَدِيعٌ 73
الفَرَحُ بِعَوْنِ الآخرينَ دَليلُ ثِقَةٍ وقُوَّةٍ 73
احْتِكارُ الأَفْكارِ دليلُ سَطْحِيَّةٍ وضَعْفٍ 75
عِنْدَ الأَوَّلينَ دَليلٌ وبُرْهانٌ 79
قِصَّةُ الرَّاشِدِ رَشِيدَةٌ 81
غَايَةُ فَرَحِ الدُّعاةِ بِرُؤْيَةِ مَنْ يَحْمِلُ أَفْكارَهُمْ 83
مُقَارَنَةٌ ومُفَارَقَةٌ 84
الدُّعاةُ وُسطاءُ بينَ السَّابِقِ واللَّاحِقِ 85
العَظَمَةُ فِي السَّمَاحَةِ 86
التَّوَازُنُ الحَكيمُ بينَ المُتَنَاقِضَاتِ الدَّعَوِيَّةِ هُوَ العَظَمَةُ الحَقَّةُ 87
القاعدةُ السَّابعةُ: إِدْراكُ الحَقَائِقِ ومَعْرِفَتُهَا مِنْ أولويَّاتِ أصحابِ الفِكْرِ الرَّشيدِ 94
القاعدةُ الثَّامِنَةُ: تَكَامُلُ الطَّاقَاتِ طَرِيقَةُ الحُكَمَاءِ 101
احْتِراسٌ نَبِيهٌ 103
التَّكَامُلُ والشُّمُولُ؛ سبيلُ تَجْديدِ أَمْرِ الدِّينِ 104

لا تَعارُضَ بينَ القُوَىٰ المُتَنَوِّعَةِ 108

قِلَّةُ الرُّوَادِ صِحَّةٌ وكِفَايَةٌ 112

القاعدةُ التَّاسعةُ: التَّوازُنُ الرَّشيدُ بينَ الغَيْبِ المَجْهُولِ، والعَمَلِ الدَّؤُوبِ 114

التَّنَكُّرُ للغَيْبِ خَطَرٌ 116

كُلَّ يومٍ رَبُّنَا فِي شَأْنٍ 124

مَا لَا يَعْلَمُ الإنسانُ أكثرُ مِمَّا يَعْلَمُ 127

عِلْمُ الإنسانِ شَاهِدٌ علَىٰ قِلَّةِ عِلْمِهِ 130

احْتِرامُ العَقْلِ يَدْفَعُ للإيمانِ بالغَيْبِ 131

الإيمانُ بالغيبِ عَقِيدَةُ الأَوَّلينَ والآخِرينَ 133

القاعدةُ العَاشِرَةُ: عَظَمَةُ المَخْلُوقِ بِتَعْظيمِ الخَالِقِ 140

كُلَّمَا قَوِيَ الإنسانُ؛ ازْدادَتْ عَظَمَةُ اللهِ تعالَىٰ فِي نَفْسِهِ 143

كمالُ العِزَّةِ فِي الاسْتِنادِ إِلَىٰ عظَمَةِ اللهِ تعالَىٰ 144

عِبادَةُ المُقَرَّبينَ مَبْنِيَّةٌ علَىٰ التَّعْظيمِ 147

القاعدةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَوافُقُ مَفْهومِ الحُرِّيَّةِ وتَشْريعاتِ الإِسْلامِ 150

حَدُّ الحُرِّيَةِ المأذُونُ 152

الفَرْقُ بينَ التَّحَرُّرِ الحَقِيقِيِّ، والتَّحَرُّرِ الحَيَوانِيِّ 154

التَّحَرُّرُ الحَيَوانِيُّ المُقَنَّعُ الزَّائِفُ: رِقٌّ وعُبودِيَّةٌ 155

لا اسْتِحْياءَ مِنَ التَّمَسُّكِ بالمبادِئِ وضَروريات الإنْسانِيَّةِ 156

القاعدةُ الثَّانيةَ عَشْرةَ: حَياةُ الفِكْرَةِ بِمَا يُقَدِّمُهُ أَصْحابُهَا مِنْ تَضْحياتٍ 161

قُوَّةُ إيمانِ صاحِبِ الفِكْرَةِ؛ يَمْنَحُها الحياةَ والنَّماءَ 162

التفريقُ بينَ الفِكْرَةِ وصاحِبِها كالتَّفْريقِ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ، سواءً بسواءٍ 163

قَلْبُ الإنسانِ هو قُوتُ الفِكْرَةِ المُقَدَّسُ 166

القاعدةُ الثَّالثةَ عَشْرةَ: الغَايَةُ لَا تُبَرِّرُ الوَسِيلَةَ..... 169
مَثَلٌ مَعْهُودٌ..... 171
لا فَرْقَ بينَ الوَسيلَةِ والغايَةِ فِي عالَمِ الرُّوحِ..... 172
القاعِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: عَزَاءُ النَّاسِ: مَدْخَلٌ لقُلُوبِهِمْ، وفَرْحَةٌ لِلْمُعَزِّي..... 177
الإحسانُ بِلَا مُقابِلٍ غايَةُ الدُّعاةِ..... 183
القاعدةُ الخامسةَ عَشْرةَ: لا خَوْفَ وَلَا حُزْنَ عَلَىٰ الدُّعَاةِ العَامِلِينَ المُخْلِصِينَ عِنْدَ المَوْتِ..... 187
العَطاءُ أَخْذٌ فِي عُرْفِ الدُّعاةِ الصادقينَ..... 190
حِفْظُ اللهِ تعالَىٰ الدَعواتِ بعدَ موتِ الدُّعاةِ الصادقينَ..... 191
رجاءُ عَفْوِ اللهِ تعالَىٰ ورَحْمَتِهِ ورِضْوانِهِ غايَةُ الدُّعاةِ..... 193
هَذا هُوَ سَيِّدُ قُطْبٍ..... 195
وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَىٰ أَشَدُّ مَضَاضَةً..... 202
مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ..... 208